

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



نسخة
منسقة

مجلة
الأبنت
سماح

A.M.



هيفاء بيطار

www.ibtesama.com

نسر بجناد وحب

<http://www.makbtna2211.com/>

رواية

فريق العمل بقسم تجميع مكتب مجانية



شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا



Dr. Ahmed Mady
د. أحمد ماضي

A.M.

نسر بجناح وحيد

رواية

هيفاء بيطار



منشورات الاختلاف
Editions El-khtlef

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يوم المعجزة، أو يوم ألف ليلة

أفاق في الخامسة فجراً على كابوس، فتح عينيه مجفلاً بينما قلبه يطرق بقوة مضخخة، وجسمه مهدود، كأنه قضى كل الليل يصارع قوى وهمية، لم يميّز بدقة أثاث الغرفة لأن عتمة تشرين الثاني كانت تغمرها. إحتاج لدقائق كي يسيطر على رعبه ويرجو قلبه أن يخفف من ضرباته الهستيرية، استوى في فراشه وهو يؤكد لنفسه أن كل مألوفه ليس سوى منام. مشط شعره الفاحم شديد النعومة بأصابع يديه، بحركات متلاحقة، لكن أي منام هذا؟ إنه كابوس حقاً. تألفت عيناه مع الظلمة واستطاع أن يميز الأثاث الأبدي، الخزانة الهائلة قبالة المكتبة القديمة عن يساره، والمرآة والكومودينو عن يمينه. استعاد حلمه وهو يحس بالدهشة ويتساءل: أين يكمن الرعب فيه؟ لقد حلم بنفسه وهو في الثالثة عشرة من عمره يجلس على مقاعد الدراسة البنية المهترئة، كم كانت تلك الصورة واضحة، الصف ذاته في الطابق الثاني، بنافذتيه العريضتين المطلتين على حديقة مهجورة، وهو لا يحلو له الجلوس إلا قرب النافذة، رغم أنه أصيب مرتين بنزلة صدرية لتسرب الهواء البارد إليه من مفاصل النوافذ المهترئة، استعاد وجوه زملاء دراسته، حتى صورة أستاذ العلوم كانت من الواضوح لدرجة تذكر بزته الوحيدة التي كان يلبسها طوال العام الدراسي، وحذاءيه المضاعفين في الأيام الماطرة، كان منظره يثير السخرية وهو يتعلل حذاء من النايلون الرخيص فوق حذاءه الجلدي، واستطاع في منامه أن يحس بالسخرية التي كان الطلاب يحسونها تجاه الأستاذ وحيد البذلة. غريبة هي الذاكرة، إن خياله يوقظ ذكريات تعود لأكثر من ربع قرن، لا تزال طازجة ومحفورة عميقاً في تلافيف دماغه..

لكنه عاد يتساءل: أين يكمن الرعب في هذا المنام؟ أه يكمن في الحلم، في الحلم ضمن الحلم، كان جالساً في مقعده الدراسي في الصف الثامن وأستاذ العلوم يشرح الدرس، فيما هو سارح من خلال زجاج النافذة إلى البعيد، يحلم أن يصير طبيباً، حلم وحيد راوده سنوات طويلة، الحديقة المهجورة تذكرها تماماً، بنخلتها القصيرة اليايسة وأكوام الأوراق والقمامة التي كانت تلقى فيها من المنازل المجاورة، تساءل وهو يقوم من فراشه متجهاً بآلية إلى المطبخ ليعد قهوته: أين يكمن الرعب في هذا المنام؟ أجاب نفسه: في الحلم ضمن الحلم، في حلم الطب، الذي تحقق للأسف. ترك قهوته تغلي واتجه غاضباً صوب البراد الذي يصم أذنيه بهدير محركه، إنه يكره الأشياء أحياناً كالأشخاص، أدار القرص الأسود داخل البراد، فأطفأ محركه، توقف الهدير المزعج، منذ سنوات يغلي غضباً من صوت محرك البراد الذي أصابته الشيخوخة، ولا يمكن من شراء براد جديد لأنه لا يملك المال. اندلقت القهوة، فلعن صباحه الذي ابتداءً بكابوس واندلاق القهوة، خرج إلى الصالون ليرشف قهوته محاولاً استعادة شيء من صفائه، طارداً العكر الشديد الذي خلفه الكابوس في روحه، لكن سحر المنام ظل يلفه، قاعة الدراسة يكاد يشم رائحتها، المقعد الخشبي الضخم بالثقب الدائري في جانبه حيث كان الطلاب يحشرون علب الحبر، الكلام العاطفي الرخيص والمبتذل والنكات التي كانت تكتب بالأقلام أو تحفر بسكين صغير. حتى الخريطة المهترئة للعالم العربي المغطاة بالغبار بتمزقها الجانبي الذي ألصق مراراً تذكرها. يالهول مخزون الذاكرة. أكثر مآله حالة الحلم التي تجسدت أمامه، لكأنه رجع ربع قرن إلى الوراء الحلم بالسماعة وجهاز الضغط والروب الأبيض، والعيادة الغاصة بالمرضى، والسيارة الأنيقة التي يقودها مسرعاً لإسعاف المرضى، والبيت الأرستقراطي الذي يسكنه مع أسرته، والرحلات إلى الخارج... استعاد في حلمه كل طاقته على الحلم حين كان في الثالثة عشرة، أكد لنفسه وهو يرشف قهوته أن الرعب يكمن تحديداً في الحلم بدخول كلية الطب، وخاطب صورته في الحلم: أيها الأحمق، أما كنت تعرف كيف سيؤول إليه وضع الطب!!

نظر في ساعته، لاتزال الخامسة والنصف، لكم يكره الاستيقاظ باكراً ماذا سيفعل؟ تناول مجلة، قلب صفحاتها، استوقفه عنوان (السفاح بين الأقارب) قرأ بدون تركيز عن حادثة اغتصاب تعرضت لها طفلة في التاسعة من عمرها من قبل والدها، رمى المجلة جانباً وعاصفة غضب تنفجر في صدره، حدث نفسه: والله هؤلاء الآباء يستحقون الإعدام، كرر تلك الكلمة مراراً مفرغاً كل مرة شحنة من حنقه، كانت صورة الفتاة تنضح بالألم والضياع رغم العصابة السوداء التي غطت عينيها رشف القطرة الأخيرة من قهوته وتساءل: هل يعاود النوم أم يستحم؟ كاد النوم يغويه أكثر مقدماً له صورته يتناول الحبة المنومة ويستسلم لدفء الفراش لولا أنه تذكر مواعده الصباحي مع فريال، المرأة الشبقة التي تعيش للجنس كما يسميها. تذكر كيف يمازحها قائلاً: الحياة تعني الجنس بالنسبة لك، فترد ضاحكة: وماذا في ذلك، كل الناس الحياة بالنسبة إليهم تعني الجنس، لكنهم يكذبون، ويتبجحون بالقيم والأخلاق، فيضحك عالياً مردداً قولها بسخرية: القيم والأخلاق.

اتجه إلى الحمام وضغط الزر الكهربائي لتسخين المياه، ثناءب وتمطى، الوقت لايزال مبكراً جداً، اللعنة على الاستيقاظ المبكر، غمرته موجة مباغته من الحزن وهو يتلبس شخصية الفتى في حلمه، شخصيته هو منذ ربع قرن، تمدد على فراشه مريحاً رأسه على ساعده المطوية باتجاه عضده، شعر بحنان جارف تجاه ذلك الفتى الذي يملك طاقة رائعة على الحلم، تذكر كيف كان يدرس بإخلاص نسكي، وكيف كان يتشاجر مع والديه حين يطلبان إليه أن يرتاح وأن يرفه عن نفسه بحضور المسلسل اليومي، كان يحتج غاضباً: عجباً كيف تطلبون مني أن أقطع دراستي لأحضر المسلسل!؟

يخاطب أمه: ألا تخشين علي، يجب أن تشجعيني دوماً على الدراسة.

- لكنك لا تحتاج لتشجيع.

- بل أحتاج كل لحظة لمن يشجعني، هل نسيت أنني أسعى كل جهدي

لأغدو طبيباً جراحاً.

- يستحيل أن أنسى، أنه حلمنا أيضاً، أن تغدو طبيباً، لكن رّفه عن نفسك قليلاً يا بني. يتنهد بارتياح لكأنه يستحضر صور الزمن الآتي، حين سيغرق في الرفاهية بعد أن يصير طبيباً يفتح عيادة، يقول وهو يتجاوز أمه بنظراته: سيأتي زمن الراحة والرفاهية يأمي، من طلب العلى سهر الليالي.

نفض عنه الغطاء واتجه إلى الحمام، سرت في جسده قشعريرة برد، اللعنة على هذا الدوش، قرصه قديم صديء وقد تكلّست أغلب ثقبه، الماء يسيل منه بخطوط رفيعة، تذكر كيف صعق حين سأل عن سعر صنبوري المياه وعمود الدوش قالوا له بعد المساومات: عشرون ألفاً، أي راتبه عن أربعة أشهر. راتبه هو الوحدة القياسية في حياته، كل شيء يقيسه استناداً إلى راتبه المصاب بالشلل كما يحلو له أن نسميه، لم ينس كيف غضب وشم الغلاء والزمن والراتب والطب... هل هناك أشياء فرّت من لعناته؟ أبداً حتى هو نفسه لم ينج من مطر اللعنات التي يقذفها لسانه، لعن اجتهاده والساعة التي دخل فيها كلية الطب، والساعة التي قرر فيها أن يختص جراحة، أية حياة هذه تتحول إلى لعنات؟! حضر فنجان قهوته الثاني، بعد أن أعطاه الاستحمام شيئاً من النشاط فكّر أن من المفضل أن يخفف القهوة إذا أراد فعلاً الانقطاع عن تناول المنوم كل مساء، لكنه للحال سخر من فكرته وقال بتهكم: ولماذا أنقطع عن صديقي المفضل، كيف عساني أنام دون تلك الحبة الاسعافية التي توقف تدفق وعيي وأفكاري، تنهد، لكم هو متعب صحوه، إنه يحسد الناس الذين يسرحون ساعات في اللاشيء، أما هو فلايكف تفكيره عن العمل لحظة واحدة، يصول ويجول في كل شيء كرر جملته: آه، ما أصعب صحوي فكيف سأمتنع عن المنوم.

لا يذكر بدقة كيف تعلق بالمنومات؟ كم كان نومه سهلاً أثناء الدراسة ما أن يوسد رأسه على المخدة حتى يغرق في نوم عميق، لكنه ما إن بدأ حياته العملية حتى أصبح يعارك الأرق كل ليلة، أنهكه العراك الطويل لساعات الليل، لجأ إلى المنوم يستنجد به من البخلقة في الأثاث، وأفكار شيطانية خبيثة تنتط في دماغه، تصوّر له المستقبل بالأمل، بلانافذة خلاص من الذل اليومي متعدد الوجوه، عدم قدرته على التأقلم واستيعاب الظروف المستجدة والمبطنة بالقلق

المتعاطم، حبة صغيرة من المنوم توقف كل هذا التدفق، تجعله ينتقل إلى ضفة الأمان اللاواعية، تغرقه في نوم عميق عميق بلا أحلام. هذا ما يحتاجه، كي يتمكن من استئناف يوم جديد، خيبة جديدة، تطرأ أمر الإدمان على المنومات، حتى صار يستيقظ بعد منتصف الليل، فيتجه بآلية إلى خزائنه يفتح بابها، يمد يده إلى العلبة الصغيرة يخرج قرصاً يتلعه مع قليل من الماء، وغالباً بدون ماء، يعود إلى فراشه مندساً في مخاوفه منتظراً حالة الغياب.

ذات مرة قرّر بعزم أن ينقطع عن إدمانه، تحدى نفسه ورمى الحبوب في القمامة، خفف شرب القهوة رغم ولعه بها، رشف فنجانين فقط، واحداً صباحاً، والثاني الساعة الرابعة بعد الظهر، ولما حلّ المساء داهمه الخوف بأنه لن ينام، وبعد منتصف الليل أحس بوهن شديد، وأخذت عضلاته تؤلمه وقلبه يتسرع، ندم كونه رمى المنومات في القمامة، لكن عزمه على إيقاف ذلك الإدمان كان قوياً، صبّ لنفسه قليلاً من الويسكي وأخذ يرشفه على مهل سرى خدر لذيذ في أوصاله، وحين تمدد في فراشه أخذت ضربات قلبه تتسارع أكثر وأكثر، أغمض عينيه متوسلاً لكل قوى الخير في الوجود أن تسعفه لينام، أغفى ساعتين، لكنه أفاق منزعجاً وهو يحس بضيق وضجر شديدين شرب قهوة الصباح محاولاً بث شعور الانتصار في نفسه بأنه تغلب على الحبة المنومة، ورغم أن يومه مرّ تعساً وهو يغالب تعباً يهد مفاصله، إلا أنه حاول أن يوهم نفسه بأنه راضٍ ومرتاح، وألزم نفسه بالاعتقاد من شرب القهوة، لكنه في قرارة نفسه كان يعرف كم هو مخدوع، ويكذب على نفسه.

حين حلّت الليلة الثانية أخذت أعراض نقص النوم تشتد عليه، ضيق وضجر، ساءل نفسه: مامعنى أن تبطل تناول قرص يريحيك، ويدخلك بحالة من السلام المطمئن؟ لماذا عليك أن تظل صاحباً متعاركاً مع الأفكار الشيطانية؟ صبّ لنفسه القليل من الويسكي لكنه لم يشعر بالارتخاء المرجو الذي يقوده للنوم، دسّ نفسه في فراشه والساعة تتجاوز منتصف الليل، كاد يكي من التوتر، لم يسعفه النوم، أخذت ضربات قلبه تتعاطم وأنفاسه تضطرب كأنه

يؤذن ببيكاء لا يتحقق، ندم كونه رمى الحبوب في القمامة، من أين سيحصل عليها الآن؟!

قام من فراشه رامياً الغطاء بعصبية، واتجه بآلية إلى صندوق الأدوية الأبيض الصغير المعلق في جوار المشى، أشعل النور وأخذ ينكش في الأدوية، كلها دعايات من شركات الأدوية، أحس بغبطة شديدة وهو يكتشف إبرة فاليوم، كسرهما ليشربها رغم انتباهه أن مدة صلاحيتها المنتهية منذ تسعة أشهر، ياللطعم المر المثير للغثيان، شرب بعدها الماء، وجلس في كرسي وحدته شاعراً بالسريان السريع للدواء في أعصابه يخدرها ويشلها، ياه مألحلى الخدر، بالكاد جرّ نفسه إلى فراشه وغرق في لاوعي لذيذ، لذيذ. تنبه لصوت أمه توقظه صباحاً وهي تسأله برفق: كريم ألن تذهب إلى المشفى، الساعة الآن العاشرة إلا ربعاً؟ كان يتمنى لو يظل في فراشه، لكنه تحامل وقام يلبس ثيابه على عجل، أمكنه أن يشرب في ذلك اليوم ماشاء من القهوة، صمم أنه لن يطل المنومات ابداً، فهي وسيلته الوحيدة في تحملّ حياة تصارعه في دقائقها وثوانيتها مهشمة أبسط أحلامه.

حين دخل الصيدلية ليشتري الحبوب المنومة ذاتها، أحس بسعادة كبيرة، لقد لقنه اليومان العصبيان درساً مهماً بأن الحياة لا يمكن أن تحتل دون وسائل مساعدة.

نظر في ساعته، إنها الثامنة، تنهد متأففاً: ليس هناك ما هو أشد إزعاجاً من الاستيقاظ الباكر، حاول تبديد نكده المتأصل في روحه منذ سنوات، بأن يستحضر ذكرياته الطازجة مع فريال، تمددت كل صورهما معاً أمام ناظره، أشعل سيجارة ونفث دخانها ملاحقاً بنظرة تلاشي الدخان في الفراغ، هكذا علاقته مع فريال مجرد دخان يتلاشى. تذكر يوم قصده في عيادته منذ عام، في مثل هذا الوقت من السنة، كانت السماء محجبة بالغيوم الرمادية التي أرخت وطأتها على روحه، كان جالساً في عيادة تحنيطه الأبدية منذ ساعتين يحارب أنتظاره اللجوج للمريض، غزته رائحة عطر انثوية كثيفة، وأطلت سيدة

أميل للامتلاء، تملك جاذبية طاغية، حاول طرد سحنة الملل عن وجهه، وتحريك قليل من الدماء الساخنة في وجنتيه، دعاها للجلوس مرحباً بها بلباقته المعهودة مع السيدات خاصة، وابتدأ استجوابه التقليدي عن الاسم والعمر والمهنة والشكوى والحالة العائلية، أخبرته أنها في الثلاثين متزوجة من رجل يكبرها بعشرين عاماً، منذ سبع سنوات، ولم ترزق منه بأولاد، وبأن العيب من زوجها، توقفت عند تلك المحطة الكلامية مركزة أنظارها في عينيه لتبين مدى تعاطفه معها، تحديداً لتقيس نمو بذرة شهوته لها، سألها عن شكواها فقالت بأنها تعاني آلاماً مبهمّة في بطنها، وبأنها قصدت العديد من الأطباء باختصاصات مختلفة فلم يعرفوا سبباً لأوجاعها.

دعاها إلى سرير الفحص، طلب إليها أن تتمدد عليه كاشفة عن بطنها وأشار إلى الشرف الأيسر لتغطى به، تركها لتستعد لوضعية الفحص، مديراً ظهره، متشاغلاً بتعقيم يديه بالكحول...

همست بصوتٍ معجون بنداء الأنوثة: أنا جاهزة. صفعه بياضها المثير، وحين أخذت أصابعه تضغطان في مناطق معينه في بطنها الطري وهو يعي كيف تتعمد أن تسمعه صوت لهاثها المفتعل، قالت له فجأة: دكتور زوجي لايجيد استعمال يديه!

ارتعشت يداه كأن كهرباء مفاجئة سرت بهما، نظر إليها، طالعتة صفحة وجهها تنضح بالرغبة، تحديداً عيناها المكحلتان باتقان بديع، وذلك البريق العميق المشع في بؤبؤي عينيها. ابتسم ابتسامة تعني أنه فهم إلى ماترمي، ابتعد وهو يقول لها بأنها تستطيع أن تسوي ملابسها وتلحقه إلى مكتبه....

هل تعمدت أن تريه جوف حقيبتها الممتلئ بالأوراق المالية من فئة الخمس مئة ليرة؟ وحين امتدت يدها لتدفع له، خفق قلبه فرحاً وهو ينتظر الورقة التي انتظرها طويلاً لأيام، فيما جيوبه خاوية إلا من ليرات قليلة، تظاهر أنه لايملك المال من فئة المئة ليرة ليعيد لها البقية بعد أن وضعت أمامه خمسمئة ليرة تلتع أنيقة متباهية بقيمتها أو شخصيتها - لافرق - استأذنها ليصرف الخمسمئة،

لكنها رفضت بشدة قائلة: اعتبر البقية ما سأدفعه عند المراجعة، أصرّ على رفضه الكاذب وأصرت وهي تقسم له أنها ترفض تسلّم أية بقية.

قدّم لها سيجارة تناولتها شاكرة، لفحته مجدداً رائحة عطرها الكثيفة، وهو يقترب منها ليشعل نار الرغبة فيها، سألتها عن علاقتها بزوجها عارفاً أنها تنتظر تحديداً هذا السؤال الذي سيكون مفتاح علاقتها، قالت بعد أن تنهدت بافتعال: إنه شبه عين، عقيم، وحين سألتها: لماذا لاتنصليين عنه؟ استنكرت بقوة وهي تقول بأنه يعيلها هي واسرتها ولايخل عليهم بشيء، وبأنها في الواقع تقدر أفضاله الكثيرة على أخوتها، وحين تفحصها بعينه السوداوين العميقتين، متعمداً أن يشعل ذلك الحنين المخترن والكامن في روحها لرجل يعرف أنها تتوق إليه ولم تعد تملك صبراً للارتقاء بين ذراعيه وسألتها: وشبابك؟ أبيض هدراً؟! قالت وقد كست وجهها سحنة حزن مبالغ فيه: الحياة لاتعطيك كل شيء يادكتور يجب أن تضحى بأشياء لتحصل على أشياء أخرى.. وافقها على كلامها كان سيوافقها على أي كلام ستفوه به.... قال لها بأنه لايفضل أن يعطيها أي دواء قبل أن تجري بعض الفحوص الشعاعية والمخبرية، لكنها علّقت بأنها أجرت مراراً هذه الفحوص، والنتائج دوماً سلبية. ترّجع صدى صوتها في أذنيه: زوجي لايجيد استعمال يديه، ابتسم قائلاً دون ذرة تحفظ: في الحقيقة، نضارتك الطاغية لايمكن أن تخفي وراءها مرضاً.. بادلته الابتسام بسخاء متعمد، كانت شرارة الاشتعال جاهزة للانطلاق، تبادلنا نظرة تواطؤ، حدّد لها موعداً للمراجعة، كتب لها وصفة دواء مسكن، نصحتها أن تتناول حبة منه إذا اشتدت عليها آلامها الوهمية، غادرت وهي تؤكد له أنها لن تنسى أبداً موعد المراجعة.

تعمدت أن تقصد عيادته في الموعد المحدد، متأخرة، اعتقد أنها لن تأتي وأوشك على إغلاق العيادة، إلى أن أنذره عطرها الهجومي بقدمها، دخلت لاهثة تعتذر عن تأخرها، شملها بنظرة متمرسية على افتعال الشهوة، أغلق باب العيادة، وخلال دقائق كانا متمددين على سرير الفحص الطبي، غارقين في متعة الاكتشاف الأولي، كانت تملك بشرة ساحرة بنعومتها، وقواماً ممتكاً بتناسق،

وكانت تهبه شفيتها، كما لو أنها تكافؤه، أحس بشهوتها مركزة في ذلك الاكتناز الشهوي في شفيتها، كانت تريد تخزين أقصى قدر ممكن من المتعة في ذاكرة جسدها، وكان شبقها يثيره إنما لا يدخله أبداً في إطار التواصل العميق المختبئ خلف لعبة الأعضاء المثيرة، ما كانت ترغبه فيه بقوة، الشباب المتمثل فيه النضارة والحيوية والقدرة، ما كانت تنفك تزرع ظهره وفخذه بأصابعها بخطوط حادة كأنها تحرثه، وتريده في الوقت ذاته أن يشتبهها حتى الإغماء، وكان يمثل بدوره أنه مستشار حتى حدوده القصوى، وبأن احتمال فتنها وسحرها يفوقان طاقة احتمالها. راقبها في لحظات نشوتها العظمى وتساءل: أيعقل أن تكون حقاً محلقة في عالم النشوة إلى هذا الحد؟ أم تراها تمثل؟ لاحظ من المرة الأولى التي تعرت أمامه بنفاذ صبر، كم تركز جهودها في امتاع نفسها، لا ينكر افتتانه بجمالها وجرأتها، وبأنها قادرة أن تقوده بلحظات إلى حيث تريد هي.. وبأنها لا تمثل لعبة الشرف والأخلاق المفروضة سلفاً على المرأة في الشرق، لكنها عاتبتة في الليلة ذاتها على الهاتف بأنه لم يجردها من ثيابها كاملة، وبأنها ظلت أسيرة حذائها وجواربها الحريرية الطويلة، وظل قميصها عالقاً بكتفيتها، أدهشته حقاً جرأتها، وإيمانها الوحيد بحقها في الاستمتاع، بأشباع شهوات جسدها النرجسي البديع، لا ينكر أن موجة من التقزز والنفور كبلت روحه وهي توصيه في قمة اندماجهما ألا يترك أثراً على جسدها، راودته عندها فكرة متسلطة بأن يتركها ويحرر جسده من أسر أطرافها، وتخيل زوجها المخدوع الذي يعتقد بإخلاصها له لمجرد حيطتها بالأيتك عشاقها أثراً على جسدها. لكنه اكتفى بالابتسام مجاملاً، فيما عاصفة من الاحتقار تنمو في روحه، وهو منهمك في تبادل قبلات أكثر غوصاً فيها.

فيما بعد أصبح يزورها في بيتها خاصة حين يكون زوجها مسافراً، كل مرة كانت تنتظره بشبق جامح، اعتقد في لبداية بأنه الرجل الأكثر إثارة بالنسبة لها، لكنه عرف أن لديها عشاقاً آخرين، لأن اتصالات هاتفية مفاجئة كانت تباغتها وتضطرها للانسحاب من غرفة شهواتها لتكلم من الخارج، ما كان يحس بأدنى شعور بالغيرة من عشاقها أو من زوجها، لم يشعر أبداً بأن روحه

تعانق روحها، كانت امرأة تفهم لغة الجسد فقط ولطالما تساءل: ألا يخطر لزوجها بأنها تخونه؟! أترأه يثق بها حقاً!

تذكر أن مواعده معها الساعة الحادية عشرة، سيقصد مشفى الرخام تمام العاشرة ليخربش توقيعه، ثم سيرشف القهوة مع الأطباء والمرضات في استراحة العمليات وسينسل هارباً في الحادية عشرة إلا ربعاً، ستكون بانتظاره عارية كعادتها تحت قميص نوم شفاف، سيقضي في سريرها الزوجي المقطر ذي الشراشف الملونة والمطرزة ساعة من التأجج الحاد للرجبة، ثم سيرشfan القهوة، سيعود قبل انتهاء الدوام إلى المشفى ليخربش توقيعه ظهراً، ياللمهزلة! لم تبد حياته على هذا القدر الهائل من العار كما بدت له هذا الصباح، وتساءل بدهشة عظيمة وكأنه ليس معنياً بحياته: أيعقل أن يفترّ جراح من المشفى ليذهب لمضاجعة امرأة، ثم يعود إلى عمله!؟

بدا له هذا الأمر خطيراً و مشيناً لدرجة لاتقبل أي تبرير، لكن ذاكرته سرعان مانبهته بأنه واحد من قطيع كبير يفرون كل يوم من المشفى بعد التوقيع الصباحي، ويعودون إليها عند اقتراب موعد التوقيع ظهراً. هل يقصدون عياداتهم، أم مشاغلهم الأخرى، أم يلاقون عشيقاتهم! كله يتساوى، تعددت الأسباب والموت واحد، رغم قناعته العقلية في تبرير فرار الأطباء من دوامهم الرسمي، إلا أن الصور التي شحذه بها خياله وهو يذكره بلقطات متتابعة من وصاله المحموم مع فريال في الوقت الذي يجب أن يتواجد فيه في غرفة العمليات أو العيادة الجراحية، بدا له أمراً لايحتمل... لكن، ماذنبه إن لم يكن هناك عمل؟! إلى متى سيظل يتساءل هذا السؤال؟ أيعقل أن يمضي العمر كله وهو أسير سؤال؟! أو حالة؟ لكن ألم تنصرم سنوات شبابه وهو ينوس بين عيادة التحنيط الأبدية ومشفى الرخام؟! أيستطيع أن يفترّ من هذه الحقيقة؟ ألا يلحقه الواقع كظله؟! كيف يستطيع الإنسان أن يفترّ من ظله؟. تلملم في جلسته، لم يستطيع كبح جماح غضبه من هذه الأفكار المتلاحقة، اللعنة على الاستيقاظ باكراً، اللعنة على الكابوس الذي أيقظه من نومه فجراً، لايزال منامه طازجاً وصوره تتراقص أمام ناظره، ياه، كم ينسى الإنسان ماضيه، أيعقل أنه كان

ذات يوم ذلك الطالب المجتهد الذي يحلم بدخول كلية الطب؟ لم يكن حلمه وحده، بل حلم أبيه وأمه، والده الذي أرهق نفسه سنوات في الدروس الخصوصية ليستطيع تأمين المراجع الطبية والمصاريف الضرورية لابنه، ول يتمكن من اللهاث وراء الغلاء المتعاضم، كم كان يداري تعبته، وهو يرجع في ساعة متأخرة من الليل محملاً بالأكياس، راسماً ابتسامة فوق سحنة إرهاقه العميق، متظاهراً أنه يتابع برامج التلفاز بعد أن يطمئن على دراسة ابنه، فيما عينيه غارقتان في نوم اشبه بالسبات، توفي المعلم المسكين بعد شهرين من تخرج ابنه أو حلمه من كلية الطب، كأنه أراد إرادياً اعتزال العمل الإضافي والتعب، كل المدينة سارت في جنازة أستاذ الرياضيات المثالي الذي أدى رسالته تجاه أسرته وتلاميذه على أكمل وجه..

غوري أيتها الذكريات، ابتعدي عني يا شياطين الأفكار، لماذا تعكرين صباحي هكذا، قام عن كرسيه كالهارب من نفسه ارتدى ملابسه، وخرج قاصداً عيادته، ماكاد يسير خطوات حتى ابتداء المطر بالانهمار، أسرع خطاه وشعور يتعاضم في نفسه بأن هذا اليوم ليس يومه، ابتداء سيئاً، وسينتهي سيئاً، هكذا يحدثه قلبه.

تقع عيادة الدكتور كريم في شارع رئيسي وسط المدينة في الطابق الثاني من بناء تجاري ضخم، يضم كل طابق ستة مكاتب، رغم المساحة المتواضعة لعيادته التي لا تتجاوز الأربعين متراً مربعاً فإنها تلفت النظر بأناقته المتقشفة، كانت مؤلفة من غرفة انتظار، وغرفة للفحص ومكتب للطبيب معاً، وقد فصل بينهما قاطع خشبي.

كانت علاقاته مع جيرانه أكثر ودية، في جوهر طبعه ما كان يفهم العلاقات الفاترة. كان إما يحب أو يكره، ومنذ تعارفه الأول على أي كان، كان يختار بحدسه الفطري المميز إما أن يدلق عواطفه واهتمامه مغرقاً بها الشخص، أو يحجب نفسه تماماً عنه مكتفياً بالعلاقة التي تفرضها الظروف، إنما

مانعاً أية نسمة من عواطفه الغنية أن تنساب باتجاه الشخص الذي أقصاه عن عالمه... لم يخب أبداً في سلوكه هذا، فمنذ دخوله المبنى الضخم ليداوم في عيادته وتعارفه على معظم أصحاب المكاتب، عرف أنه سيتصادق مع جاره المهندس الكهربائي، كذلك مزين الشعر للسيدات والمحامي الخمسيني الذي كان يشيع في روحه الطمأنينة التي افتقدها منذ وفاة والده، و عرف أنه سيكتفي بالسلام المفروض بينه وبين المخلص الجمركي.

كان محبوباً بصدق من قبل جيرانه، يتفقون جميعاً على سحر حديثه وغناه وعلى ذلك الانطباع الرائع بالراحة والثقة الذي يتدفق منه ويغمر من حوله كانت مرونته ودمائته في الانفتاح على الناس، وانتزاع ثقتهم بسهولة كما ينتزع المغناطيس المسامير المطمورة بالتراب، تثير العجب... خلال فترة وجيزة كان الصديق الحميم لجيرانه، عدا المخلص الجمركي الذي أقصاه عامداً عن صداقته وخلال عشر سنوات، من يوم افتتاح الدكتور كريم عيادته، تحول أصحاب المكاتب في الطابق الثاني إلى عائلة واحدة... لهم طقوسهم في اللقاء اليومي صباحاً، وبعد الظهر لشرب القهوة أو الشاي، ولتناول بعض الحلويات أحياناً، كل جيرانه كانوا يتمنون في سرهم لو تغصّ عيادة جارهم الطبيب بالمرضى، لكنهم مع مرور الأيام والسنوات اعتادوا أن تظل تلك العيادة فارغة إلا من قلة نادرة من المرضى، إنه القدر المتجهم الوجه الذي لم يرض أن يتسم للدكتور كريم، كان جيرانه على درجة من المحبة والوفاء له لدرجة كانوا يلتقطون المريض الذي يقصده، ويحجزونه عندهم ويضيفونه الشاي ويسارعون للاتصال بجارهم العزيز، ليخبروه بصوت يتقافز الفرحة فيه، بأن ثمة غنيمة تنتظره... مزين الشعر كان يسمي المريض بالكنز، ومع الزمن حدث نوع من الألفة المتواطئة بين الدكتور كريم وبين جيرانه، قبلوا بوضعه، في سرهم كانوا يرثون حظه السيء، وفي سره كان يحسداهم وتنهشه الغيرة، لكن محبته العميقة لهم كانت تغلب.

حين وصل الدكتور كريم مبنى عيادته حوالي التاسعة، كان البواب يرغي ويزبد، ويرش الشتائم يميناً وشمالاً، وهو يهتّم بمدّ البسطة التي يبيع فيها السكاكر والقهوة، والمناديل الورقية، والشوكولا بأنواعها، كانت أسرته المكونة

من سبع بنات وخمس ذكور، إضافة لزوجته، تتناوب في بيع الحاجات البسيطة. حياه الدكتور كريم وسأله بلهجته الودودة: خير يا أبو نعيم مابك هذا الصباح تفور بالغضب أجاب صارخاً: أولاد الكلب سرقوا دراجتي، تصور يادكتور تركتها هنا في المدخل، لدقائق ريثما احضر البسطة من القبر، عدت، فلم أجدها، الحق علي لم أربطها بالسلسلة الحديدية كعادتي لكن - ضرب يديه ببعضهما قهراً - طارت. ابن الكلب، ابن الحرام كان يراقبني... أنا أسرق يادكتور؟! أنا أسرق ماحيلتي ياربي...

كان رجل الشقاء يلهث من الانفعال، وهو لقب أطلقه عليه الدكتور كريم فعدا مسؤوليته عن أسرته المؤلفة من دزينة من الأولاد وجد نفسه منذ ثلاث سنوات مسؤولاً عن أسرة أخيه بعد انتحار هذا الأخير، كان أخوه يعمل شرطياً، ولديه خمسة أطفال أكبرهم صبي في العاشرة من عمره، أرسله والده ذات صباح ليشتري ربطة خبز، الصبي واع ويعرف متى يتوجب عليه عبور الشارع لكن سيارة فارهة مجنحة، زجاجها كالمرايا، انبثقت فجأة أمام الصغير بسرعتها الجنونية مطيرة إياه مع ربطة الخبز، وحين هوى على الأرض مضرجاً بدمائه التي سالت فوق الخبز، كانت السيارة قد اختفت تماماً. لكن العديد من المارة شهدوا الحادث، وعرفوا أوصاف السيارة، والبعض حفظ رقمها، وهمسوا بأذن الوالد المفجوع بتفاصيل الحادث، وكيف أن ابنه ما كان ينزل قدمه عن الرصيف ليهم بعبور الشارع حتى انبثق المارد أو آلة الموت لتطيره عالياً في الهواء، لم يستطع أحد تمييز السائق ومن معه لأن زجاج السيارة ما كان يشف للداخل، وتقدم الوالد بجرحه إلى عديد من الجهات الرسمية وغير الرسمية، لكنه لم يحصد سوى ملل الذين أصغوا إليه، أو تظاهروا أنهم يصغون إليه بعيونهم الزجاجية، بعد ثلاثة أشهر من الحادثة رمى قبعة الشرطي عن رأسه، وصوب مسدسه ملكيته الوحيد إلى صدغه وارتاح من الذل، تاركاً زوجته وأطفاله في رعاية الفقر...

كانت زوجته شقيقة زوجة أبو نديم، لذا لم تشعر بأي تدمر أن تصير هي وزوجها مسؤولة عن عائلة أختها المنكوبة، وأصبح البواب الأمي المسكين

مسؤولاً عن عشرين نفساً... كان لا ينفك عن الحركة من الصباح حتى المساء، تأمين حاجات المكاتب، دفع فواتير الماء والكهرباء، ارسال البريد، يعمل كالمكوك والشتائم لاتفارق لسانه، وحده الدكتور كريم كان المفضل لديه من بين كل أصحاب المكاتب وموظفيها. كان يصف له أوجاعه، فيستمع له الطبيب بكل اهتمام ويفحصه، ومراراً اصطحبه معه إلى مشفى الرخام، حيث أخضعه لفحوص عديدة وتبين أن (أبو نديم) مصاب بقرحة معدية، وبمرض مزمن في أذنه الوسطى اليمنى تجاهله لسنوات، لأن السعي وراء الرغبة اليومي أنساه أوجاع أذنه، حتى تسبب المرض في الصمم التام للأذن المريضة. لكن رجل الشقاء كان يجد من حين لآخر فسحة للنكتة وفي اللحظات النادرة التي يصفو فيها مزاجه كان يغني بصوت شجن العتابا والميجنا.. مرة واحدة شاهده الدكتور كريم يكي كطفل، حين ضبطه موظف التموين يبيع دخاناً مهرباً، وغرّمه بألفي ليرة، لكنه قال بأن الذي قهره حقاً ليس ألفا الليرة ولا مصادرة كل الدخان المهرب الذي بحوزته، بل لأن موظف التموين سطا على أفخر أنواع ألواح الشوكولا التي يعرضها على بسطته، وخطف سبعة أكياس من القهوة، وخمس علب مناديل ورقية.. كان منظر البواب الخمسيني ببذلته الأبدية المهترئة يجلس قرب بسطته الخاوية يكي كإمرأة مفجوعة، مؤثراً لدرجة شعر كل من رآه بأنه مسؤول ومتورط إلى حد بعيد في مأساة هذا الرجل.

هذا الصباح كانت تعزيتة بفقدان الدراجة صعبة، خاصة وهو في قمة احتياجه وحين نصحه الدكتور كريم بأن يبلغ عن السرقة، صرخ قائلاً: أقطع ذراعي إن عادت الدراجة. قال الدكتور كريم: طول بالك يارجل، ستشتري غيرها... ضحك بسخرية: ماذا؟! أشتري غيرها! مستحيل، أنا بالكاد أطعم عشرين فما خبزاً كل يوم، هل تعرف يادكتور مامعنى عشرين فما مفتوحاً، أنت مسؤول عن إطعامهم.. رحمة الله على أخي، ترك عائلته ومضى، أخذ يرتب الشوكولا فوق البسطة، وبدا أنه يحدث نفسه: والله معه حق إذا انتحر، والله إنه أكثر شجاعة مني، رحمه الله، رحمه الله.. التفت فجأة إلى الدكتور كريم الذي كان يطلب المصعد وسأله: دكتور ألا تعتقد أن الانتحار أفضل من عيشة

الذل؟! لم يجب الدكتور كريم، لكن صدى سؤال (أبو نديم) ظلّ يترجع في ذهنه خالفاً دوائر من الهم تخنقه بدوره، دخل عيادته عارفاً سلفاً أنه سيقضي ساعة كاملة في انتظار مريض لن يأتي طالعه الأثاث الأبدي ذاته الذابل من الوحدة الغارق في غبار النسيان، جلس في كرسي تحنيطه الأبدي، آه كم هو متعب، حاول أن يُعزي تعبهُ لاستيقاظه فجراً، لكنه كان عارفاً أن تعبهُ عميق ومتجذر في روحه منذ سنوات، منذ بدأت الحياة العملية توجه له الصدمات بلارحمة ولافرصة للراحة، نظر إلى سرير الفحص الغارق في السبات، منذ أسابيع لم يستلق عليه مريض، وانتشرت ساعات يومه أمامه على الشرف الأبيض، سيقصد المشفى تمام العاشرة، سيخربش توقيعه، سيرشف القهوة في استراحة العمليات، يمكنه أن يتخيل تفاصيل الحديث الذي سيدور بين الممرضات والأطباء، ثم سينسل خارج المشفى قاصداً فريال، سيكون واحداً من بين عشرات الأطباء المسلمين أيضاً، ثم سيعود مع المسلمين تمام الواحدة ظهراً إلى المشفى ليخربش توقيعه، سيرجع بعدها إلى البيت ليتناول غداءه مع أمه، وسيرتمي بعد الغداء بكامل ملابسه في سريره ليغرق في سبات لمدة ساعة دون أن يغفو حقيقة، ثم سيرجع إلى عيادته بعد الظهر زارعاً الطريق ذاته بخطاه اليائسة إلى العيادة، عارفاً سلفاً أن احتمال أن يقصده مريض شبه نادر، بل كان يمازح نفسه ساخراً: من عجائب الدنيا السبعة أن يقصدني مريض!

وسيفلق العيادة مساءً بسحنة الهم ذاتها، وقد يتوجه إلى مقهى الرصيف لينضم إلى الشلة التي يجمعها إحباطات العصر والهموم المادية، وأخيراً سيأوي إلى منزله، لينتهي يومه بحبة النوم الذي يعطل صحوه المرهق ويدخله في حالة الغياب.

تمام العاشرة، انطلق الدكتور كريم إلى مشفى الرخام الذي يعد عن عيادته ربع ساعة سيراً على الأقدام، اخترق رذاذ شتائم البواب الذي لم ينته من موجة غضبه بعد سرقة الدراجة، تردد هل يعاود محاولة تهدئته، أم يتركه؟ لكنه قرر تركه وشأنه لشعوره أنه منافق، فأعماقه تغلي بالغضب مثل البواب فكيف

عساه يهدئه!؟ سار في الطريق الأبدي منقبض النفس كالعادة، ثلاث عشرة سنة وهو يعمل جراحاً في مشفى الرخام والشعور ذاته ينتابه كل صباح يحس نفسه ذاهباً لشهادة زور، يجبر نفسه جراً في الطريق وهو يشعر كأن أحداً يدفعه بقوة في كتفيه، في أحيان كثيرة كان انقباضه يبلغ حداً يجعله يستدير راجعاً قاصداً أقرب بقالية إلى المشفى ليتصل طالباً إجازة... يكون ضيقه عندها أعظيماً لدرجة يعجز عن دخول الباب الحديدي وخربشة توقيعه، علامة وجوده الوحيدة على قيد الحياة في هذه المشفى - كما كان يحلو له أن يصف حالته - وكان يسمى لحظة التوقيع بيوم الحشر، حيث تنبسط دفاتر التوقيع فاتحة دفتيها تنتظر قدوم طرش الغنم (كما يسمى زملاءه الأطباء، شاملاً نفسه معهم)، لأن منظرهم متسارعين وملهوفين، لمجرد خربشة توقيعهم ثم فرارهم إلى عياداتهم أو إلى مشاغلهم الخاصة كان يجعله يصاب بقرف من مجرد وجوده في هذا المشفى. لم يكن يحس بأية إهانة لزملائه حين يسميهم في سره «طرش الغنم» وهي الكلمة العامية للقطيع لاح له المشفى أخيراً ملبسا بالرخام، بأبواب الحديد العديدة المقفولة، إنه أشبه بالسجن كان أضيّق باب حديد يفتح كل صباح لمدة ربع ساعة ليستقبل وفود الأطباء، ثم يقفل أما الفرار فكان يتم من باب قصي في آخر المشفى، مقابل غرف الغسيل، وغرفة تشريح الجثث أو غرفة عزرائيل كما يسمونها.

كانت أوراق النعي تتزاحم في تلاصقها عند الباب الخارجي للمشفى، تلصق فوق الرخام وعلى الأعمدة الرخامية العريضة التي تحمل سقف المدخل، كانت تلك الأوراق تترك إلى أن يهزمها المطر أو يتسلى الأولاد بتمزيقها، ذات يوم أراد الدكتور كريم أن يحصي عددها، التي يخبر كل واحدة منها عن موت ما، لشخص ما، بلغ عدد أوراق الموت ستين ورقة، قال لزملائه ساخراً: كل يوم يستقبلنا ستون ميتاً عند الباب الخارجي للمشفى! ضحكوا، علّق أحد زملائه: نحن أموات أكثر منهم! كان بائع الفول المسلوق قد اتخذ له ركناً ثابتاً عند الباب الخارجي الأساسي للمشفى، جاوره بائع الكعك، حتى تحوّل هذان البائعان لشخصيتين رئيسيتين ملحقتين بمشفى الرخام.

خربش توقيعه، لاشيء ينتظره بعد، ليس لديه أي عمل، الفائض من الأطباء يكاد يخنق أنفاسه، يشعر أن الهواء لا يكفي ليملاً رثات كل العاملين في مشفى الرخام، انضم إلى جلسة المرضات في سأمهن اللامحدود، جمعتهن القهوة في استراحة العمليات تُصب للمرة الرابعة في الفناجين، قالت إحدى المرضات بأنه الفنجان السادس الذي ترشفه والساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف صباحاً، تساءلت ممرضة أخرى بأن هناك إشاعة بزيادة الراتب، انبرت أخرى تؤكد بأن الراتب سيزداد حتماً وبأنها سمعت بهذا الخبر من مصادر موثوقة. علّق طبيب جراح ساخراً بأن الراتب لن يزداد، وبأن كل مايقال مجرد شائعات.

حسنت النقاش ممرضة قالت بأنها لاتمنى زيادة الراتب لأن الأسعار ستضاعف بمجرد زيادته، علّق الدكتور كريم قائلاً: في كل الأحوال بالكاد يكفي الراتب سواء زاد أم لا العلف اليومي.

ضحكوا من عبارة العلف اليومي، غير بعيد كان كريم يتابع بعينه نقاشاً حاداً بين طبيب ومريض، لم يكن يسمع مايدور، لكنه أطلق لخياله العنان ليتخيل، ليسلي نفسه في سأم بطالته اللامحدود.

أحس أن الحوار الفعلي - وغير المسموع - إنما الذي تحكيه العيون صراحة وتفصح عنه القسمات هو التالي:

يبدأ المريض بالشكوى قائلاً:

- والله يادكتور، الصداع يفجرّ رأسي منذ أيام.

الطبيب بوجهه المتجهم يقول بصوت غير مسموع بل يظل حبيس صدره: طظ فيك وفي رأسك، مالذي يجبرني على سماع شكواك؟ أمن أهمية الراتب الذي أقبضه يتوجب علي الاهتمام بأوجاعك؟!

المريض متأوهاً: صداع عنيف، أحس رأسي يكاد ينفجر، وعيناي تؤلماني بشدة خاصة حين أضغطهما.

يقاطعه الطبيب بجفاء: هل تشكو من ارتفاع في التوتر الشرياني، اقصد هل لديك ضغط مرتفع؟ المريض: والله لأعرف.

يقول الطبيب في سره: عمرك ماتعرف، واحد بهيم مثلك يتناسل ويرمي أطفاله في الشارع أو في مزبلة الفقر، لماذا عليه أن يعرف؟

يكتب الطبيب على قصاصة ورق - لعدم توفر الوصفات الطبية - الفحوصات اللازمة للمريض، ويثني الورقة بعد أن يدس بين وجهيها قصاصة كتبَ عليها عنوان عيادته الخاصة، يشمل المريض بنظرة محملة بلطفٍ مفتعل ويقول له:

- أجر هذه الفحوص - يخفض صوته متابعاً - وراجعني في عيادتي، لقد كتبت لك عنواني.

يتظاهر المريض بالسذاجة، ويرفع صوته متسائلاً: أية عيادة؟

يؤد الطبيب لو يكم فم المريض بكفه، لو يخرسه، لكنه يقول بصوت منخفض وهو يركز على أسنانه، وقد جمدت نظرتة فوق وجه المريض:

- عيادتي الخاصة، لقد كتبت لك العنوان. يصمت المريض، يتظاهر أنه لم يفهم بعد، يتبادل المريض والطبيب نظرة تهديد الطبيب يتوعد المريض بنظرتة التي تعني: والله لن أهتم بك ولن أعالجك بصدق إن لم تراجعني في عيادتي الخاصة، والمريض يرد على نظرة الطبيب بنظرة أقسى متحدياً: والله لن أراجعك في عيادتك الخاصة، فأنت موظف عند الحكومة، ومجبر أن تفحصني.

يرد الطبيب متهكماً بنظرتة: والله لن أحل لك مشكلة الصداع، ولو انفجر رأسك، راجعني في عيادتي، وسترى أنني ألطف من النسيم وأحلى من العسل.

يرد المريض بنظرة فيها تحدٍ أكبر: والله لن أراجعك مهما ألححت ومهما دمست لي أوراقاً ضمن أوراق، لماذا تريد أن تكلفني مالاً وأنا فقير؟

الطبيب هازئاً بنظرة ساخرة: فقير!! أأست مضطراً لشراء الدواء من

الصيدلية، وأن تجري الفحوص الدموية والشعاعية وتدفع! فقط أنا من تطلب منه أن يكون مجانياً، وأنا الذي سيحل مشاكلك ويشفيك من أوجاعك. المريض عابساً: أنت موظف عند الدولة، وتتقاضى راتباً، من واجبك أن تفحصني وتعالجني.

الطبيب محتداً ونظرة نارية تنطلق من عينيه: والله لن أعالجك، لا توجد قوة في الأرض تضطرني لممارسة عملي إن لم أكن راغباً، ثم ماهذا الراتب الذي تتحدث عنه إنه لايساوي شيئاً.

تزوج نظرات المريض، ثم يثبت نظره في عيني الطبيب قائلاً: أسفي على طبيب مادي مثلك، عيب، عيب الطب مهنة إنسانية.

يقاطعه الطبيب بنظرة قاسية: مهنة إنسانية!! لكأنك اكتشفت القمر ألا يجب أن يكون وضع الطبيب إنسانياً أولاً! ينظر إليه المريض ساخراً، عاتباً: حسناً، سأقصد غيرك، هناك الكثيرون غيرك في هذا المشفى المجاني، أطباء مثل بذور البقلة، سيكون بعضهم أكثر رحمة وإنسانية منك.

يضحك الطبيب: جرّب، لا بأس أن تجرب، والله لن ينظروا في وجهك إن لم تراجعهم في عياداتهم الخاصة. حوار العيون هذا القصير الأخرس، يستغرق دقائق.

يتنهد الطبيب قائلاً لنفسه: والله إن لم تراجعني في عيادتي الخاصة سأدوخك، ولن أحل مشكلة صداعك.

يتوقف الدكتور كريم عن التخيل لأن الطبيب دخل استراحة العمليات، وانصرف المريض. يتسم بشرود وهو يعي كيف أن ظروفاً معينة تجبر المريض والطبيب أن تصير العلاقة بينهما كعلاقة القط والفأر.

فاجأه صوت النداء: يرجى من الدكتور كريم الرد على أقرب هاتف. انتفض مجفلاً لأنه يترقب السوء دوماً. لكن صوت فؤاد - مزين الشعر - جاره في العيادة، طمأنه أن ثمة مريض ينتظر عند باب عيادته، وقد احتجزه ريشما يحضر. قال له: حسناً سأتي حالاً.

فرّ من المشفى، أوقف سيارة أجرة كي لا يتأخر عن صيده، في جيبه مئة وخمسون ليرة لاغير، يجب أن تكفيه الأسبوع الأخير من الشهر إن لم تسعفه العيادة بمرضى. خفق قلبه وهو يطلب المصعد، ترى من يكون هذا المريض الذي ينتظره، لكن ما أن وقع نظره عليه حتى تذكره، كان قد أجرى له عملية فتق منذ ثلاثة أشهر. أحسّ أنه يتنطط من السعادة وهو يفتح باب عيادته ويدعو المريض بودٍ مبالغ به للدخول، الرجل الخمسيني جلب له كيساً كبيراً من الزيتون الأخضر وضعه أرضاً وهو يدعو له بطول العمر والصحة، اعتذر عن تأخره في المراجعة بسبب انشغاله بموسم الزيتون فحصه الدكتور كريم وابدى رضاه عن وضعه الصحي بعد العمل الجراحي، مدّ الرجل يده إلى جيبه وقدم للدكتور ألف ليرة قائلاً: أرجوك يادكتور اقبلها مني، اعتبرها ثمن فنجان قهوة، تظاهر أنه سيرفض لأنه كان عارفاً سلفاً أن الأخير سيلح. قبل ورقتي الخمسة وهو يتظاهر أنه مُحرج فيما قلبه يغرد طرباً، وفمه يلجم ابتسامة كادت ترتسم صريحة على وجهه، كرّر لنفسه منتشياً وهو يودع المريض: اعتبرها ثمن فنجان قهوة، ياسلام خمسمئة تنطح خمسمئة ليرة، تعانقها، تضاجعها. علاقة متجانسة متكافئة ومن نفس السوية الاجتماعية، انطلقت آه عميقة من أعماق صدره فيها راحة بقدر ماتحمل وجعاً، انطلقت من أعماق روحه المتعبة، أحس كمن قطع عشرات الكيلومترات مشياً وأضناه العطش، ثم وجد فجأة ماءً متدفقاً، فشرّب حتى ارتوى، وتمدد قائلاً: آه يازمن التعب، يازمن الذل الذي صبغت كل شيء، ماعدت أعرف كيف أحلم أو أتأمل، حتى وأنا أحلم أكون بحالة ذل، ما يخيفني أنني انكسرت حقاً، ماعدت أعتقد أن ما أعانيه - نعانيه - فترة مؤقتة ستنتهي ذات يوم مهما طال، لم يعد بإمكانني القول بأن شدة ستزول، بل آمنت أن السنوات المتبقية من عمري ستكون صوراً مختلفة ومتنوعة للذل... صوت غارق في الحنان سأله: أتفرح إلى هذا الحد يا كريم بألف الليرة؟! أجاب خجلاً مطأطئ الرأس: أجل، أفرح كثيراً، وتخيل أنه سيشتري العالم كله بهذه الألف، كاد سينطلق رأساً إلى ساحة الأسماك وإلى صالة بيع الدجاج المقطّع لولا اقتراب مواعده مع فريال ضغط ورقتي النقود بيده، سمع أنين النشوة

الصادر من احتكاكهما، سيكون أكثر حيوية الآن مع فريال. الحياة حلوة حقاً هذا ما أقرّه لنفسه وهو يسرع الخطا تجاه بيت المرأة الشهية.

كانت تنتظره بلهفة كعادتها، عاتبته على تأخره، ردّ على عتابها بقبلة، غمرته رائحة عطرها المثير، طلبت إليه أن يغمض عينيه قائلة: مفاجأة. ضحك قائلاً: هذا يوم المفاجآت... سألت: هيا اعترف من فاجأتك غيري. قال: لأحد سألت: إذا لماذا قلت بأنه يوم المفاجآت.

قال: لأن مريضاً منسياً تذكرني. أليست هذه مفاجأة!

طوقت عنقه ونظرت بغنج في عينيه قالت: آه منك، أتمنى لو أصدقك. هيا أغمض عينيك الآن. اذعن لها، وحين أمرته أن يفتحهما كانت ورقة بمساحة راحة الكف في حضنه قال: ماهذا، شهادة استثمار من قيمة الألف ليرة.

قالت بأنها تذكرته حين أهداها زوجها شهادات استثمار، واشترت له شهادة علّه يربح عن طريقها بيتاً أو سيارة. شكرها وهو يرجوها ألا تغمره بعد بهداياها، لأنه لايقدر أن يعاملها بالمثل. وضعت راحتها على فمه وهي تقول بدلال: كفى، أنت تغمرني بحبك، وهذا أهم من كل الهدايا. أحسن أن احتضانه لجسدها غداً أكثر حيوية وبهجة، عزا دفع حبوره إلى ألف الليرة التي قدّمها له المريض، لم يكن شعوره كاذباً لأنها قالت له بعد أن غمرت وجهه بالقبلات: أنت رائع اليوم، ضحك وهو يتخيل نفسه يعترف لها بالسبب، ويتخيل الدهشة التي سيرسمها وجهها حين تعرف أن لعبة الحب الناجحة سببها ألف الليرة وفيما كان ينتظرها في الصالون فيما هي تعدّ القهوة، فكّر أن العاهرات قادرات على إعطاء أنفسهن بعد قبض المال، امتعض بقوة من هذه الفكرة وهو يعي الروابط الخفية والعميقة بين وضعهن ووضعهن، أتراه يقدر أن يعطي ذاته إذا قبض مالا؟! خاف أن يلحق بفكرته حتى النهاية كي لايتوصل لاستنتاجات مرعبة في أعماقه، ولم يستطع أن يهرب من سؤال كان يتبعه في طريقه إلى مشفى الرخام ليخربش توقيعه ظهراً: ألا يقبل أن يكون عشيق امرأة

ثرية، يعيرها جسده، وتغدق عليه المال؟! بمعنى ألا يرضي أن يكون عاهراً!!
أحس أن مشيته تتباطئ ومفاصله تسترخي، والعنقوان الزائف لمشاعره يخبر.
أبدت مشاعره علامة إذعان صريحة ولامجال لتكذيبها بأنه يقبل هذه
المعادلة.

يبيع شبابه وحيوته لامرأة مقابل المال... استنجد بفكرة أسعفته، كأنها
نسمة تهب عليه: حين تتزوج فتاة رجلاً يكبرها كثيراً لأنه ثري، أليس هذا
عهاراً!

وصل المشفى الواحدة إلا عشر دقائق، كانت السكرتيرة تفتح دفاتر
التوقيع تأمل الأطباء يتدافعون ليخربشوا توقيعهم، بدوا له أشبه بسرب من
الذباب فوق صحن من الحلوى... ما كان يستطيع العودة إلى البيت، لأن هوى
شديداً للشراء كان يسيطر على روحه، اشتاقت أنامله لعملية المقايضة، شراء
السلع ودفن ثمنها، ياسلام، أليس الشراء من متع الحياة؟ وأقرّ لنفسه بأنه أشد
المتع على الإطلاق، إما أن تكون سيد المال وتذله بالصرف، أو يصير هو سيدك
ويأمرك أن تخزنه. وقع في حيرة، هل يبدد ثروته - ورقتي خمسمئة الليرة - في
شراء اللحوم والفاكهة أم يتجه إلى البالا؟ وبعد صراع حقيقي رجحت كفة
البالا، فالشتاء على الأبواب، وهو محتاج لبضعة كنزات صوفية تليق بلقبه
كطبيب. أسرع خطاه باتجاه سوق البالا الاستعراضية شمّ الرائحة التي يحفظها
عن ظهر قلب من بعيد، دغدغت روحه، ياسلام، أليست البالا نعمة؟ ألا تسمع
له أن يلبس ثياباً أنيقة ومن أجود أنواع الأقمشة؟! ألا تعتقد أغلب زملائه في
المشفى وخارجها أن ثيابه ترسلها له أخته من أمريكا؟ استوقفته واجهة تعج
بالكنزات الصوفية والقمصان بكاروهات ذات ألوان بديعة.

حيا صاحب البالا بالمرح الذي لا يزال يشيعه في روحه وجود ورقتي
النقود العظيمتين في جيبه، ففكر أن أمه ستكون الآن بانتظاره على الغداء، خضّته
دفقة قوية من مشاعر الحب تجاهها، صمم أنه سيشتري لها كنزة أو تنورة،
صحيح أنها تتظاهر بالغضب وعدم الرضى، وترجوه ألا يشتري لها شيئاً، بحجة
أن لديها الكثير من الثياب لكنه حين يجدها بعد دقائق منكبة فوق ماكينتها

لتصلح الثياب وتجعلها أكثر مناسبة لها، يحس كم هي سعيدة وراضية في أعماقها.

فتنته القمصان التي كان معظمها ماركة نيومان، سأل البائع: كم سعر القميص؟ رد الشاب وهو يتشاءب: ٨٠٠ ليرة. شهق الدكتور: ماذا!!؟
قال البائع بسأم وهو يرشف الشاي من كأس في يده: إنها جديدة كما ترى.

ردّ محتجاً: لكنها بالآ، إنها أكثر غلاء من أغلب القمصان المحلية.
نظر إليه البائع بتهكم: هذا قماش أجنبي، وليس وطنياً، هذه قمصان من أجود الأنواع، تفحصها يا أخي، ثم.. ثم اذهب واشتري قمصاناً وطنية.
قال جملته الأخيرة بنزق وكأنه يتعمد أن يهينه.
أراد الدكتور أن يخلق جسور مودة مع البائع، اصطنع المرح في صوته قائلاً:

- يا أخي، راعينا قليلاً في السعر، ألا ترى أننا في آخر الشهر، والراتب تبخر..

ضحك البائع ساخراً وقال: ماذا قلت! الراتب من قال لك أن البالا للموظف؟ أجبر نفسه أن يتابع حوارهِ بنفس المرح المفتعل.
:- لمن إذا؟.

- قال: الموظف لا يتصدق إلا مع الفران، البالا لمن يملك مالاً..
- حسناً، حسناً، سأشتري ثلاثة قمصان، ألا تراعي في السعر؟
- أراعيك، كلمة أخيرة القميص بـ ٦٠٠ ليرة. رد الدكتور بكل طاقته على إثارة العطف لدى الآخر نحوه: يا أخي الشتاء في بدايته، وأنا سأصير زبونك، ستكسبني، وسأجر رفاقي لداكانك، يكفي خمسمئة سعر القميص.
قاطعهُ البائع: والله لأأربح شيئاً في هذه الحالة.
- بل ستربح، هيا، هيا تساهل معي أرجوك.

انفلتت كلمة أرجوك من شفثيه، فأحسها تحرقه وتسخر منه في آن، أخذ

يبحث بنشاط حيوي عن أكثر القمصان مناسبة له، اختار ثلاثة قمصان بديعة لا تزال أوراق المعمل ملصقة عليها، تنبه أنه لا يملك سوى ثمن قميصين، أته النجدة إذ تذكر شهادة الاستثمار، وجد نفسه يعطي البائع محتويات جيوبه ويرجوه أن ينتظره لحظات ليحضر باقي المبلغ، اتجه مسرعاً إلى المصرف الذي لحسن الحظ لم يكن بعيداً عن سوق البالا، بذل شهادة الاستثمار بقيمتها مضحياً بوعودها، طافت صورة فريال بذهنه عاتبة أمكنه أن يسمع صوتها: أهكذا تحتفظ بهداياي، أتبذلها بعد ساعة من تقديمها لك؟!

زجر صورتها بحنق: اسكتي... اسكتي، سأشتري ثياباً وطعاماً... هذا ماأحتاجه...

عاد يلهث إلى البائع، أحس أنه أمير وهو يكمل له سعر القمصان... كانت غبطته عظيمة وهو يحمل الكيس الأسود الذي يضم غنيمته الرائعة: ثلاثة قمصان ماركة نيومان، غمره حنان نحو أمه، سيشتري لها هدية، لا يزال معه خمسمئة ليرة.. ضحك، مماًزحاً نفسه: كل هداياي لها من البالا... استوقفه صف من التنانير الجديدة من الجوخ، أنها تحب اللون الأسود أو البني، وهو أصبح خبيراً بالأقمشة الجيدة بسبب زيارته المتكررة للبالا...

سأل: بكم التنورة؟!

رد البائع بمكر: كل واحدة لها سعر.

أخذ يتحسس يديه أقمشة التنانير واحدة واحدة، مفتوناً بجودتها. اختار تنورة سوداء من المخمل لأمه، وأخرى بنية من الجوخ، ساوم البائع بكل ما يملك من دماثة فرضي أن يعطيه التنورتين بـ ٦٠٠ ليرة. لم يبق معه سوى ثمانين ليرة، يجب أن تكفيه حتى نهاية الشهر إن لم تهبط معجزة ويقصده مريض في عيادته، لكن حمى الشراء دفعته لشراء كيلو ونصف من الموز، فلم يبق من ثروته سوى عشرين ليرة... ضحك من كل كيانه، ضحكة ملتبسة فيها ألم وسخرية وحرقة، وربما مرشوشة قليلاً بغبار من الفرحة.

لكنه بدا راضياً وهو يعود بغنائمه إلى البيت، كانت السعادة ترفرف

حول وجهه وهو يتخيل كيف سيتباهى بقمصانه أمام رفاقه. شكر ربه على نعمة إلهامه للمريض بزيارته هذا الصباح، وأن يقدم له ألف ليرة، ثمن فنجان قهوة! وعلى إلهامه لفريال بأن تهديه شهادة استثمار، أقنعتة سعادته أن العناية الإلهية تنتشله دوماً من قاع يأسه، وحين دخل حارة بيته كانت أمه تنتظره على الشرفة الوحيدة الضيقة وقد لفت جذعها بشال من الصوف، أرسل لها قبلة على الهواء، دخل البيت بغنائمه، وأخذ يفرد القمصان واحداً واحداً، معدداً مزايا ماركة النيومان، وحين فاجأها بالثنورتين لم تبد امتعاضها كعادتها، بل شكرته وهي تعلق: لكنك أصبحت مدمناً على البالا.

أعجبه تعليقها قال لها: لا يوجد أروع من إدمان البالا.

حين كانا يتناولان الغداء سألتها: هل تعرفين سعر قميص النيومان في باريس؟

قالت: لا.

قال: سعره على الأقل ٦٠٠ فرنك، أي ستة آلاف ليرة سورية.

قالت: وأنت بكم اشتريت القميص.

قال: بخمسة ليرة.

سألته بعد تردد مستغلة مرحة قالت: هل هربت من المشفى؟

لولا مزاجه المرتفع لكان غضب غضباً أعمى من سؤالها، لأنه لا يطيق

تدخلها في حياته.

رد بجفاء: أجل هربت، مثلي مثل غيري؟ - لكن، كيف هذا يا ابني، أنا

لأنهم كيف يفرّ الأطباء من دوامهم هكذا ألا تخشون أن يطردوكم من

عملكم؟ أحس أنها تستغل صفاء مزاجه. قال لها مهدداً: دعيني مرتاحاً الآن،

وانسي تماماً موضوع الدوام في مشفى الرخام أرجوك.

مشفى الرخام

من الخارج رخام ومن الداخل سخام.

ذات يوم كان الدكتور كريم يحضر معرضاً للتصوير الضوئي بالأبيض والأسود، يصوّر المدينة القديمة، فتته لوحة تمثل بناءً ضخماً أبيض، محاطاً بغابة من الأشجار الباسقة ويعلو سقفه القرميد، ولعظيم دهشته قرأ لافتة صغيرة تحت اللوحة كتب عليها: مشفى الرخام. أحس بصعقة مفاجئة، لم يستطع أن يصدق أن تلك الصورة البديعة كانت تمثل مشفى الرخام الحالي! سأل اللوحة الغارقة في الحدد: لماذا قتلوا الحس الجمالي فيك؟ كيف شوهوك هكذا؟ من اغتال أشجارك ولم يترك نبتة، من خطط لتوسيعك بتلك الطريقة الفوضوية الخالية من مسحة أناقة أو جمال؟

كان مشفى الرخام مثلاً للفوضى والضياع، طوال سنوات لم تتوقف أعمال الهدم والبناء فيه، لكنها غاية بحد ذاتها! لم يعرف أحد لماذا يستغرق العمال أياماً في فتح باب ضمن حائط، ليعاد إغلاقه بعد أيام بالحجارة وتحويله إلى حائط مجدداً! العاملون في المشفى كانوا يضيعون، كل فترة تفاجئهم جدران جديدة، وأبواب جديدة، وأروقة جديدة، وكانت الجدران كلها يتم تلبس نصفها السفلي بالرخام، ليعاد هدمه بعد فترة تطول أو تقصر، ثم ليعاد ترميمه، القلوب المسكينة، والعيون الخرساء، كانت تغوص أماً وهي تراقب هذا الهدر اللامنطقي للمال... لأحد يجرؤ على السؤال صراحة: لماذا يهدر المال بهذه الطريقة؟ ما كان يزيد الأمر لوعة وقهراً، كون هذا المشفى خاو تماماً من كل ما يلزم المريض، المريض كان يشتري أدويته، فلم يكن ضمن هذا المبنى

الضحخ إبرة مضاد حيوي، أو حبة مسكنة للألم، أو سيروم أو... أو... هناك رخام فقط. الكل كان يعلم أن هناك فئة تبيع - وهو التعبير المتداول بين العاملين في المشفى - هؤلاء المساكين كانوا يعرفون المسؤولين الرخامين الذين يلعون الملايين من وراء هدم جدران وإعادة بنائها، ويقدمون مناقصات ويشكلون لجان شراء، ويعرضون في دفاتر غشهم تكاليف خيالية، ويمتصون خزائن الدولة، يمتصون دم المواطنين المساكين. وكثيراً ما كانوا يشترون أجهزة معطوبة للمشفى على أنها أجهزة سليمة، وتوزع الصفقة فيما بينهم، رائحة السرقات تفوح في أروقة المشفى، لكن البسطاء لا يجروؤن على الكلام خشية أن تطير الوظيفة التي تضمن لهم رغيف الخبز.

أما أثاث المشفى فهو اليأس مجسداً، بارد وقديم ومخلع ورمادي، كانت خزن خشبية عتيقة تشكل جزءاً أساسياً من الأثاث، ترصف تحتها أحذية المرضات، الكراسي تشعر أن عمرها مئة سنة، أجري إصلاحها مرات لا تحصى، كانت أشبه بأرائك ملبسة بالنايلون، أما الألوان المختارة فهي الأسود والبني والرمادي الداكن، إضافة إلى الكراسي المخلعة التي استعصت على الإصلاح والتي كثيراً ما يسقط من يجلس عليها، لكنها باقية في مشفى الرخام بقوة الخلود!

ذات يوم تشجع أحد الأطباء وسأل واحداً من المسؤولين الرخامين:
- لماذا لا تشترون أدوية للمشفى، بدل صرف هذه الأموال الهائلة على الرخام؟!

رد المسؤول الرخامي: لأن ميزانية الدواء، غير ميزانية الرخام.
لماذا؟ كيف؟ غير معقول؟ قالتها العيون الخرساء، أكثر من احتجاج النظرة ماذا يملك البسطاء!

ثمة علامة فارقة لشعب المستشفى، علامة واسمة تدفعها وتميزها هي رائحة المراحيز، مأن تصل إحدى الشعب حتى تصاب بدوار من الرائحة الخانقة، تضطر أن تدفن أنفك في كملك، أو تحبس نفسك أطول مدة ممكنة أبواب المراحيز مشرعة، النسائم الخانقة تهلّ عليك، تستقبلك بحفاوة، القذارة

لا يمكن وصفها، علب القمامة في الأروقة تطوف بما فيها كان الدكتور كريم وزملاؤه يتساءلون كل بدوره، كل مع نفسه: كيف سيشفى المرضى وسط هذه القذارة؟!

تمام الثانية عشرة ظهراً كان عمال وعاملات المطبخ بمرايلهم الزرقاء الوسخة يحملون الطعام إلى المرضى في قصعات عتيقة، يحملونها على رؤوسهم أو أكتافهم، رائحة الطبخ تثير الغثيان، معظمه عبارة عن مرق أحمر فيه كتل أشبه باللحم، كانت الكتل تسرق، كذلك الفاكهة فلا يصل للمريض المسكين إلا الفتات.

مايفوق فوضى البناء، العاملين فيه، ممرضات وأطباء يحشرون حشراً، في البداية لم يكن عدد العاملين كبيراً، العمل كان منظماً وأكثر احتراماً، في السنوات الأخيرة، حدث تكاثر سرطاني للممرضات والأطباء، تضاعفت الأعداد خمسة أضعاف أو ستة، وفي بعض الشعب عشرة! تحول يوم العمل إلى يوم كسل، وصار الأطباء يفرون لأنهم يدركون أن لاشيء يعملونه في هذا المشفى... ولأن الراتب الذي يقبضونه كان يحولهم إلى حشرات! ترى كيف يسمحون لهم بالفرار المتكرر شبه اليومي هذا؟!

ربما لأن المسؤولين الرخامين يعرفون أن هذا الحشر الهائل لا عمل له، ربع العدد من الأطباء يكفي ويزيد لتشغيل المشفى أو لأن السبب الأساسي عدم وجود قاعة أطباء تتسع لهذا الفيض، في الواقع لم يكن هناك شيء فعلي اسمه قاعة أطباء، يلجأ إليها الطبيب الذي لا عمل له، أو الذي أنهى عمله، يجلس على كرسي، يقرأ ريثما ينتهي الدوام، كان هناك وعلى مدار سنوات أشباه غرف، كل غرفة لاتسع لأكثر من عشر كراسي... أول غرفة اختيرت كانت في قسم الاسعاف حيث الضجيج في ذروته دوماً، كانت عبارة عن غرفة صغيرة تضم طاولة وسبورة - وبضعة كراسي. وبابها يظل مشرعاً، كل من أراد أن يدخل ليسأل أين فلان؟ أو فلانة؟ يسأل الطبيب المنهمك في القراءة، كانت الغرفة مزينة بعينين أو نافذتين تطلان على ساحة المشفى حيث يعبر كل شيء، المرضى الخارجون، والداخلون، والأطباء الفارون والعائدون الأذنة يجرون

اسطوانات الأكسجين، ويحملون علب التعقيم، عمال المطبخ يحملون الطناجر على رؤوسهم... فيما بعد ألغيت هذه الغرفة كمكتبة للأطباء، لسبب وحيد، هو وصول عدوى الهدم إليها ورغبة المسؤولين الرخامين في إلحاقها بقسم الاسعاف، انتقلت قاعة المكتبة إلى مبني بعيد وقصي في نهاية المشفى هو قسم الأمراض السارية! فوسط غرف أمراض الرعب، من الكزاز إلى التهابات الدماغ والسحايا المعدية، إلى الكوليرا والتهابات الكبد... وغيرها، وسط الأمراض المميتة خصصت غرفة نفايات تضم خزناً معدنية مخلعة الأدرج والأبواب، وقد امتلأت بمجلدات علمية غطاها الغبار كطبقة من الدقيق، واحتل ربع مساحة الغرفة طاولة كبيرة، رصفت فوقها وتحتها الأجهزة المعطوبة، والمتسلمة حديثاً، التي لم تستعمل بعد، لم ينسوا أن يضعوا في الغرفة مكتباً معدنياً مهترئاً مع كرسي وحيد، إضافة لأريكتين واطقتين تصلحان للنوم بلا أحلام. في الزاوية قرب باب غرفة النفايات (أوغرفة المكتبة) كانت تستريح مفصلة صغيرة إنما بدون صنوبر مياه! وكانت نافذتان تتنافسان في البؤس ثقبان جدار المكتبة المطل على الشارع العام، اهترأ خشبهما، وثقب الشبك المعدني الذي يغلفهما... في هذه القاعة كان على الطبيب أن يقرأ لو أحبا لو استطاع! طبيب واحد لا أكثر، إذ لاوجود لإلا الكرسي... أما البقية... لا يهم، أمامهم الشارع فليفروا...

البؤس الفعلي كان للممرضات، كان الدكتور كريم يسميهن «النساء بلا حدود» كنت تراهن في آخر الرواق في كل شعبة منحشرات في غرفة صغيرة، أو شبه غرفة، لأن باباً زجاجياً ضيقاً كان يقسم الجزء الأخير من الرواق محولاً إياه لشبه غرفة، كنّ ينحشرون في الغرفة الصغيرة يتسلين بحياكة الصوف سراً، والبعض منهن يطلين وجوههن بالماكياج الرخيص والبعض يسندن جبهتهن إلى الجدار أو المكتب الوحيد ويفرقن في النوم، كان دوامهن الفعلي - والذي لاهروب منه - ثماني ساعات، يبدأ في الساعة السادسة صباحاً وحتى الثانية ظهراً، واضح أن روحهن تزهر كل يوم من الملل والنعاس والفراغ أغلبهن كن يستيقظن قبل الفجر ليكن في المشفى في السادسة صباحاً، خاصة الساكنات

في القرى، وإذا تأخرت إحداهن بعد السادسة والنصف كانت تطرد من دوامها اليومي وتعود أدراجها بعد أن يحسب لها التأخير إجازة إدارية.

كان العدد الفائض من الممرضات يعرقل العمل ولاينظمه، لأن كل واحدة تنتظر من زميلتها أن تقوم بالعمل المطلوب، النساء البائسات الشاردات بأطفالهن المشردين الذين يحتاجون لألف غرض وغرض، يحتاجون لرغيف الخبز الذي يؤمنه لهم راتب الماما بعد أن يطير نصفه في الموصلات... ذات يوم حدثت مشادة بين أحد الأطباء وممرضة، صرخ منفعلاً: كيف نسيت أن تضعي لصاقة على صدر المريض، ألا تعرفين أنه مريض قلبي و...

قاطعته بنزق: والله نسيت، أمن أهمية الراتب لاتريدني أن أنسى؟

ورغم أن الطبيب أراد أن يشكوها لرئيسة الممرضات، لكن زميلاتها في العمل دافعن عنها، حتى أن رئيسة الشعبة همست بأذنه: والله يادكتور معها حق تلك المسكينة لو يعطوننا رواتب جيدة، لاننسى أبداً.

أغلب النساء بلا حدود كن يصطحبن أطفالهن الصغار معهن إلى المشفى، يوقظون الأبرياء الصغار الناعمين بالدفء والنوم يلبسهم على عجل، ويتأبطنهم كيفما اتفق، أو يتركهم يهرولون وراءهن يكون هذا الكابوس اليومي كل صباح وأماتهم تجرهم وارهمن إلى مشفى الكآبة. حيث يحشرون في غرفة تسمى حضانة الأطفال البائسين كانوا يمرضون خاصة في الشتاء حين تفشل حدودهم الطرية الدافئة وراثتهم الغضة الرقيقة في مقاومة سهام البرد القارس كل صباح... من كان يهتم بمشاعر هؤلاء الصغار؟ بالألم النفسي والجسدي الذي يشعرونه كل يوم، بساعات الاختناق وقلة الاهتمام التي يقضونها في الحضانة؟! كانت أقصى رفاية يحصلون عليها في حضانة مشفى الرخام هو كيس بطاطا مختوم... هل يصح أن يسموا بدورهم «أطفالاً بلا حدود».

كان عليهن قضاء أربع ساعات في الأنتظار ريثما يأتي الأطباء، إعطاء المرضى الدواء الصباحي ممرضة واحدة قادرة أن تنجزه في ربع ساعة على

الأكثر، كن يتناولن فطورهن ويشربن القهوة والشاي ويتناقشن في مواضيع المسلسل اليومي، ويجتررن أحاديثهن الأبدية عن شظف العيش وحرمان الأولاد، وغالباً ماتغفرو إحداهن بعمق فوق مقعدها، حضور الأطباء تمام العاشرة كان يعطين شياً من الحيوية، يتابعن بها الساعات الأربع المتبقية من دوامهن أيضاً...

كان عليهن تمام الساعة الثانية ظهراً أن يخريشن توقيعهن بدورهن، ويتأبطن أطفالهن عائدات إلى بيوتهن البعيدة، ليستأنفن نشاطات من نوع آخر... حتى يهدهن الإرهاق أول المساء فيغرقن في نوم عميق متنبهات بلاوعيهن لضرورة الاستيقاظ قبل الفجر، ليستأنفن رحلة الشقاء بلا معنى... واللامجدية...

في هذا المشفى سفح الدكتور كريم ثلاث عشرة سنة من شبابه يعمل كطبيب جراح، السنوات الأربع الأولى كان راضياً، ويمكن القول سعيداً، كان للعمل احترامه وللدوام هيئته، لم يكن يفكر وقتها بالفرار أبداً... كان العدد معقولاً ومنطقياً، لكل جراح دوره في العمليات، وفي العيادة وفي المناوبات، كل أسبوع كان الدكتور كريم يجري بين عمليتين إلى ثلاث عمليات، بعد أن تضخم العدد بشكل سرطاني، وفقد العمل قدسيته والدوام هيئته، كان لايمكن أحياناً من إجراء عملية واحدة بسيطة كل شهر!!

ترى من يقرأ المستقبل؟!

من يملك القدرة على التنبؤ؟!

من يعلمنا كيف نتعظ من كل ما يجري حولنا؟!

قراءة غير مرتبة في مذكرات الدكتور كريم

منذ طفولته اعتاد كريم أن يكتب مذكراته شبه اليومية، والده نبهه لأهمية أن يكتب الإنسان مذكراته، لا يزال يذكر كلماته: لا يجب أن ننسى يا كريم، الأيام يجب أن تكون كسلسلة، كل حلقة من حلقاتها متصلة بالأخرى، حين يحدث قطع، تضيع السلسلة، الإنسان الناجح يجب أن يستفيد من عبر الماضي، أن يستخلص الحكمة من الحوادث التي مرّ بها، ليتسنى له ذلك يجب أن يدون كل شيء، كي لا ينساه... والده رحمه الله كان يدون في دفتر مذكراته، استاذ الرياضيات

الشهير الذي أفنى نفسه في الدروس الخصوصية ليؤمن لابنه ثمن عيادة، دفع عمره كله ليجمع لكريم ثمن غرفتين في مبنى تجاري، كان حريصاً أن يخفي دفتر مذكراته الذي أثار فضول الأولاد والزوجة بعد وفاته أمكن لكريم قلب الدفتر، اعتقد أنه سيعثر على أسرار خطيرة لشدة تكتّم والده وحرصه على إخفائه، لكنه صعق وهو يقرأ صفحة بعد صفحة، أن والده كان يسجل أسعار الخضار، واللحم والفاكهة والمواصلات، وأسعار الأحذية والملابس، وتدهور القيمة الشرائية للعملة... وفي نهاية كل تقرير كان يكتب سطرًا أو سطرين معبراً عن مخاوفه المتعاظمة في ألا يتمكن من تأمين حاجات الأسرة، وحاتاً نفسه أن يوسع دائرة دروسه الخصوصية، متقاعساً في صفحات أخرى عن إغراق نفسه بالعمل، بحجة أنه متعب وبأن الشيخوخة لها حق عليه.

أهذه أسرارك يا أبي؟ أهذا هو الدفتر الذي كنت حريصاً ألا يقع في يد أحد؟ أتكون هذه أيامك لهاثاً يومياً وأبدياً وراء العلف اليومي؟ مسكين، مسكين... احتفظ كريم بالدفتر، كان يحتضنه كأنه يضم عمر والده كله إلى صدره... وحين كان يكتب مذكراته كل يوم، يتخيل والده يقف غير بعيد عنه، ينظر إليه راضياً مبتسماً...

في عيادة التحنيط الأبدية كان الدكتور كريم مسترخياً في كرسيه منذ ساعتين ينتظر اللاشيء، دخن سيجارتين وشرب فنجان قهوة، تمطى وتشاءب، أطلق نظرة من النافذة تفرج على واجهات المحلات، وعلى الناس في فوضى تسوقهم، عاود الجلوس، نظر في ساعته مراراً... نظر بعدم اكتراث للغبار المتراكم فوق الأثاث الأبدى للعيادة... فوق طاولة المكتبة الواسعة الفوضوية، اصطفت أوراق وصفات طبية، وأقلام، بضع مجلات وكتابان، دفاتر، تمثل مذكرات الدكتور كريم اليومية، هي أساساً دفاتر الضريبة، التي يفترض أن يسجل فيها عمله اليومي ليقدم الدفتر في نهاية العام لمديرية المالية... لتقدر أعماله وبالتالي تحدد الضريبة... لكن حقيقة الأمر، أن أياً من الأطباء ما كان يسجل شيئاً، لأن مديرية المالية ما كانت تقرأ أبداً ما لا يكتبه الأطباء. المهم هو ختم الدفتر وعدم التأخير عن المدة المحددة لختمه وإلا تتضاعف الضريبة، كان الدكتور كريم يتحول تلك الدفاتر حال ختمها إلى دفاتر مذكرات... خطرت له فكرة طريفة وهو يتناول اعتباطاً أحد هذه الدفاتر ليقرب فيها، ماذا لو قدمت هذه الدفاتر إلى مديرية المالية!! ياإلهي سيصعقون بالتأكيد - هذا مقاله لنفسه - كان الدفتر الذي سحبه عن سنة ١٩٩٤ .. قبل ثلاث سنوات من جلوسه هنا محنطاً، أخذ قلبه يرتجف بعد أن فتح اعتباطاً دفتي الدفتر، توقف ليقراً: «أحس أنني سأتحول لتمثال في الجص فهذا أنا أصادق الفراغ أمامي، أحس بملل فظيع، لكن حدة مشاعري تخف حين أفكر ضجر زملائي.»

يقرب صفحات عديدة ليقراً:

«أريد نجدة حقيقية، أحس برعب حين أفكر بأجار العيادة، وبالضرائب التي تتضاعف لم يكن ينقصنا سوى ضريبة التنظيفات، والله عال، صار للقمامة

ضريبة، الأدهى من ذلك أنها تفوق ضريبة الدخل، ما يجعل دماغي ينفجر كون الشارع قدر مزروع بالقمامة، يا ألهي لم أعد قادراً على الاحتمال...»
يقلب صفحات ليقراً: «أفكر جدياً أن أبيع العيادة، والعدة الجراحية، يا إلهي ماذا لو ربحت جائزة اليانصيب الكبرى، صرت أخشى حقاً أن أجن.»
يقلب صفحات ليقراً: «اليوم حضرت باكراً إلى العيادة، من الساعة والنصف صباحاً، جلست على كرسي تحنيطي الأبدي سارحاً في اللاشيء شيء رهيب الجلوس بلا عمل وانتظار اللاشيء سأذهب إلى البالا لأتسلى، أذكر بألم كيف ذهبت أشحذ الصائغين ليقبلوا شراء فردة حلق ذهبي كان لأمي، أخيراً اشتراه صائغ وهو يرمقني باستخفاف، اشتريت بثمانه أفخاذ دجاج وكيلين دراق...»

مأساة فعلية وضع الأطباء، لم أعد أطيق الكتابة.»

يقلب الصفحات ليقراً: «إن وقت التحنيط المستفيض في العيادة يجعلني أخربش بقلمتي محاولاً خلق صداقة بيني وبين نفسي، لأنفس ضيقتي الذي كنت أعرف سلفاً أنه لاينفس بالسهل كنت كمن يحاول تنفيس بالون كبير ممتلئ غازاً من ثقب صغير، سرعان ماينسد آه ماأصعب الحياة حين لا يكون هناك أمل، حين ينظر الإنسان إلى المستقبل ويحسه غامضاً مريباً، أخشى من يوم لاأتمكن فيه من مصاريف المعيشة اليومية...»

يقلب صفحات ليقراً: «أستطيع أن أتفرج على نهاية كل شيء، وأنا جالس في كرسي عزلتي، مفلس مادياً ومعنوياً، وتبدو الحياة خواءً وغيوناً فارغة، آه أكاد أختنق من الحر وثمان مكيف الهواء يعادل راتبي عن سنة!».
يقلب صفحات ليقراً: «أحس بفخر كوني دخلت اليوم سبعة ليرة، سارعت إلى السوق، اشتريت فاكهة وكيلين من اللحم، وعدت أقفز من السعادة. - قطع -

يقلب صفحات ليقراً: «أيامي متشابهة إلى حد فظيع، والله صرت أشتهي الموت، حالتي النفسية متدهورة جداً، فراغ قاتل، أحاول خلق آمال أعرف سلفاً أنها زائفة لأحس بشخصيتي ولاحضوري، فراغ وبؤس وشباب

يضيع، ويأس وعراك يومي مع الساعات صداعي مستمر منذ أيام، لا يزال أمامي ساعة ونصف من التحنيط، سأعود بعدها للبيت، أعرف أن لأحد سيقصد عيادتي.» يقلب صفحات ليقراً: «يا للمقلب المحترم هذا الصباح، لم يراجعني مرضى المشفى في عيادتي كما طلبت منهم، بل ألححت عليهم، وجدتهم ينتظروني في المشفى، تجاهلتهم، يا للعار، طبيب يجري عملية لمريض، ثم يتجاهله، والله عيب، بي رغبة أن أهج من العيادة ومن المشفى من البلد بل من الدنيا كلها، والله لم يخطر ببالي يوماً ألا أكون إنسانياً في ممارسة مهنتي لكن ماذا أفعل، مضطر أن أشحذ المرضى لأعيش، دموعي تنهمر، سأتوقف عن الكتابة...»

يقلب صفحات ليقراً: «لأعرف لماذا أحس ببلاطة على صدري، أظنه عبء الإفلاس، جلست اليوم ساعتين بعد الظهر في العيادة، كدت أطق لم يقصدني أي مريض، عدت إلى البيت تناولت عشائي بآلية رغم عدم إحساسي بالجوع، ثم انسحبت إلى قوقعتي، قرأت بذهن شارد لخليل مطران، أمي تحضر المسلسل اليومي، تحاول أن تستشف بحاستها السادسة إن كنت قد قبضت ملاليم من العيادة أم لا، أنتظر أن أغرق في النعاس وأنام...»

قلب صفحات عديدة وهو يحس باختناق يتعاضم في روحه توقف عند صفحة غير مؤرخة، ثقت عينه كلمة دعارة، قرر أن يقرأ الصفحة كلها، وليس نفاً كما كان يفعل...

«في أحيان كثيرة أثناء جلوسي في عيادة التحنيط، أبحلق في اللاشيء أو في غبار الأثاث المتراكم، والذي لأرغب بمسحة لشدة يأس، كانت أفكار طارئة تدغدغني، أحسها تهبط علي فجأة، لانتمو يوماً بعد يوم، ولاتتبلور مع الزمن كنت أفكر أن أحسن دخل العيادة عن طريق الدعارة، ماذا لو أجرت العيادة لعشاق يبحثون عن غرفة يمارسان فيها الحب؟ أو لشركاء في المتعة ينقصهم المكان؟ كنت أتخيل أنني سأجني الكثير من المال من مجرد توظيف هذا المكان الذي أملكه للقاء الجنسين - ذكر وانثى أعياهما البحث عن مكان - وأضناهما تأجيل حاجات غريزية وعاطفية لايساعدهما الجو المحيط في عيشها،

حقيقة كانت هذه الأفكار الغريبة تدغدغني، وتجبر وجهي المتجهم من الأنتظار اللامجدي للمريض من الابتسام، كانت كحلٍ معاوض للقهر المتصلب والمتجذر عميقاً في نفسي، في الحقيقة، كنت كل يوم حين تقوديني قدماي إلى العيادة أحس سلفاً أنني على موعد مع قهرٍ قاس لمدة ثلاث ساعات، وفي الطريق كنت أحس بتجهم ملامح وجهي وتصلبها كنت أفتح الباب وأدخل إلى دفء الغرفتين والمطبخ الصغير، أحس أن الأمكنة بدورها تصاب بالاكثاب، وأشعر تماماً بوجع هذه العيادة، بألمها وأينها وكأنها تطلب مني أن أعفيها من لقبها، أن أحيلها إلى مكان آخر، ماعدا كونها عيادة التحنيط الأبدية.

وفي أحيان كثيرة كان جنون اليأس يستعمر خيالي، ويجعله يفرز صوراً غريبة، كأن أعطي لهذه العيادة وظيفة سرية هي تجارة المخدرات، وأتخيل أشخاصاً مبهمين يتاجرون بالمخدرات، ويخبئون أكياس البودرة المسممة في عيادتي ريثما يصرفونها، كيف أنني سأجني أموالاً طائلة من مجرد كوني وسيطاً. وفي كون عيادتي مستودعاً للمخدرات، كان خيالي يملك رصيذاً هائلاً من صور لأفلام عربية وأجنبية حول تجارة المخدرات...

آه، كل شيء مضحك حقاً، ليس أمامي سوى الكتابة، بتعبير أدق الخربشة لم يعد الدكتور كريم قادراً على قراءة المزيد، ينتابه رعب حقيقي، رعب يتنفسه ويأتيه من شقوق المكتبة مقابله، من الأقلام والأوراق، ماعاد الهواء يبلغ عمق رثيته، تمنى لو يصرخ، لويكسر الأبواب، ويقلب طاولة مكتبه ويرمي عدته الجراحية من النافذة، ينتفض من مكانه، يغلق باب العيادة، يفك أزرار بنطاله، مطلقاً حيوان الرغبة من أسره، يفرق يائساً في ممارسة العادة السرية؟... أسى فظيع يغمره وهو يعيد فتح باب العيادة، دموع لزجة تحوم في عينيه، يتساءل وهو مبلل بالخجل لماذا تصرفت هكذا مع أنني لم أكن أشعر بأدنى رغبة جنسية، لكن إعياء القهر منعه من البحث عن جواب دقيق وعلمي... يطفئ الضوء، ويقفل باب العيادة، وفيما هو يطلب المصعد الأليف الذي اعتاده: ترى كم عدد الأطباء الذين يمارسون العادة السرية في عياداتهم، يتسمضك فعلاً شر البلية ما يضحك!

يعود إلى بيته باكراً، يلفه تعب غريب، يحس جسده مهدوداً وروحه متعبة، متعبة كأنه لم ينم منذ أيام، يعكس زجاج النافذة صورة وجهه ضبابية، كأن مخدراً يسري في دمه ويدخله عالم الغيبوبة، تعب البطالة هدام، يرغب بالنوم كي لا يواجه حقيقة يومه. بطالة في المشفى صباحاً وفي العيادة بعد الظهر، الوضع ماعاد مقبولاً أبداً، تذكر مذكراته عن عام ٩٤ التي تصفح بعضها في العيادة، كلها أنين وتوجع من الفقر، سعادته تأخذ حدودها العظمى حين يشتري أشياء يومية للحياة وبؤسه يبلغ ذروته حين تكون جيوبه خاوية تسائله الحياة: ماذا أنت فاعل بحياتك لو لم يقصدك مريض؟! يتمنى خياله لو يسعفه بتسريع مرور الأيام، لكنه عارف أنها لن تمر سريعة، سيعاود التقشف الفظيع، الحرمان من التدخين، ركوب قدميه كواسطة نقل، الفرق في النوم من التاسعة مساءً إلى أن تسقط ذرات قليلة من الماء في حلقة الجاف، وتسعفه الملاليم، لتذكره بطعم الحياة، عاد يستيقظ في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حين ينام باكراً، يحس بمتعة كونه الصاحي الوحيد وكلهم نيام، يتخيل الناس للحظات أمواتاً. تعود الحياة تسائله: ماذا أنت فاعل بحياتك؟ ويرد عليها: ماذا عساني أفعل؟ تحنّ عليه الحياة تتقمص وجه أمه. يسألها: ترى كم سنة سأعيش؟ يحس بعد دقائق برهبة هذا السؤال يأتيه شعور كاليقين أنه سيعيش عامين وسيموت في الأربعين. يصرخ محتجاً: لا، لأأريد، يأتيه صوت ساخر: لكنك غير سعيد، مضت سنوات شبابك المزهرة وأنت تستجدي الحياة أن ترحمك من القهر اليومي والذل، لكن ظروفك تسير من سيء إلى أسوأ، يتذكر بحدة صديق دراسته ماهر، زاره منذ أيام بعد غياب خمسة عشر عاماً في أميركا، بهرته أناقته الانسجام البديع في ألوان ربطة العنق والقميص والجاكيت، والحذاء اللماع تفوح منه رائحة جلد فخم. أحس كم يكن له ماهر من وِدٍ قديم، وهو يخبره كم سأل عن عنوان عيادته لأنه يرغب بلقياه لم يستطيع أن يمنع نفسه من سؤال صديقه عن عمله في أميركا، رغم أنه عارف كم سيوجعه الجواب، رد ماهر ببساطة: أعمل في الجامعة، وإن كان راتبي أقل نسبياً من الأطباء خارج الجامعة، لكن لا بأس، مجمل ماأقبضه خلال عام حوالي مئة ألف دولار. يقولها ببساطة

شديدة فيما كريم يغطس ظرف الشاي في الماء الغالي ليدوب قهرة قبل أن يذوب الشاي. سأله ماهر: لماذا لم تسافر؟ ردّ: آه سؤال لامعنى له الآن... يتأمله بعيون مترعة بالخيبة يحدث نفسه: هكذا يكون الطبيب الثقة تتدفق من حضوره أما أنا فلقد نسيت الطب، لم يبق من معلوماتي سوى مجرد ممارسات تافهة علقت بذهني بفعل التكرار، ماذنبي إن كانت ظروفني على درجة من القحط والسوء ولأقدر أن أشترك بمجلة علمية ولأستطيع حضور أي مؤتمر علمي ضمن القطر، فكيف المؤتمرات في الخارج؟! تذكر كيف ألح ماهر بدعوته للعشاء، أراد أن يرفض لأنه يستحيل أن يقدر على رد دعوته، لكن ماهر ألح، لم يذهب رغم إغواء الدعوة، لأنه لن يستطيع احتمال نجاح صديقه، ولا يريد أن يراكم صوراً وذكريات لماهر في تألقه وثرائه، فيما هو قابع على رصيف الحياة ينتظر الصدقات.

تساءل: هل أنا على وشك الانهيار؟ مالذي يحول بيني وبينه؟ أهو الخوف الاجتماعي، أم اعتقاده الراسخ بأن الانهيار هو النهاية الحتمية، هو السقوط الأخير الذي لاقيامة بعده سيصير في نظر الجميع المنهزم والمجنون والفاشل، وسينسق خارج دائرة الحياة كشخص عجز عن التواصل مع متطلبات الحياة، وفشل في التعامل مع الظروف والبشر... المجتمع كما تعلم لا يتعاطف مع المنهارين، إنه يحب الأقوياء، حتى الذين يتحدونه يهابهم، أما أن ينهار فلن يقدم له أحد يد العون، لكن ليعترف أنه صار يتمنى الانهيار، سيصل إلى حل أخير حتى لو كان الهزيمة، أوليست الهزيمة أفضل من عراقك مستمر منهك، والأمل، إنه أشد المشاعر أذى للإنسان، لأنه يستمر يجرجره في الطرقات الوعرة حتى تنفق روحه... وهامي الحياة تقدم له كل يوم ألف مثال ومثال بأنها ستهزمه، فرغته من كل أحلامه الصغيرة وجعلت الرعب من المستقبل يعيش في روحه، سيظل إلى أبد الأبدن لاهثاً وراء القوت اليومي: فلماذا لاينهار؟ لماذا لا يختار انهياره؟ أولم يقدم له الأسبوع الأخير علامات منذرة وقوية على انهياره، ألم يقضي أياماً متواصلة في النوم، أو الجلوس شبه غائب عن الوعي في سريره، أوفي كرسي تحنيطه الأبدني في العيادة.

يتلع القرص المنوم تمام التاسعة، لأنه يرغب بالغياب عن حالة الوعي المرهقة، لكنه كان يستيقظ بعد منتصف الليل، حيث يلسم السكون المطبق أوجاعه قليلاً، يحضرّ قهوة منتصف الليل، ويسرح لساعة أو ساعتين في اللاشيء، وغالباً ما يضطر لمعاودة ابتلاع المنوم حتى يغرق مجدداً في النوم، ويستيقظ على تحذيرات أمه من خطر هذه العقاقير، صوتها الرقيق مندى بالدموع، تذكره بأن الحياة حلوة، وبأنه لا يزال شاباً ولا يدري ماذا يخبئ له المستقبل، لكنه يدير ظهره ويمضي، دون أن يشعرها أنه سمع كلامها.

وحدهن المرضات قادرات من حيث لا يدريين على بلسمة أوجاع روحه المزمنة والتي سماها آلام سرطانة، كان يتأمل نظيرة، ممرضة نشيطة وأم لأربعة أطفال كيف تنتظر بفارغ الصبر أن تقبض طبيعة العمل التي لاتتجاوز المئتي ليرة، كل يوم كانت تتصل بالمحاسب لتسأله: متى سنقبض طبيعة العمل؟ ذات يوم سألتها ضاحكاً: هل ستغنيك مئتا الليرة يا نظيرة؟ ردت للحال: إنها تساوي ثمن كيلو جبن، ونصف كيلو لبنة. ودون حرج أخبرته أنها تستدين من البقال الجبن، واللبن، واللبن، واللبن، وبأنها محظوظة بجيرة ذلك الجار الرحيم الذي يرضى أن يدينها، وما أن تقبض راتبها حتى تسدد ديونها، لتعود للاستدانة بعد أيام قليلة مجدداً... وهكذا تستمر حياتها.. انتظار نظيرة العشقي والملحاح لطبيعة العمل كان له مفعول المسكن السحري لآلامه، يتذكرها كيف تقضي الشتاء كله بالكثرة ذاتها خضراء مخططة بالأسود، وعندما اضطرت أن تباع الغسالة الأتوماتيك التي احتاجت لسبعة وعشرين شهراً كي تسدد أقساطها، لتعالج عين ابنتها التي احتاجت لزرع عدسة، حاول تعزيتها، لكنها ضحكت وهي تقول: ما المشكلة يا دكتور، طول عمري أغسل على يدي...

كان يتأمل تلك الإنسانة المدهشة، التي تقضي الشتاءات المتوالية بالكثرة ذاتها، وتحلم أياماً بقبض طبيعة العمل لشراء كيلو جبن لأولادها، وقادرة أن تفرق أربعة أطفال في بحر سخي من الحب، إنها تمنى لو يستهلكونها، لو يتمثلونها، لو يريحونها من مقاومة الحلم ذاته كل يوم، بأن يتغير الحال، وتمطر السماء آلاف النقاط، تمثل كل نقطة طبيعة عمل... ذات يوم تمنى لو يملك

الجرأة ليروح لنظيرة، أنه لجأ منذ أسابيع إلى أحد الصيادلة يحمل كيساً فيه أدوية متنوعة، كلها نماذج دعائية من شركات الأدوية، وأن ذل الحاجة دفعه لبيعها، تمنى لو يقول لها إنه حاول أن يخفي حرجه من الصيدلي بالتظاهر بالمرح، لكن الصيدلي اعتذر بلباقة قائلاً بأنه لا يشتري نماذج دعائية. ودّ لويروح لنظيرة أنه يوماً كان يملك عشرين ليرة فقط، وكان يحتاج لشراء بيض ودخان وجبن... ترى هل من حلٍ سوى أن يتعزّى المساكين ببعضهم.

حين تضيق به الأيام لدرجة خانقة، ويحس كأن قبضة الزمن تحكم على رقبته لاينفع شيء في تعزّيته سوى استحضار سعاد إلى ذهنه، إنها ممرضة خمسينية تعمل في قسم الضماد، وإذا كان يسمي الممرضات «النساء بلا حدود» فإن سعاد تتفوق على اللاحدود نفسه، إنها ظاهرة تستحق الدراسة والتأمل.. كان يزورها دوماً في غرفتها البعيدة، يقدم لها سيجارة تنقشها بتلذذ، ويتأمل طقوسها في تحضير الزهورات، مرددة كل مرة، أنها تحضر تلك الأعشاب بنفسها، تخلط البابونج والزوفا وأوراق الورد اليابسة، والزعتر البري والميرمية، مع بعضها، وبنسب معينة، وتقدم له المشروب الذهبي الداكن ليشربه، يحتس المشروب المقدّس... كان يسميه القربان المقدس... كانت سعاد تدهشه، تجعله يخجل من نفسه، طالما تمنى لو يقترب منها يلمسها، يتأكد أن لها طبيعة بشرية، تمنى لو يقبل يديها الخشتين من التعب... كان يعبر عن حبه الشديد لها، بأن يشتري لها بين حين وآخر نصف كيلو من القهوة، أو يحضر لها سراً بعض الثياب من البالا تأخذها شاكرة وهي تنظر إليه نظرة الشكر العميق، في الأيام السعيدة التي يقصد عيادته المرضى كان يخصص دوماً جزءاً من دخله لسعاد... تلك الظاهرة التي تفتنه، يوماً ما كانت شابة جميلة أحببت شاباً وتزوجته، أنجبت بنتاً وصيباً، ثم أراد القدر أن يمتحنها، زج زوجها في السجن لتهم عديدة وغامضة، غاب هناك خمسة عشر عاماً، كان عليها أن تربي الطفلين براتب الممرضة، ظلت تحضرهما معها إلى حضانة المشفى حتى صارا في عمر المدرسة، واضطرت أن تعمل ممرضة ليلية في إحدى المشافي الخاصة لعشر سنوات، بعد أن تقفل الباب على أولادها وتمطرهم بالقبل وترجو

لهم نوماً سعيداً... نقص النوم غير شكل سعاد، كثيراً ما كانت تترنح وهي تمشي ثم تحكم السيطرة على مشيتها كي لا تسقط أرضاً، بعد انتظار طويل طويل، خرج زوجها من السجن، ذبحت سعاد خروفاً ووزعته على الجيران... غابت عن المشفى اسبوعين للتفرغ للعريس لتستقبل الناس الذين حضروا خصيصاً من أجل سعاد، ليقولوا له الحمد لله على سلامتك.

لكن المسكين فضل الرحيل إلى سجن آخر، إلى أفق مفتوح لانهاضي، أراد أن يستقيل تماماً من دنيا البشر، مات بعد ثلاثة أشهر من خروجه، وقد أجمع الأطباء أنه توفي بسبب التهاب كبد حاد سببه استعمال شفرات الحلاقة بين المساجين...

لبست سعاد الأسود عامين، ثم أخذت تجاعيد وجهها المليئة بالطيبة تشي بسير ماعادت قادرة على إخفائه، وهو إدمان ابتها على البيرة، كانت ابتها في الثانية والعشرين من عمرها تعمل عاملة مقسم، وتكره عملها بشكل فظيع، لجأت للبيرة تسكن بها أوجاع عملها وحياتها، ووجدت نفسها تنزلق في الإدمان، كانت تأخذ معها كل يوم أربعة لترات من البيرة تشربها أثناء العمل، تطور الأمر بالصيبة إلى أن أصيبت بتشمع كبد، انقطعت دورتها الشهرية نهائياً... كانت تسير بخطا حثيثة نحو الموت... ولم تنفع جهود الأم والأطباء الذين استدعتهم لعلاج ابتها من اقناع الأخيرة بالعدول عن عاداتها... وتوفيت الفتاة بعد شهر واحد من فكاك سعاد الحداد على زوجها! عادت لتغطس في السود وقد نذرتة اللون الوحيد طوال حياتها...

الابن هو الوحيد الذي يفترض أن يكون نافذة الأمل في حياة سعاد... لكن هو الآخر اختاره القدر ليكون نصلاً حاداً يخترق قلب الأم، المآسي التي عاناها الشاب دفعته للتعلق بالحياة بشكل جنوني، اعترفت سعاد ذات مرة لأعز صديقاتها، بأنه يضربها أحياناً ليحصل منها على المال، لأنه يريد أن يجاري رفاقه في المصروف، في اللباس، وفي استنزاف كل لحظة من الزمن ليتمتع بها، عساه يستمتع نيابة عن أبيه وأخته... بكته أياماً يوم تركها وسافر في البحر باحثاً

عن المال، قالت: أصبح الثراء حلم كل الشباب، قلت له بأني مستعدة أن أعمل أعمالاً إضافية وأعطيه كل ما أملك، لم يرضى، قال لي بأن راتبى كله على بعضه يصرفه في سهرة واحدة لو أراد أن يعيش بحق! صارت سعاد تعمل ممرضة للعجائز الذين تضيق بهم أسرهم، تخدمهم ليلاً وتسهر عليهم مقابل مبلغ معقول من المال تقدمه لابنها، ليشتري بها الحذاء الإيطالي ويسهر في المطاعم الفخمة مع رفاقه دون أن يمسخ على شعرها بلمسة حنان، أو تفتح شفتاه على كلمة شكر... لم تشك سعاد يوماً غدر الزمان، كانت أكثر الممرضات إنسانية في عملها كانت تقبل الأطفال وتداعبهم وتطمئنهم قبل تغير ضماداتهم، وتؤاسي الشيوخ وتعني عناية فائقة بالمحرومين... من أين تنبع من داخلها كل هذه العواطف الرقيقة؟ أي نبع هذا الذي لا ينضب في داخلها، ولم تنسى الابتسام والالغناء، كانت تملك صوتاً يثير الشجن، ويدفع كل من يصغي إليها لنسيان العالم الأرضي والطيران إلى فوق... كانت سعاد هي الملاذ الوحيد الحقيقي للدكتور كريم، الذي لم يجد حرجاً يوم سألها: كيف تحملت كل تلك الصعوبات الهائلة ياسعاد ولم تنهاري؟! ردت باسمه: الحياة عبور يا ابني، كلنا عابرون، كل إنسان يأخذ نصيبه. يسألها: لكن هل يعقل أن يكون نصيب إنسانة رائعة مثلك كل هذا الشقاء؟! تقول بإيمان: لست وحدي الشقية، انظر حولك يا ابني، العالم مليء بالشقاء، البشر أغلبهم أشقياء، ألا ترى صور المجاعات في الصحف والتلفاز، ألا تسمع بالأمراض التي تحصد الناس، كلنا عابرون، عابرون يادكتور كريم... تدهشه حكمة هذه المرأة، قدرتها على التماسك والعطاء رغم كوارث حياتها، ما أتفه معاناته تجاهها، «سعاد لو كنت نحاتاً، لصنعت لك تمثالاً...» هذا مقاله لها يوماً، ضحكت، أسعده أنه تمكن من انتزاع ضحكة حقيقية نابغة من قلبها... قالت أنا إنسانة عادية جداً يادكتور كريم.. أسرع يعترض: بل أنت قديسة.

جلسة القهوة في استراحة العمليات أو في العيادات، يصح أن تعتبر تحليلاً نفسياً بلغة الطب النفسي، إنها جلسة بوح حقيقي، يتحلق الأطباء،

الطبيبات والمرضات حول الشراب الأسود اللذيذ، كل يحمل فنجانه ويوح... أحياناً يكون الحديث خفيفاً، مسلياً تحت أحاديث الطعام الصدارة فيه، يليها الأحوال الجوية، الشكوى من الحر أو البرد، أزمة المازوت، غلاء تكاليف التدفئة، وغالباً ما كانت بعض المرضات والأذونات يفردن بضائع رخيصة للبيع، كقمصان نوم، بناطلين، أقمشة، عطورات رخيصة، يساعدهن الربح الطفيف في بيعها لتأمين بعض حاجات الأولاد، ودوماً لأم محمد حصة الأسد في البيع، كانت آذنة شبه أمية، خفيفة الروح، تفرّغ ضيقها بالنكات ومؤمنة أن النحس نصيبها في هذه الحياة، كان زوجها جزاراً - منحوساً كما تصفه - لأنه لا يرضى أن يغش، بالكاد دخل دكانه يكفي مصروفه الشخصي، يوم أجرت عملية المرارة زارها الدكتور كريم في بيتها، تاه التكسي في أزقة لم يتخيل كريم وجودها، أخيراً اهتدى إلى دكان زوجها الجزار، كانت عبارة عن غرفة وحيدة أشبه بسجن انفرادي معتمة وقدرة، علّق فيها ذبيحته الوحيدة. ضحك في سره وقال: أهذه تسمى دكاناً! ومن سيقصده، الناس في هذه الأحياء فقراء لدرجة لا يشبعون من الرغيف، فكيف سيقدرّون على شراء اللحم؟ بيت أم محمد عبارة عن غرفتين، لاناظفة فيهما، مجرد باب خشبي ضيق هو نافذة البيت على العالم، ابنها محمد تتباهى به، يحضّر للدكتوراة في الهندسة، أوفدته الجامعة إلى روسيا، تعيش على حلم أن يرجع ذات يوم وينتشلهم من الفقر، لكنه تزوج هناك واستقر وانقطعت أخباره، وفرّ من التزامه مع الجامعة فما عاد يقدر أن يزور الوطن... كانت أم محمد تبكي من قسوته وتقول: والله ما عدت أرغب أن يساعدا، فقط أريد أن أطمئن عليه. تبكي أيضاً ابنتها المطلقة، التي عادت إليها ذات ليلة شبه منهاراً، طردها زوجها لأنه عشق أرملة حسناء تزوجها وطلق زوجته، المطلقة المسكينة كانت تبكي أولادها، ولاتنفيك لحظة من ابتداء صور تعذيبها، تمثل جميعها تعذيب زوجة أيهم لهم، كانت أم محمد تشارك ابنتها البكاء، لكنها لاتستطيع أن تساعدها في إحضار أولادها، لأن البيت لا يتسع لهم، سبب القهر للمطلقة آلاماً شديدة في معدتها، أدخلت المشفى بحالة اسعاف مراراً، لكن التحريات الطبية بينت أنها مصابة

بسل في الكلية... لدى أم محمد ثلاث بنات أيضاً عدا المطلقة، إحداهن مجتهدة تدرس في الجامعة، لكنها دائمة الشكوى بأنها تخجل من ثيابها أمام صديقاتها، تحاول أم محمد أن تشتري لها ثياباً أنيقة من الربح الذي تحصل عليه من بيع البضائع البسيطة للمرضات والأطباء، دوماً تحتاج من يساعدها في حساباتها، أحياناً يغادرها طبعها المرح فتزوي في ركن قصي في العيادة تشعل سيجارة، تنفث دخانها بطريق يشعر من يراها أنه دخان احتراق روحها، وتتنهد بعمق، ثم تطلق زفيراً، وتقول جملتها الأثيرة: الدنيا بنت كلب. حكمتها في الحياة بأن الدنيا بنت كلب، في جلسة القهوة كانت سهيلة عصباً أساسياً فيها، ممرضة شابة لديها ولدان، زوجها أستاذ لغة عربية، راتبهما لا يكفي للمعيشة يساعدهما أخو زوجها، وهو أمي، لكنه يملك آلة تقطيع الرخام، يربح الكثير، ويساعد أخاه الاستاذ بألفي ليرة كل شهر، سهيلة تحس بالقهر وتقول: أنا وزوجي متعلمان ونعمل، وبيتنا ملكنا، لكن راتبنا لا يكفي لمعيشتنا مع الأولاد، أخوه الأمي دخله كبير ويتصدق علينا... شركاؤها في جلسة القهوة يحسون بقهرها، يقولون لها: الحمد لله أنه يساعدكما، من أجل الأولاد على الأقل، ليس أفضل من أن يشعر أطفالك بالحرمان. تطرق سهيلة غارسة عيونها في البلاط، مدارية نظرة الإنكسار... أخذ قلق شديد ينتابها عندما تزوج أخو زوجها، وعبرت عن مخاوفها بانقطاع المعونة الشهرية، وبأن الزوجة لن ترضى بعد تلك المعونة... رفاق الشراب الأسود والعيشة السوداء يؤاسونها بكل طاقتهم الوحيدة على التعاطف: المهم الرجل، إنه صاحب القرار... ترد سهيلة بحزن: بل المهم المرأة.

حلقة القهوة تضم أم سجين أيضاً، ترملت في الثالثة والثلاثين، لديها ثلاثة أطفال، سهرت على تربيتهم وتعليمهم، ابنتها الكبرى في الجامعة، تلبس ثياباً فاخرة، وتبرج بما كياج رائع، وتتعطر بأغلى العطور! تتغيب كثيراً عن البيت تقول لأمها بأنها تدرس عند صديقاتها، وبأنها تستعير الثياب منهن! الأم لاتصدق ترتاب في سلوك ابنتها، يسكنها الذعر، لكنها لاتملك الدليل، البنت متفوقة في الجامعة، كل يوم تسحب ابنتها من يدها وتحذرهما من طريق الغواية

والحرام، تستفيض في الحديث عن الشرف... الابنة تصفي ساخرة بعينها الساحرتين المكحلتين، تبسم لأمها وتقول: أنا أشرف من الشرف يأمي، لاتخافي، دعيني أعيش، في كل مرة تنتهي المواعظ الاخلاقية للأم، بالجملة الوحيد النهائية للابنة: دعيني أعيش، كثيراً ماكانت الشابة تحضر الحلوى والفاكهة لاختوتها وأمام مهرجان الفرح الذي يقيمه الأولاد حول الحلويات والفاكهة، كان الشلل يصيب أم سجييع، ذات يوم هاجت الأم، وركبها جنون الغضب، أنها تريد أن تعرف من أين تحضر ابنتها المال، وتشتري هذه الأغراض، ردت الابنة ببساطة بأن لديها صديقة ثرية تساعدتها هي في دروسها والأخيرة تقدم لها الهدايا، أصرت الأم على التعرف بالصديقة المزعومة، قالت الابنة ببساطة: أوكي ماما. عادت بعد يومين برفقة امرأة في الخمسين متبرجة، يتدلى من عنقها كيلو ذهب على شكل سلاسل مختلفة الأشكال ومعصمها يختنق بالأساور، تلبس الجلد والشامواه، وتتعطر بعطر مدوخ،... أهذه هي الصديقة؟! الإخراج الفني الذي قدمته الابنة، بأن السيدة شيرين ثرية تدرس في الجامعة متأخرة وبأنها أحببت الابنة الشاطرة كثيراً، واعتبرتها مثل ابنتها التي توفيت اثر حادث سيارة!! حوصرت أم سجييع، غلبها زمن العهر، القوادة خطفت ابنتها، والابنة تريد أن تعيش؟! ماذا تفعل الأم المسكينة، كيف تداري نظرات الارتياب والابتسامات الخفية التي تتبادلها المرضات حين تضطر ابنتها لزيارتها في المشفى لسبب ما،... لكن أحداً لم يتخيل تلك النظرة الطويلة الطويلة، الغامضة، والملتبسة، الحنونة، الناقمة، المهزومة، المنتصرة الشاكية، المتظلمة، والمتصالحة، والمتخاصمة بين عيني الأم والأبنة... لكن في نهاية النظرة، في نهاية الحياة، ستظل أم سجييع: الأم، والعاهرة الصغيرة المثقفة: الابنة؟! وسيبقى الحب بينهما طفلاً مصاباً بالشلل.

أمينة

نام الدكتور كريم بعمق عشر ساعات، وحين فتح عينيه كانت أطراف أحلام متوترة عالقة بأهدابه، قام يحضّر شرابه الأسود عارفاً سلفاً أن أمه ستكون في الصالون كعادتها تسمع نشرة الأخبار من محطات مختلفة، تدهشه هذه المرأة، إنها سعيدة حقاً رغم نزقه وخيباته التي تعايشها كل يوم، أحياناً يشعر أن مجرد كون المرأة أمّاً يجعلها سعيدة، هل السعادة تعني الأمومة؟! كان جسمه دبقاً من العرق، وشعره ملبداً، فكر أن يستحم، لكنه عدل عن الفكرة: لم على الإنسان أن يكون نظيفاً إذا كان يائساً لهذه الدرجة!؟

وصل عيادة التحنيط الأبدية كما يسميها، جلس على كرسي وحدته، وبدت له العيادة أشبه بالمرأة الوحيدة المخلصة له والتي ستجبه إلى الأبد، فكر أنه لن يتمكن من بيعها لأن الرجل يستحيل أن يطلق امرأة تخلص له وتعشقه لهذه الدرجة، راقته له فكرة تشبيه العيادة بإمرأة، أراد أن يكتبها في دفتر مذكراته، لكن فتاة سمراء أشبه بالشبح فاجأته بدخولها إلى مكتبه وفي يدها فنجان قهوة يرتعش، بدا له واضحاً كم تبذل جهداً لتسيطر على ارتعاش يديها، حيثه بخجل وقدّمت نفسها بأنها الموظفة الجديدة في مكتب جاره المخلص الجمركي، قدمت له القهوة وهي تسأله: هذه بدون سكر، فكيف تشربها؟! شكرها وهو يدعوها للجلوس قائلاً: أشكرك على القهوة.

جلست على طرف المقعد مقوسة الظهر، وقد تشابكت يداها في

حضنها، كانت تلبس كنزة حمراء فضفاضة، وقد ثنت أكامها، وتنورة سوداء طويلة، ولم تستطع ملابسها تمويه نحافتها المثيرة للشفقة، أمكنه أن يلاحظ ترقوتها، ونتوءات عظام كتفيها، ابتسمت مدارية خجلها، فصفعه تشوه أسنانها، كان فكها العلوي لا يحوي سوى أربعة أسنان متفرقة، أحس أن قطاراً يمكن أن يمر من فراغاتها، استوقفته ندبة جرح مائلة في وسط جبهتها، لكن بريقاً واضحاً كان يشع من عينيها السوداوين، أما شعرها الكثيف الفاحم فقد ضفرته في ضفيرة ثخينة تدلت حتى وركيها، ابتدرته الحديث محاولة التغلب على خجلها قالت بأن والدها يشكو من آلام شديدة في ظهره، فقد اشتغل عتلاً في الميناء لسنوات، وكانت المسكنات تخفف آلامه في البداية، أما الآن فروحه تزهدق من الألم كلما هم بالقيام والجلوس. سكتت، لامست بموسيقى صوتها الساحر شغاف قلبه المتلبد الأحاسيس، قال لها:

- حسناً يجب أن أراه، وأصعبه معي إلى المشفى لإجراء كل مايلزمه من فحوص.

رفعت عينين تبتهلان بالشكر، قالت بالصوت العميق الذي فتنه: كيف أشكرك؟

قال محاولاً إزالة تحفظها وخجلها: ببنجان قهوة.

ابتسمت كاشفة مجدداً عن تشوه فظيع في أسنان فكيها. سألها عن أسمها، قالت أمينة، وأخبرته قصة حياتها الموجزة مبتدئة بعمرها، أكملت الرابعة والعشرين منذ شهرين، حاصلة على الشهادة الثانوية، عملت أربع سنوات في مصبغة ثم سنتين بائعة في محل للألبسة المستعملة، وأخيراً تعمل موظفة عند المخلص الجمركي تكنس وتمسح، وتحضر القهوة والشاي للضيوف.

قال لنفسه: روحها حلوة هذه الفتاة، أحس أنها ترشيه بلطفها وبنجان قهوة ليدخل والدها إلى المشفى، ودّ لو يطلب إليها أن تسترخي في جلستها وبأن تسند ظهرها إلى المقعد خطر له لو ييوح لها بأنه مفلس ويائس، وبأنه من

السخف أن تحس بمهابته لمجرد أن لقبه طيب، تآزر انكساره مع إنكسارها، «كلانا مهزومان يأمنية» فلا شعري بالضالة تجاهي. قامت تأخذ فنجان القهوة الذي رشفه وتقول له مطرقة: صحة. قال لها: غداً صباحاً يمكن لوالدك أن يقصدني في عيادتي، وأنا سأصعبه إلى المشفى.

عصر اليوم ذاته لمح آمنة تمسح مكتب المخلص الجمركي، كانت تعصر المسحة وهي محنية فوق سطل المسح، أمكنه تمييز فقراتها الظهرية الناتئة من الكنزة الحمراء بالتأكيد هذه الفتاة ضحية سوء تغذية مديد، تمنى لو تدخل عيادته ليشبع فضوله في معرفة ظروف حياتها، ليجد لنفسه عزاءً جديداً، وهاهي تطل عليه بقامتها الشبحية بعد ساعة من جلوسه في كرسي تحنيطه الأبدي، تقول بصوتها الحنون: أترغب بفنجان قهوة. قال: بفنجانين لو سمحت، ستشرين القهوة معي تضرجت سمرة وجهها بحمرة داكنة، ابتسمت دون أن تكشف عن أسنانها هذه المرة، قالت: حاضر، سأرجع بعد قليل تأمل حذاؤها المشوه عندما استدارت منصرفه، حذاء من النايلون الرخيص وقد مال كعباه.

ساعدتها القهوة على التحرر قليلاً من حرجها، أخبرته أن والدها سيقصده صباح الغد، وبأنه ممتن منه للغاية، وجد نفسه يسألها: هل أنت راضية عن حياتك يأمنية؟

باغتها السؤال، بدا لها غامضاً ومفاجئاً، قالت وهي تضع فنجان القهوة في صحنه: الحمد لله...

- هذا يعني بأنك راضية.

كررت: الحمد لله.

- ماذا تقصدين بالحمد لله؟

قالت: طالما أنا أعمل، فهذا جيد.

- وكم تقضين؟

- ألف وخمسة ليرة.

- أهو أعلى راتب قبضته؟

- أجل، في المصبغة كنت أفنى من التعب، أعمل من الساعة صباحاً، حتى الرابعة بعد الظهر بـ ٨٠٠ ليرة فقط، في محل البالا، كنت أعمل من الصباح حتى المساء بألف ومئتي ليرة. وكنت لأهدأ عن الحركة، إعطاء الثياب للزبائن، ثم تعليقها مجدداً هنا العمل مريح، أحضر في التاسعة صباحاً حتى الواحدة، وبعد الظهر من الرابعة حتى الساعة...
- وهل يكفيك ألف وخمسة ليرة؟.

ابتسمت: أفضل من لاشيء.

هل أرادت أن تغير الحديث، حين عادت تحدّثه عن سعادة والدها حين أخبرته أنها أمنت له طريقة للدخول المشفى عن طريق طبيب إنساني و...
قاطعها: أرجوك يا أمينة، كفي عن شكري، من حق والدك الدخول إلى هذا المشفى فهو لكل الناس.

قالت: لقد ذهب إليه مراراً، فلم يستفد شيئاً، قالوا له لانستطيع أن نصوّر لك ظهرك لعدم توفر أفلام الأشعة. كل شيء يحتاج لواسطة يادكتور.
وافقها للحال: معك حق، سألها: كم عدد أخوتك؟.

قالت: سبعة، أربع بنات، وثلاث صبيان.

- وأنت ماترتيبك؟

- أنا الكبرى.

- والبقية هل يعملون؟

- اختي روضة التي تصغرني بعام حصلت على عملي في محل البالا،

وأخي سمير ترك المدرسة بعد حصوله على الشهادة الابتدائية ويعمل معاوناً لسائق باص. والبقية في المدرسة.

- ومن يعيلكم بعد أن ترك والدك العمل.

- أنا وأختي روضة وأخي سمير.

- إذا أنتم تعيشون على دخل حوالي ٣٥٠٠ ليرة في الشهر.

أطرقت، علامة الموافقة.

سأل: أيكفي هذا لشراء خبز.

قالت وقد هجم الحزن على صوتها المخملي: أُمي تعمل أحياناً خادمة في بيوت الأثرياء.

- وكم مرة في الأسبوع تعمل؟

- ثلاث مرات... كل عائلة تعطيها مثني ليرة.. لكن.

سكتت، سألتها: لكن ماذا؟. ترددت في القول، ألح عليها بنظرته، قالت: في الواقع أصبحت تشكو هي الأخرى من آلام شديدة في ظهرها. لام نفسه كونه فتق كل جروحها الهاجعة في روحها. أتى دورها في إحراجه حين سألته: أليس عندك ممرضة؟ قال بلهجة مقتضبة لا تشجع على متابعة الحوار: في الحقيقة أنا أؤثر الوحدة.

اكفهر وجهه، ما عاد هو وهي طبيب وموظفة يتحادثان ويرشfan القهوة، خرجت آلامه وخيباته من عقالها: لتعانق أو تصارع آلامها وخيباتها، شكرها على القهوة بطريقة ختامية مبطنة برغبته بفض الحوار، فهمت للحال برغبته بانصرافها قامت تحمل الفنجانيين لتتركه دون كلمة أو حتى نظرة، يبدو أنها شعرت أن سؤالها أزعجه، وجد نفسه غارقاً في تخيل حياة أسرة مؤلفة من تسعة أشخاص بمجرد ثلاثة آلاف ليرة أو أربعة آلاف على أبعد تقدير، تساءل: أتراها أمينة تجوع لذلك هي نحيلة هكذا!؟.

صباح اليوم التالي دخلت عيادته تحمل فنجان القهوة كعادتها لحقها بعد دقائق رجل يعرج من آلام ظهره، قدمته له بأنه والدها، أحسه يشبه فزاعات الطيور، بالجماكيت الباهتة الترايية، التي كانت على الأغلب رمادية أو بنية، ربما خضراء، بدون أزرار والفضفاضة، والكنزة التي اتخذت شكل اعوجاج ظهره، يبدو أنه ينام بها، أما حذاءه فيبدو أنه الوحيد الذي حظي بقسط من العناية لأنه مسح وملتمع جيداً، رغم قدمه. بدا لمعانه المبالغ به دليلاً على قدمه، دعاه الدكتور كريم للجلوس، وطلب منه أن يعطيه فكرة موجزة عن آلامه، متى بدأت، وطبيعتها ومتى تشتد؟! أدهشه أنه ابتداء حديثه عن طفولته في غزة، تدخلت أمينة قائلة: نحن فلسطينيون. تركته يسترسل في حديث الشجن، وهو يخبر الطبيب كيف طرد من غزة مع أهله وجيرانه، ورحلوا في شاحنات مع الحيوانات والأغراض، وكيف عاش لسنوات في مخيمات قرية من دمشق، ثم كيف عمل ماسح أحذية عدة سنوات، وكان المعيل الوحيد لأسرته لأنه أكبر إخوته، ولأن والده توفي بسكتة قلبية يوم الغزو الاسرائيلي لغزة، بدا الضيق على أمينة تدخلت مجدداً في الحديث مذكرة والدها أن الطبيب طلب منه فكرة موجزة عن آلامه وليس عن حياته. رمقها والدها بقسوة وعتاب وقال: هذه هي آلامه.

شجعه الطبيب على الاسترسال بهذا الشجن الحزين والجميل قائلاً: خذ راحتك، تكلم بكل ماتريد.

قال: تزوجت من ابنة عمي وأنا في العشرين، عملت، عتالاً وماسح أحذية في آن، تمكنت من شراء غرفة، وقمت بنفسي ببناء غرفة ثانية بجوارها، ثم عملت بائع خضار متنقل، وبعدها توظفت في المرفأ، إنما وظيفة غير ثابتة. والآن لأعمل شيئاً، آلامه لاتسمح لي بالحركة. إنها لاتطاق.

دهش الدكتور كريم حين عرف أن عمر والد أمينة خمسة وأربعون عاماً، تساءل بينه وبين نفسه: ياإلهي كيف اهترأ هذا الرجل؟ كيف تغضن وجهه هكذا وحفرته الأخاديد وتساقطت أغلب أسنانه؟ كم يبدو مستهلكاً.

حين رافق الدكتور كريم إلى المشفى، أصر أن يدفع أجره التكمي، مخرجاً من بطانة جيوبه خمساً وعشرين ليرة مهترئة ناولها للسائق بحرص، كأنه يعطي ثروته كاملة، منعه الدكتور كريم بقسوة، كان واضحاً أنه لا يملك سوى ورقة النقود هذه، واستطاع أن يتخيل أن أمينة أعطته إياها هذا الصباح، وكيف حسبا معاً وبصمت أنه سيدفع عشرين ليرة أجره التكمي وسيبقى معه خمس ليرات، ليرجع إلى البيت بالباص. أحس الدكتور كريم بسعادته وهو يوفر له ثمن بضعة أرغفة من الخبز للأفواه الجائعة التي تنتظر الرجل المريض.

قضى في المشفى حوالي ساعتين إجريت له كل الفحوص الموجودة، والصور الشعاعية بوساطة الدكتور كريم، تبين أنه مصاب بفتق نواة لبية ويحتاج لعمل جراحي، عاد إلى بيته ممتناً من الطبيب الإنساني، بعد أن أخبره الأخير أنه سيخبره بما يتوجب عمله عن طريق أمينة.

وجد الدكتور كريم نفسه متحمساً لخدمة الرجل البائس، قصد زميله طبيباً الجراحة العصبية ليتناقشا في حالة المريض، أحس أن جراح العصبية يؤد لو يتملص من العملية لكن الدكتور كريم ألح عليه حتى انتزع منه موعداً قريباً للعملية، وغمز بأن أهل المريض سيزورونه في عيادته بعد العملية ليشكروه!.

حين أخبرت أمينة والدها عن موعد العمل الجراحي، غمرته سعادة الامتنان اللامحدودة، تغير اتجاه غضون وجهه، منذ زمن طويل طويل لم يرسم وجهه ابتسامة، هل سيقدر له أن يرتاح من آلامه، ودون أن يدفع تكاليف العملية؟! أية رحمة إلهية غمرته؟ هل يمكن أن ينسى فضل الدكتور كريم؟ أه كيف عساه يرد جميله؟ لا يستطيع أن يقدم له شيئاً سوى دعائه له... جال بصره في الغرفتين الحقيرتين، ماذا يملك الشريد الأمي المريض، إنه عاجز حتى عن تأمين الخبز لأولاده فهل يفكر بأن يقدم هدية للطبيب؟ لو يوجد شيء يمكن أن يهدى في هذا البيت؟ فرشاة عتيقة وبساط مهترئ، بضعة صحون وكؤوس... ستارة ممزقة... و.. فاجأته السلحفاة تعبر ببطء من الباب الخارجي،

لمعت عيناه كأنه افكرها... كيف غابت عن باله وهي تعيش وسطهم منذ ثلاثة أعوام.. ترى أيصح أن يهدي الطبيب سلحفاة؟! ألا يحب السلاحف؟! أتمنى لو يكون هناك تقليد محترم هو تبادل السلاحف كهدايا بين البشر...

حين أخبرت أمينة الدكتور كريم كيف استشارها والدها بتقديم هدية السلحفاة إليه، ضحك، لكنه شعر أن قلبه يرشح بالدموع، إنه يفهم تماماً تلك المشاعر الإنسانية الرائعة... وجد نفسه يسأل أمينة دون حرج وبود صادق، كأنه يعرفها منذ سنوات: أمينة يجب أن تصلحي أسنانك.

أطرقت خجلة: أسناني! إنها هكذا منذ طفولتي.

- ألم تستشيرى أبداً طبيب أسنان؟

- أبداً

أدهشه جوابها، عجباً كيف تهمل شابة تشوّه أسنانها؟ ألحّ عليها الدكتور كريم لتستشير طبيب أسنان بحالتها، اصطحبها معه إلى مشفى الرخام، وأجرى لها صورة بانورامية لفكيها، وتبين أن أسنان آمنة الظاهرة هي أسنانها اللبنية، وبأن أسنانها الدائمة مطمورة في اللثة وتحتاج لجراحة لإخراجها، كانت هذه الجراحة لا تجري في مشفى الرخام، عدا عن التكاليف الباهظة للعمل الجراحي في المشافي الخاصة، علّقت أمينة: لوبعت نفسي وبعث أخوتي، فلن يكفي تكاليف العملية، آه يادكتور كريم لماذا يجب أن تكون ابتسامتي أجمل، وأنا ألث ليل نهار وراء رغيف الخبز!!

أحسّ كريم أنه معني بهذه الأسرة التي تواجه الحياة بصبر وود لامحدودين، لكن الامتنان الهائل الذي يشعرونه تجاهه أربكه، واجهتهم مشكلة جديدة هي تأمين الأدوية اللازمة أثناء وبعد العمل الجراحي، كان المشفى نظيفاً تماماً من الدواء طلبت أمينة راتبها سلفاً عن شهرين، تبرّع المخلص الجمركي بألف ليرة لوالدها، بلغ ثمن الدواء ألف وخمسمئة ليرة هو راتب أمينة عن شهر!

صباح يوم العملية وقفت أمينة وأختها ووالدتها متلاصقات في ردهة الانتظار كن يصلين بصمت أن تعود الصحة لذلك الشاب الذي جعله الفقر عجوزاً قبل الأوان. لحسن الحظ كانت العملية ناجحة، أوصاه الطبيب وجوب الراحة التامة أربعين يوماً، وألزمه بالغذاء المفيد كعصير الفاكهة، واللحوم الخالية من الدهن، والأسماك، شهقت الأم وابنتاها وقلن بألية بعد أن سمعن كلام الطبيب: ماذا الأسماك؟! أطرقن خجلات بعد أن انفلتت هذه الكلمة من شفاهن... نحن لانعرف طعم الأسماك يادكتور... نعيش في مدينة ساحلية ولانعرف طعم ثروات البحر... يجب أن يتعلم أحدنا الصيد، لنأكل سمكاً... أقصى رفاهية عاشتها الأسرة، بعد عملية الأب، اضطرت الأم أن تذبح إحدى دجاجاتها الأربع وتطبخها مع الرز، لكن الأب الذي ضاقت معدته بسبب الجوع المديد لم يتمكن من تناول سوى لقمات صغيرة، أعادت الأم معظم الدجاجة المطبوخة إلى البيت، حصل مايشبه الجزرة، والأيدي تتدافع وتتزاحم لتنف اللحم ومضغه، ياللطعم الملوكي صرخ سمير وهو يدس قطعة من فخذ الدجاجة في فمه. أما أمينة التي بقيت عند والدها طوال يوم العملية فقد تناولت بشهية كبيرة المرق الأحمر الزنخ مع الرز، وبقايا قطع اللحم التي قدّمت غداء لوالدها، وفرحت بالتفاحة الصغيرة المقدمة كفاكهة بعد الغداء خبأتها في حقيبتها، تمت لو تطول إقامة والدها في المشفى عساها تشبع من الطعام، خلال الأيام السبعة التي قضتها في المشفى مع والدها، اهتدت سريعاً إلى تخزين البيض المسلوق والخبز، والزيتون والفاكهة في كيس، وكانت كل يوم مساءً تحمل الكيس إلى البيت حيث يهجم اخوتها لالتهام محتوياته...

بعد خروج الوالد من المشفى، فاجأت أمينة الدكتور كريم بصرة وضعتها على مكتبه قائلة بخجل هذه لك... شملها بنظرة عتاب قاسية قال بجفاء: لأحب اسلوب التعامل هذا يآمنة... لا يوجد رسميات بيننا. تورّد خذاها تستعذب تعبير (لا يوجد رسميات بيننا)، ردت بخجل: لا يصح أن تعتبر مانقدمه لك هدية، سنظل مدينين لك مدى الحياة، لولاك لما أجرى والدي

العملية، ولكن هذه.. تلكأت كانت تبحث عن الكلمة الأكثر مناسبة، قال لها لينقذها من الكلام: هيا حضري القهوة...

فتح الصرة الملفوفة بأوراق الجرائد، كان أكثر من عشرين قرص خبز بالفليفلة الحمراء والسمسسم منضدة بعناية بعضها فوق بعض، ذاب قلبه من الرقة والحنان، مأروع هؤلاء البشر، لكم يحبهم، لكم تمنى وقتها لو يكون ثرياً ليساعدهم، لينتشلهم انتشالاً كأنهم غرقى في بحر الفقر... فجأة داهمه حزن قاسٍ إذ تذكر أنه غالباً ما يطلب مالاً من مرضى في مثل حال والد آمنة، وكيف يشعر بتملل هؤلاء المساكين لكنهم يضطرون للاستدانة ربما، ولحرمان أطفالهم من اللقمة ليؤمنوا الأتاوة للطبيب... عذره مقبول، الراتب لا يكفي إطلاقاً، راتب الاحتقار كما يسميه لكن، ماذنب هؤلاء المساكين... ماذنبي أنا ماذنبي أنا... تمنى لو يفرّ من عيادته، من جلده، من الدنيا، مأقسى حزنه الآن إنه حزن اليأس والندم مجتمعين، ترى هل من مفرٍ من هذا السلوك؟ ألم يدفعاً دفعاً للجوء إلى هذه الأساليب؟ فجأة خياله بصورة، صورته يدفن وجهه في شعر آمنة الأسود الطويل، بعد أن يفك يديه ضفيرتها المغناج...

دخلت آمنة تحمل صينية القهوة، لاحظ أنها طلت أظافرها بطلاء وردي، وكحلت عينيها على غير عاداتها، وبأنها صارت تتضرج بالحمرة حين تتلاقى عيونهما، تساءل بفرور الذكر: أيعقل أن تحلم بي فتاة مثلها، فقيرة وضامرة، وذات أسنان مشوهة، سرعان ما استسخف الفكرة إنها تملك قلباً من ذهب، لم يتردد في إطلاق تلك العبارة عليها. وجد نفسه يقارنها بفريال، الشهوانية، التي تفهم الحياة على أنها أخذ واستثمار تحب المال لذلك تبقى مع زوجها،

تريد إمتاع نفسها فتختار عشاقاً شباباً، إنها تستهلك البشر كما تستهلك الطعام، وأدوات التجميل والأحذية، لا يمكنها أبداً أن تحضر أقراص العجين بالسمسم والفليفلة، وأن تعجنها بحب وحنان كما فعلت أمينة، طوال معرفته بفريال، لم تصنع له شيئاً بيديها، تقدم له هدايا جاهزة وقيمة تشتريها من

السوق، كلما بالغت بهداياها يفهم أنها ترغب فيه أكثر رجل فحل قوي وعار في سريرها، يشبع شهواتها التي تعيش لأجلها. الجنس هو النعمة العظمى التي تفتش عنها، في قاموسها لا وجود لكلمات مثل رقة المشاعر والدفء الإنساني، والتواصل بين روحيين، قبل التواصل بين جسدين، إنها تفهم بمتع الحواس فقط. أما أمينة فشفافة ورقيقة، معطاء، أصبحت ترتب عيادة الدكتور، تمسح الغبار عن الأثاث، تمسحها، وتكنسها، وترفض أن تأخذ أية نقود... ما كان يضايقه إحساس أمينة بالفروق الشاسعة بينها وبينه، إنها لاتستطيع أن تفهم كيف خذله زمانه، تعتقد أنه الطبيب الاختصاصي المحاط بهالة، لو تعرف الهالة المزيفة والسخيفة هذه، قرر أن يزور أمينة في البيت، أن يياغتهم بالزيارة، كي لا يحضروا شيئاً خاصاً، ذات مساء بعد أن أنهت عملها لحقها دون أن تدري، رآها كيف تنحشر في الباص وتنزل محاولة ترتيب ثيابها الفضفاضة المشتورة بسبب الزحام، ثم تسير في طريق ضيقة ترايبة حتى تصل إلى باب ضيق تلج فيه... قرع الباب بعد دقائق من دخولها، فتحت اختها الباب صدمه المنظر رغم أن خياله قدّم له عشرات الاحتمالات لصور بؤسهم. فوجئ أن الغرفة غير مدهونة ولا مبلطة، ثمة بساط عتيق على الأرض، وديوان وحيد تخلعت أرجله فوضع بدلاً منها علب سمن معدنية فارغة كبديل من الأرجل...

كان الأولاد متحلقين في الغرفة المجاورة حول طبق يأكلون الزيتون ويرشفون الشاي ويدسون لقمأ كبيرة من الخبز في افواههم... ارتبكت أمينة بشدة، وأخذت تدور في الغرفة كأنها تبحث عن شيء، أحس بخجلها العظيم وبرغبتها في نسف الغرفة بما فيها أمكنه أن يلح في الغرفة المجاورة فرشاً بالية مرصوفة فوق بعضها البعض، وخزانة معدنية وحيدة ملتصقة بالجدار، وقد افترشت الأرض بعيداً قليلاً عن طبق الطعام أحذية رخيصة من النايلون، بدت في فوضاها مضحكة ومبكية في آن، حدّث نفسه بأنه لو كان رساماً، وطلب إليه تصوير حياة تلك الأسرة الفقيرة، فسيكتفي برسم الأحذية فقط كما هي عليه تماماً في تلك اللقطة التي شدته.

كان الأب يرقد في فراش عتيق، يغط في النوم، ما كان يستطيع المشي والحركة بناءً على نصائح الطبيب، ندم أشد الندم كونه لم يحضر فاكهة أو حلوى للأولاد... تقدمت منه سلحفاة صغيرة تقضم ورقة خس، أمكنه أن يتخيل أنها اللعبة الوحيدة للأطفال.. إنها اللعبة الوحيدة التي يستطيعون اقتناءها.

استأذنته أمينة لتعد القهوة، جلس وحيداً يرمق الأطفال في الغرفة الثانية، ويرمقونه بدورهم، متبادلين ابتسامات وضحكات مكتومة لم يعرف سببها، بدا له الفقر، كائناً رهيباً لا يطاق، عجب من منطق الدنيا، الفقير والغني!! بدا له هذان القطبان مرفوضين بشدة ولا منطقيين... تساءل بسذاجة متى ستزول الفروق بين البشر؟! ومن جديد بدت له معاناته سخيفة مقارنة بهؤلاء المساكين، فوجئ بصوت الأب ينتشله من أفكاره: صوت متعب ومبتهج في آن: من، الدكتور كريم عندنا... قام بشكل آلي عن الأريكة اتجه حيث الصوت، وجده منحشراً في الزاوية فوق فراش عتيق، همّ الرجل بالتلملم ليحيه، لكنه أمره بالبقاء مسطحاً، بحث حوله عن كرسي يجلس عليه، فلم يجد، صرخ الأب: احضروا كرسيّاً للدكتور... هرولت الأم تسلم على الطبيب حافية، وقد جرت وراءها كرسيّاً، ولم تنفك تردد، لاتؤاخذنا يادكتور، ودّ أن يقول لها: على أي شيء سأؤوّاخذك جلس وسط الغرفة على كرسي، أحس أنه مسؤول يطل من على رجل مريض يفترش الأرض وأطفال مساكين يتحلّقون حول رغيف الخبز وكأس الشاي... أحس أنهم يطلبون منه حلاً عادلاً لحياتهم، ولجوعهم، بدا الكرسي يزداد علواً، والرجل وأولاده يهبطون أكثر فأكثر ويصفرون... لماذا تتسع المسافة هكذا بينه وبين هؤلاء المساكين؟!.. قدّمت له أمينة القهوة وهي تحاذر أن تلتقي عيونهما، بدت متضايقة وخجلة لدرجة حدس أنها لن تنام طوال الليل وهي تقلب احتمالات انطباعاته من مشاهدته لعري فقرهم.

في طريق العودة احتلت أمينة تفكيره، مآرقها من إنسانة، تقطف له زهوراً من الحدائق تزين بها عيادته، تقفز الفرحة من عينيها حين يقصده مريض،

تحضر له القهوة، لكأنه يعطيها شرفاً لاتستحقه، تحدثه عن أحلامها بأنها ستعيد تقديم الشهادة الثانوية، لتحقيق حلمها الوحيد مذ كانت في العاشرة من عمرها بالتسجيل في كلية الصحافة، وكيف اكتشف ولعها بالقراءة كان يسمح لها أن تستعير كتبه واحداً واحداً لقراءتها، وأدهشته بقدرتها على الفهم العميق لكل ماتقرأ... ماعذب هذا الدفء الذي تعطيه إياه أمينة، أية امرأة قبلها لم تمنحه ذلك الدفء الرقيق والشفيف، وجد نفسه يتنبه لمسحة جمالها الخجول والمحجوب كطباعها، ماعذب لمعان عينيها السوداوين، والانسياب الجميل لجسدها النحيل، حتى أسنانها المشوهة صارت تبدو له جذابة... شعرها الذي صار يحلم أن يدفن وجهه فيه.

يوم مشمس، لطيف وحزين ولايحمل أملاً، ملّ من مشاعر الإحباط ذاتها، ذهنه صفحة بيضاء، لاتعبه فكرة ولارؤية، صمت شامل في غرفة النفايات أو المكتبة طبقة الغبار تزداد سماكة حتى تبدو كطلاء رمادي فوق الطاولة العتيقة، والكراسي المتعربشة فوقها بفوضى، يحلو له تأمل الشبك المعدني الصدئ والمتآكل والمتمزق، إنه يشبه شيئاً مامن حياته أو داخله، اليوم اصطاد مريضاً، كان قد أجرى له خياطة اسعافية منذ أيام حين كان مناوباً، راجعه في المشفى، فطلب إليه هامساً أن يمر به بعد الظهر في عيادته. يعي تماماً كيف أنه مضطر لهذا السلوك، لأنه لايتحمل أن تظل عيادته عذراء، لاتطؤها رجل مريض. تذكر وهو جالس في المكتبة لايشعر أنه حي ولاميت، كيف قصده لجنة المالية منذ أيام لتقدّر دخله.. كانوا ثلاثة أشخاص. ابتدره أحدهم بالحديث: كم مريض تعالين في اليوم؟ ردّ بقرف: لأحد. قال الموظف بشفقة: ياإلهي كم صار مزي وضع الأطباء. قال الدكتور كريم بغضب مكتوم: أتمنى لو أغلق العيادة أو أحولها لشيء آخر.

قال الموظف: والله أنا متعاطف معك، ومع أمثالك، لكن الأوامر تأتينا من فوق بوجوب زيادة الضرائب. تذكر بعد خروجهم كيف صبّ جام غضبه على

الموسوعة الانكليزية التي ترمقه بحزن من زاويتها في المكتبة قال لها بصوت مرتفع: طظ فيك... هل نحن متعلمون حقاً؟ وفي مشفى الفوضى والقذارة والقبح، حيث ينحشر الأطباء والمرضات والمرضى كيفما اتفق. كيف سينمو العلم؟ تذكر الحديث العابر بين زميلين من زملائه هذا الصباح، استوقفته جملة تفوه بها أحدهم: صار سعر رأس طالبة التمريض ٢٥ ألف ليرة.

سأل الآخر: ماذا تعني؟ رد الطبيب الأول: يا أخي، لاتقبل طالبة في مدرسة التمريض إن لم تدفع لهم ٢٥ ألف ليرة. يستحضر صوراً عديدة لطالبات التمريض إلى بطالة وحدته في مكتبة مشفى الرخام، كيف يتدفق حضورهن في المشفى كتلاً كتلاً، في ثيابهن المخططة بالأبيض والأزرق، والمريلة البيضاء القصيرة التي يلبسها فوق ملابسهن المخططة، تدخل عشرات الطالبات إلى غرفة العمليات ليحضرن عملية، لا يفهمني شيئاً. ولا يتمكن من الرؤية حتى، فقط يفسد تعقيم الغرف المشكوك بتعقيمها أصلاً... تذكر كم مرة علا صراخ الجراح، توجد ذبابة أو صرصار في غرفة العمليات، والنكات التي تشكل للحال: هذه ذبابة معقمة.. أو سنخدر للحال هذا الصرصار... تذكر حادثة غير بعيدة ومدهشة، لاتزال تحتفظ بألق دهشتها في ذهنه حتى الآن، يوم أخبره طبيب النسائية، كيف أنه وهو يحاول انتشال الجنين من بطن أمه المفتوح، تساقط مطر الغبار القذر فوق الجرح والجنين اعتقد للوهلة الأولى أن قرص الإنارة سيسقط فوقه وفوق المريضة المسكينة، لكنه فوجئ بطالبة تمريض أضناها الممل، فأمسكت فوطة كبيرة، وأخذت تمسح ظهر قرص الإنارة من الغبار المتراكم منذ سنوات، بعد أن عربشت عدة درجات على السلم المعدني الصغير في غرفة العمليات؟!!

استحضر حوارهم مع إحدى طالبات التمريض التي لفتت نظره بذكائها، وبمهارتها وهي تساعد في العملية، عرف من أسئلته المتلاحقة لها بأنها حاصلة على الشهادة الثانوية بمجموع يخولها دخول أي فرع ترغبه، وعندما سألها: لماذا لم تختاري الطب أو الصيدلة؟ قالت: بأنها اختارت مدرسة التمريض بدل كلية

الطب، لأنها إذا تسجلت في كلية الطب ستحتاج لنفقات كثيرة كتب ومراجع، عليها أن تؤمن عيادة، وتختار اختصاصاً معيناً، أي ستنتظر عشر سنوات على الأقل لتبدأ بممارسة المهنة، وستضطر لدفع ضرائب عالية للمالية، وأقساطاً للبنك، إضافة إلى استحالة التوظيف في المشفى... أما مدرسة التمريض فتؤمن لها فوراً السكن والطعام، والوظيفة مضمونة بعد سنوات الدراسة لم يتمالك من سؤالها: لكن ألا تشعرين بالإحباط وأنت تضطرين لدخول مدرسة التمريض بدل فروع الجامعة الكثيرة و... قاطعته بلهجة يائسة: آه كله مثل بعضه، المهم أن نعيش!

تلملم في جلسته ماعاد قادراً على البقاء، أيفر؟! هنا تسكع، وفي الخارج تسكع لكن التسكع في الخارج أخف وطأة من التسكع داخل المشفى، فاجأه وجهه المرتسم على زجاج الطاولة، ابتسم لصورته ففكر أنه لا يزال شاباً، أعطاه هذا الإحساس شعوراً بالانتعاش سألته صورته هازئة: كم سيكون معك من المال حين ستغدو طبيباً كهلاً؟!

ارتجف من السؤال، كان يعرف أن الجواب لاشيء... لن أملك سوى تقاعدي من نقابة الأطباء، ردت الصورة ساخرة: ياللتقاعد السخيف، هل سيكفي ثمن خبزك اليومي؟...

أحس بالفكرة تروح على كتفيه بثقل فظيع، تساءل بكل الألم المرشح في أنسجته: أيعقل أن أصل إلى خريف عمري وأنا مفلس تماماً، ولأملك ذخيرة ضد المرض والشيخوخة تساءل بسذاجة: هل الحياة جميلة حقاً؟ عذبتة ذاكرته وهي تستحضر أمامه صور رفاقه الذين سافروا للاختصاص في أميركا، ياللهوة الفظيعة بينه وبينهم، كالهوة بين جهنم والجنة التقى بأحدهم الصيف الماضي، كان محتاراً كيف سيستثمر أمواله، استشاره: يقولون لي اشتر مخازن وبيوتاً، وبعها بعد فترة مارأيك؟ رد بثقة زائفة وهو يخفي خيبته التي ارتشحت في ملامحه: معقول. كان صديقه المتأمرك يتكلم بقوة الدولار والراتب الضخم، وهو يتكلم بنحيب الإفلاس! صار يتهرب منه خاصة حين علم أن معاينة

الطبيب في اميركا لا تقل عن مئتي دولار، أما هنا، في مشفى الرخام فراتب
الطبيب عن الشهر يعادل حوالي مئة دولار!!!

فيما بعد دفعته الغيرة من صديقه إلى تمنيات لم يكن يتوقعها، كأن يموت
الصديق المحظوظ بسكته قلبية أو يتعرض لحادث سيارة، كانت تلك الخيالات
تخفف غيرته وآلامه الناجمة عن المقارنة بين وضعه ووضع صديقه، وحين سمع
أن زوجة صديقه تعرضت لحادث سيارة أدى إلى موت الجنين في بطنها، وبأن
حالتها خطيرة، أثلج صدره بسعادة نهمة... لكنه بعد أيام وجد دموعه تنسكب
بحرقة على وجنتيه، دموع مباغته لم يعرف لها سبباً، وحين غاص في داخله
بحثاً عن الأسباب أتاه صوت واهٍ وحزين، بأنه حزين ومتألم كيف تشوهت
روحه وصارت حاقدة وغيورة، وبأنه أساساً لا يتمتع بهذه الصفات أبداً... قال
وهو يمسح دموعه: إن الإفلاس المديد شوّه روحه وغرّبها عن ذاتها.

كان يعرف واعياً، أن حياته كانت لتقلب رأساً على عقب لو سافر إلى
أميركا، كل أصدقائه وفقوا هناك، صحيح أنهم اضطروا للعمل في البداية في
محطات بنزين، وفي مطاعم ونواد ليلية ليؤمنوا معيشتهم، لكن أبواب المجد
انفتحت لهم فيما بعد، رواتب خيالية، امتيازات هائلة، مؤتمرات علمية، والأهم
من كل ذلك أنهم كانوا يتابعون العلم، ويقدمون فحوصاً دورية ليحافظوا على
معلوماتهم ويطوروها... أما هنا حين يضطر الطبيب للهاث وراء العلف اليومي،
فأي مستقبل طبي يطمح إليه الأطباء، والناس!؟. انتفض من مكانه هارباً من
فوضى الأفكار والذكريات أين عساه يذهب، قرر أن يقصد مقهى الرصيف
قرب المشفى، سيرشف الشاي ويحتال على الوقت، محاولاً اصطياده وتمريه
بسرعة حتى تحين ساعة التوقيع ظهراً، ليعود إلى بيته مستمتعاً باللحظة الأكثر
حيوية في نهاره، في حياته كلها، لحظة تناوله الغذاء مع أمه.

تصادق مع صاحب المقهى، شاب لطيف، تهمة نظافة المحل، ويتمتع
بذوق موسيقي عالٍ نما نوع من التواطؤ بينه وبين صاحب المقهى، لكأن الدكتور
كريم يسلمه سره خفياً،

- إياك أن تفشي سري، بالهروب الدائم من المشفى والجلوس في مقهاك، الشاب فهم السر ووعد الطبيب أنه سيغطي هروبه لو اضطر الأمر وسألوه... دخل المقهى، طلب شاياً، وجلس يتسلى بمراقبة الناس، كلهم يدون منهمكين ابتسم بسخرية: بماذا أنتم منهمكون؟! لشد ماتبدو له الحياة عابرة خاصة حين يراقب الناس من زاويته نفسها في مقهى الرصيف... دخل المقهى شاب يبدو حديث النعمة ومستهتراً ومتعجرفاً، أصدرت خطواته قرعة معدنية عالية، يبدو أنه غرس نصلاً معدنياً في كعب حذائه صرخ بسائقه: احضر الزجاجه من السيارة ياغبي...

كانت سيارة فارهة ذهبية اللون تنتظر على الرصيف. أسرع السائق يحضر زجاجه ويسكي من أفخم الأنواع، ويضعها على الطاولة أمام الشاب المتفطرس تساءل الدكتور كريم: أيشرب الويسكي من الصباح؟!

تقدم صاحب المقهى نحو الشاب وانحنى أمام النفوذ والسلطة التي يمثلها، قال بلهجة الطاعة: صباح الخير، صباح الورد، بماذا تأمر حضرتك؟! أمره بنزق أن يملأ الطاولة حالاً بكل أنواع المقبلات.

توقف ماسح الأحذية الذي لايتجاوز الثامنة من عمره عند مدخل مقهى الرصيف نادى بصوت واهن: بوياء، بوياء، أنزل الصندوق الثقيل عن ظهره، صرخ الشاب المتفطرس بالطفل، تعال ياولد... قرفص الصغير عند قدمي الشاب، الذي مدّ رجليه بالتتابع لماسح الأحذية، الذي أخذ يلّمع حذاءه بكل القوى الروحية التي يملكها، مدّ له الشاب خمسمئة ليرة قائلاً: خذ، هذه لك... صفق الطفل، لم يجسر أن يمد يده ليتسلمها، كيف يصدق أنهاله، وأن الشاب لن يسخر منه أو يصفعه لو حاول لمسها صرخ الشاب: هيا خذها. امتدت يد نحيلة صغيرة ملوثة بالأسود، ارتعشت وهي تلمس الورقة المالية، أمسكت الأصابع النحيلة بالورقة السحرية، انحنى الطفل ليقبل اليد الممدودة، لكن الشاب ضحك بصوت صفيق، ثم صفق بيديه قائلاً: أين المازوات ياولد؟

هرول باتجاه صاحب المقهى قال: ستكون جاهزة خلال ثوانٍ لم يستطع ماسح الأحذية تقبيل اليد التي باغته بمبلغ لم يحلم به أبداً، انحنى وقبل الحذاء الذي لمعه... ضحك الشاب وقال له: هيا انصرف يا ولد...

زأر الشاب بالنادل الوحيد: أحضر لي هاتفك اللاسلكي.

أسرع النادل يحضر الجهاز، ووضعه على الطاولة قرب وعاء الثلج وزجاجة الويسكي أمسك الشاب جهاز الهاتف بنزق ورسم اصبعه على عجل حركة في الهواء... علا صوته: اسمع مئة ألف ستكون جاهزة خلال نصف ساعة، هل فهمت؟ قل له نصف ساعة ودقيقة لن انتظر، لن يلوم إلا نفسه... مهلاً، قل له لن أقبل سوى بالدولار أفهمت يا حيوان. خبط جهاز الهاتف على الطاولة، هوى قلب صاحب المقهى، أسرع يمد يداً مرتجفة لينقذ الجهاز من البطش. رمق الشاب الدكتور كريم بفضول ساخر، انتشرت السموم في الجو، ما عاد الطبيب قادراً على الاحتمال، أين عساه يذهب، أين عساه يذهب، بدأ المطر ينهمر فجأة وبغزارة، على بعد خطوات مشفى الرخام يعج بالفوضى، لاشيء ينتظره فيها سوى موت مؤكد لمشاعر لاتزال تحارب الهزيمة، تساءل بقلق: ترى هل من الممكن أن أتحوّل لإنسان ميت المشاعر، وجد نفسه يحدث نفسه كصديقة قديمة: عجباً أيعقل أن تحمل هذه الأيام دون مهدئات، أيلام كونه أدمن على حبوب الانقاذ هذه؟! دخلت أمينة عيادة الدكتور كريم تحمل صينية القهوة، اعتادوا على طقوس شرب القهوة مرتين في اليوم، صباحاً قبل أن يذهب الدكتور إلى المشفى، وبعد الظهر، عندما يقصد العيادة، لاحظ الدكتور شحوب أمينة، امتدت يده تضغط جفنها السفلي إلى الأسفل ليفحص ملتحمة عينها مفتشاً عن شحوبها، تلامس جزؤ من باطن يده مع خدها، اضطربت أنفاسها، حين همّ برفع يده، فوجئ بأمينة تمسك راحته بكلتا يديها وتقربها من شفيتها طابعةً عليها أعظم قبلة عشقية عرفتها في حياتها، كان لمعان شديد يشع من بؤبؤ عينيها وحمرة داكنة تتوهج في وجنتيها، كانت شحمتا اذنيها قرمزيتين أحس بطراوة شفيتها، وبالرطوبة الدافئة التي تركتها على ظهر يده، انشده

لجراتها، لدفعها وللأثر المزلزل الذي أحدثته هذه القبلة في روحه، خضته
قشعريرة، وجد نفسه يجذبها بقوة باليد التي لاتزال محتضنة بين يديها، لم
يدركا كيف قامت عن الكرسي وتكومت في حضنه، شب حريق مفاجئ في
جلديهما، ماالذي يكويهما مدياً الحدود بينهما؟ أبعدها لحظة ليغلق باب
العبادة، عاد لاهثاً ليعتصر قوامها الشبحي بين ذراعيه تحسست أصابعه عظامها
وفقراتها، ووركيها، ياإلهي ماأشد نحولها، لكن كم هو مشير هذا النحول؟!
وحين اعتصر رحيق شفيتها أحس أنه يعانق روحها تماماً، وليست شفاهاً من لحم
ودم... أدهشه كم حرّكت فيه هذه الفتاة شهوات روحية - كما سماها - شعر
أنها تطلقه من أسر المادة، وثقل البدن، لتغيب معه في فضاءات من الشفافية
الساحرة، شعر بمتعة استسلامها بين يديه، شعر بدوار حين فك ضفيرتها
واستنشق بعمق رائحة الصنوبر والأعشاب البرية في شعرها...

أخذت أناملها الرقيقة تتحسس بشرته وترسم ملامح وجهه كأنها تلامس
أيقونة... أفهمته بطريقة غامضة ألايتوقف... أن يأخذها إلى جناته التي تحلم
بدخولها منذ زمن طويل... همس بأذنها: أمينة، لأريد أن أسبب لك الألم.. أو
الندم. لم تجب سوى بفيض من القبلات التي زادت حرارة وعمقاً... لكنه رغم
اندماجه السحري معها، ظل متيقظاً ومحذراً نفسه ألاينقاد حتى النهاية. وكأنها
أحست بتحفظه وخشيته عليها، فهمست له: لاتخشى، أنا لست عذراء.

كانت تلك الكلمة، بالطريقة التي لفظتها بها، كافية لجعله ينسف بلحظة
كل روادع العقل وتحذيراته، تحسس عريها الدافء، أحس بأصابعه تحترق وهي
تكتشف النعومة المذهلة لثديها وفخذيها، أخذت أنفاسها تزداد عمقاً وموسيقى
لكأنها تبحر شيئاً فشيئاً في عالم الغيبوبة، كانت قبلاتها تحمل مخزون أشواقها
له... وحين تهاوى فوقها ودموع الحنان تفيض من عينيه، فاجأته تسأله بخجل:
ألزلت تحترمني؟!!

شعر للحال كأن شيئاً بينهما قد فسد، ابتعد فاسحاً لها فرصة مللمة ذاتها
المبعثرة، أخذت تضفر شعرها وهي ترمقه بعينين أشبه بنجمتين، كانت برعماً

أسمر قرمزيًا يشع نوراً ودفناً هكذا ظل يراها، حتى انتهت من ترتيب سرير الفحص وفتحت باب العيادة بحذر... أشعل سيجارة ونفث دخانها بتلذذ قال لها: لولم تلتفطي بجملتك الأخيرة لكان كل ماحصل بيننا رائعاً أشبه بالأحلام؟

سألت بدلال: وماذا فعلت جملتي الأخيرة؟

قال: هبطت بنا إلى عفن الواقع.

ردت باسمه: عفن الواقع، جملة حلوة.

سألها: هل تعتقدين أن الشاب إذا مارس الجنس مع فتاة، فقد احترامه

لها؟

ردت بقناعة: أجل؟ تلكأت، هكذا علمونا.

- من علمك هذا؟.

- أشارت يديها راسمة دائرة قاصدة بها كل شيء، المحيط كله، قالت:

القصص الأفلام، تحذيرات الأهل، الواقع بقصصه... آه، كل شيء....

سألها بلوم واضح: وأنا أعتقدني أنني أنتمي لهؤلاء؟

لم تجب، كانت ترمقه بحب. أصر أن يسمع جوابها: أرجوك، قولي

صراحة هل تعتقدين أن احترامني لك نقص بعد هذا اللقاء البديع.

أطرقت وهي تجيب: في الواقع لأعرف.

قال: خسارة يا أمينة...

رفعت إليه عينين نديتين، قالت بصوت مرتعش: في الحقيقة... اختنقت

الكلمات في حلقها، أخذت دموعها تنسكب بصمت، خيطين من ماء يلتصع

فوق سمرة خديها.

- أمينة مابك... تكلمي

من خلال شهقات حادة، قالت: لأنني لست عذراء، كيف ستحترمني؟!

دفنت وجهها بين راحتها وأخذ بكاء عنيف يخضها، كم كانت تتعذب في تلك اللحظات.

قال لها: عدنا لمسألة الاحترام؟! معلقة احترام الإنسانية بعذريتها؟!

أناه صوتها: آه، كيف لعلقة له، لكأنك لست من هذه الدنيا؟

- تقصدين لست من الشريحة المتعفنة التي تفكر بهذه الطريقة.

- لم يجب... استمر يقول: أنا أحتقر التحدث بهذه المواضيع، اتفهمين،

ثم ماذا يعني إن كنت عذراء أم لا؟!

- قد تظن أنني صاحبة تجارب و...

- وماذا...

- سيئة السمعة...

أحس بغضب من ضعفها ودموعها، سحق سيجارته في المنفضة قائلاً: ارجوك كفى... أنت تفسدين كل شيء. أمرها أن تقوم تغسل وجهها وتعود إلى مكتبها... أذعنت لأمره وغابت تاركة إياه مذهولاً، هل يفرّ إلى الذكريات الطازجة الساحرة التي عاشها منذ لحظات، أم عليه أن يحلّ لغز ندبها لعذريتها؟ لكنه أحس كم أنها مجروحة من كونها ليست عذراء ترى أي سر تخبئه تلك الفتاة البائسة الشبحية!!

تغيبت أمينة في اليوم التالي عن الدوام، افتقدتها الدكتور كريم وحنّ لجلسة القهوة، كان متأكداً أنه سبب غيابها وبأنها مبللة بشعورها بالعار ولاستطيع النظر في عينيه، تردد هل يزورها في البيت، أم أن زيارته قد تثير شكوك الأهل؟ عزم أمره أنها لو تغيبت يوماً آخر فسيخلق عذراً لزيارتها، تمنى

لو كانت علاقته جيدة مع جاره المخلص الجمركي ليسأله عن سبب تغييب أمينة... لكنه لم يستطع يوماً احترام هذا الجار شبه الأمي الذي يلعب بسهولة بالملايين، ويدعي الأمانة ويتبجح بالشرف، والحسنات التي يقوم بها!

لم تأت أمينة في اليوم التالي أيضاً، عصف به الغضب، فكر أنها بالتأكيد تريد أن تقلقه غايتها أن تحزر مكانتها لديه، أثاره غيابها حقاً، لكن فكرة طارئة خطرت بباله أرضته، هي أن يقصد محل الألبسة المستعملة الذي تعمل فيه أختها، وقبل ذهابه إلى مشفى الرخام، مرّ باختها، سألتها عن أمينة فقالت بأنها مريضة: سألتها: مم تشكو. قالت: لأعرف أحياناً تشكو من وجع رأسها وأحياناً في بطنها. سألتها: لماذا لم تقصدني.

قالت: قلنا لها مراراً، دعي الدكتور كريم يفحصك ويكتب لك دواء، لكنها لم ترض. - حسناً قولي لها أن تمر علي بعد الظهر، وإن لم تحضر سأزعج منها.

- حاضر يادكتور.

لم تتأخر أمينة عن تلبية رجائه، وجدها بانتظاره ما أن فتح باب المصعد قاصداً عيادته، رشقها بنظرة عتاب قاسية، سرعان ما ندم عليها عندما لاحظ مدى الذبول والوهن اللذين يهدان جسدها النحيل... داعب جديلتها وهزها في الفراغ قائلاً:

- مابك تبدين كالأشباح...

رفعت إليه عينين جاهدت كي لا يقرأ فيهما هزيمتها وانكسارها... باغتها دموع حارقة أربكتها، حارت كيف تبرر هشاشتها الشديدة...

قال لها بصوتٍ تعمد أن يوحى بالثقة: أمينة أنا أحترمك جداً، وأقدر مزايك وسأقف إلى جانبك دوماً، احكي لي أرجوك ما الذي يضايقك.

لم تجب. استأنف كلامه: لاداعي للهروب مني، أنت ذكية وتعرفين كم أنت غالية وكم أحترمك وأعزك...

ضحكت ضحكة عصبية قصيرة، ابتسمت بحزن، فهم للحال أنها تعني
لكنك لا تحبني.

قال: تكلمي، هل أزعجتك بشيء، هل ندمت على ما حصل بيننا...
هزت رأسها بالنفي قالت وهي تداعب أطراف جديلتها وكأنها تحدث
نفسها: أندم، أنا لم أحلم يوماً بقاء رجل مثلك أنت حلم... كررت جملتها
مرتين، أنت حلم.

مدّ يده ليمسك يدها، شهق: ياه كم يدك باردة... ضحكت: لا يهم.
- أمينة أرجوك اهتمي بنفسك، يجب أن تتغذي جيداً وأن يزداد وزنك
بدت ساهية لاتسمع كلامه... عاد يسألها: ألن تبوحي لي بما يقلقك.
قالت بصوتٍ متشقق: كابوس.

ردد وراءها: كابوس... اتعنين ما حدث بيننا...

- أوه لا، حسناً لن أخفي عنك شيئاً سأقول.

رفعت إليه عينين مصممتين، كمن قرر قول الحقيقة حتى لو كان الإعدام
بانتظاره. ثبتت نظرها على خشب المكتبة الداكن، ناشرة صور ذلك اليوم
فوقها، خرجت الكلمات من حنجرتها مجرّحة مختنقة، قالت: ذات يوم طلب
مني صاحب المصبغة أن أساعده في توضيب الطابق الأعلى من المصبغة، كان
وقت الظهيرة، لم أنتبه أنه تدبر الأمر وصرف العمال، وبقيت وحيدة معه بعد
أن أقفل الباب الخارجي، ترك محرك الغسالات يدور مصدراً ضجة عالية...
سكتت، لم يחדش الصمت الجليل بينهما، استأنفت الكلام، فيما أصابعها
تكاد تمزق أطراف جديلتها من حركات الشد المتوترة: المهم حشرنني في زاوية
...

قال: اغتصبك.

- أجل.

هاهو الانكسار مجسداً أمامه في صورتها، كفت أصابعها عن الحركة، سقطت راحتها في حضنها بوضعية الاستسلام، بدت متحللة من ثقل ذلك الكابوس بعد أن باحت به، لم تشأ أن ترفع عينيها لترى رد فعله، خافت أن تقرأ في العينين اللتين لم تعشق سواهما، شفقة أو احتقاراً أو خيبة، بدت مهمة بمتابعة نقوش تنورتها من اللونين الخمري والأسود، سألتها بصوت حاول أن يكون حيادياً: وماذا فعلت؟

قالت بيروود: لاشيء.

- ألم يخطر لك أن تشكيه لأهلك. - قالت هددته، لكنه قال بأنني تجاوزت سن الرشد، ويستطيع أن يدعي بأنني أغويته وأني كاذبة.

- وهل صدقته؟

- أجل، قال أيضاً أنه سيدعي أنني سرقت من المصبغة عشرة آلاف ليرة.
- بالسفالة.

- عماذا فعلت إذا؟

- تركت العمل عنده.

- هل أثرت بك هذه الحادثة كثيراً...

انتفضت واقفة، نظرت إليه بانكسار سألته: هل تصدقني إذا اعترفت لك؟ قال: بالتأكيد اصدقك.

قالت: بقيت أشهراً أفكر بالانتحار... أتعرف لماذا لم أقدم عليه، شفقة على إخوتي، لأنهم يحتاجون لراتبي.

قال لها وهو يحس كم أصبحت روحها لصيقة به... أمينة أنت رائعة، لكن، كفاك تعدياً لنفسك، حاولي أن تنسي، أنا سأساعدك على النسيان.

شهقت: أنت! أنت أحييت ذكرياتي الأليمة،

- أنا، كيف؟! لا يمحو الشيء سوى نقيضه، قالت روعتك وإنسانيتك
ذكرتني بحقارة الرجل الدنس... الذي مزق روحي، حرق أجمل غرفة في
داخلي، غرفة الطهارة.

- أمينة، الطهارة ليست في الجسد، بل الروح.

- وأنا روحي تمزقت يادكتور، تمزقت بشكل لا يمكن اصلاحها بعد.

- بل يمكن، أنا أساعدك.

تدفقت دموعها: لا، أرجوك، ما حدث بيننا لا يجب أن يتكرر، هناك
علاقات لا يصح أن يتكرر فيها الوصال، لاتسألني لماذا؟ أنا نفسي لأعرف
بعد... لكن أين أنا منك، من علمك وثقافتك وشكلك وسويتك الاجتماعية
...

صرخ: كفى، هذا الكلام كله هراء... أنت فتاة ممتازة، دافئة ورقيقة
وعذبة وذكية، وأنا منشد إليك بكل طاقتي و... - قالت لكنك لاتحبني
ولايمكن أن تحبني، ويستحيل أن ترتبط بي... أنا أعرف إياك أن تظن أنني
متألمة، هذه هي الحقيقة وأنا أحب أن أواجهها... لكن... ارتبكت.. لكن رغم
حبي الشديد لك لأرض.

اختنق صوتها، كم كانت تتعذب، من يجعلنا نبكي بتلك الحرقه، ونبدو
مسهدين مرضى وبائسين هكذا سواء، سواء وحده.. الحب..

غادرت العيادة، ما كان يعرف أنها غادرت حياته أيضاً، اختفت، قرر أن
يمهلها فترة لترتاح، لتهدأ روحها التي عاد الكابوس يفترسها ويعذبها بصوره
لكن غيابها طال، اسبوعاً، ثم اسبوعاً آخر، ما عاد يملك صبراً... قصد المحل
الذي تعمل به اختها سأل عنها... ردت بابتسامة سخرية مبطنه:

- ألم تعرف لقد سافرت إلى الكويت.

أحس بطعنة مباغتة في قلبه...

- ماذا، سافرت إلى الكويت، متى؟ مع من؟ لماذا؟
- ذهبت تعمل خادمة لدى أسرة كانت والدتي تعمل لديهم.
غصّ - تمنت شفّاه خادمة، أمينة تعمل خادمة، لكن أي صوت لم
يخرج من حنجرته!!

فلسفة التسكع

خربش توقيعه علامة وجوده الوحيد في مشفى الرخام، أين عساه يذهب؟ لاشيء ينتظره على الإطلاق في هذا المشفى... بدا له العمل نبياً منبوذاً ماعاد أحد يصدق نبوته.. كان يدس في جيب معطفه رواية «الجميلات النائمات» لكاواباتا، قصد قسم الأمراض السارية الذي دسّت المكتبة فيه، غرفة النفايات كما يحلو له تسميتها، كان الباب مقفلاً، قرعه مرتين، فتحت الموظفة الباب، كانت غارقة في النوم - وقد احمر خدها وانطبعت عليه نقوش الأريكة أسرع توضع نظارتها وتمسد شعرها، تأمل إطار نظارتها المعدني الصديء، وقد تقشّر طلاؤه، تراها لا تملك المال لتجديد إطار النظارة؟ كان كتاب القديس فرنسيس لكزانزاكي فardاً جناحيه عند منتصفه تماماً، عساه يساعد الموظفة المسكينة في تحمّل ست ساعات من التحنيط في هذه الغرفة، جلس على الكرسي الوحيد وأخرج زوادته رواية «الجميلات النائمات» لتساعده على قتل الوقت، طلب ببساطة من الموظفة أن تعاود النوم لو أحببت... مشعراً إياها أن هذا هو الطبيعي كما يراه؟! طاف بذهنه خاطر ظريف ماذا لو خصصوا أسرة للنوم لمن ليس له عمل؟! تخيل أن أكثر من ثلثي الأطباء سيغطون في النوم، وسيتم إيقاظهم عند نهاية الدوام.. لم يكن ذهنه صافياً للقراءة رغم جاذبية الرواية، يبدو أنه لا يريد أن يضيع دقيقة واحدة لتعذيب نفسه، فكر أن أيامه تمر يوماً بعد يوم بلا معنى ولافائدة، يراكم أياماً، انتظاراً لامعنى له لتعاقب الساعات. سأل الموظفة: متى ستنتقلين من هذه الغرفة؟ قالت: والله لأعرف،

حين نقلوا المكتبة إلى قسم الأمراض السارية، قالوا لي لن تبقي هنا أكثر من شهرين، والآن صار لي ستان ونصف هنا!.

عدّلت من جلستها ووضعت في حضانها كتاب القديس فرانسيس إلى يمينها جهاز راديو صغير، تأملها برقة كيف تزين معصمها بسوار رقيق من الذهب، وتجلس محنية تقرأ... نظر في ساعته، لاتزال الحادية عشرة إلا ربعا لاتزال أمامه ساعتان من التحنيط، قلب الاحتمالات الممكنة بذهنه لسحق الزمن يمكنه أن يقصد غرفة السكرتيرة ويجلس على أحد المقاعد مراقبا مهرجان الفوضى لكل شخص قضية أو مشكلة، الكلمة الأدق، وجع، تذكر المشادة التي حصلت منذ أيام بين ابن مريضة في المشفى والسكرتيرة، كان الشاب مهتاجا ويصرخ وهو يهز ورقة بيده

- والله عال، صار سعر كيس الدم ٨٠٠ ليرة، هذا كفر، أمي تحتاج لأربعة أكياس من أين سنحضر المال؟! ترد السكرتيرة بيروود: والله يا أخي، أنا لاعلاقة لي بالموضوع ويقاطعها وقد اشتعل غضبه أكثر بيروودها: كل واحد بقول أنا لاعلاقة لي بالموضوع، بالله عليك من له علاقة، قولي لي من له علاقة؟!!

تنهد السكرتيرة وتنظر للناس حولها مستنجدة: تصورا ياناس كل يوم نفس الأحاديث...

يتدخل الدكتور كريم ليس من باب الفضول، بل لأنه يريد تفجير كل الدراما المحتسبة في المشهد

- خير يا أخي ما المشكلة؟!!

يربحة سؤاله كأنه يفقا له دملا متوترا: تصور يا أخي، صار الدم بالمال، مايجعل عقلك ينفجر، أنني رأيتهم بأم عيني يتلفون خمسين كيس دم في بنك الدم... لماذا يتلفون أكياس الدم، ويبيعونا إياه في آن؟! أليست هذه مهزلة المهازل... ثم - اختنق صوته كأنه يتشظى - أمي مصابة بنزف معوي، تنقيا الدم

كان صنبوراً مفتوحاً في بطنها.. يقولون لي أذهب اشتر لها أكياس الدم... وأنا أنا، يضرب صدره بكلتا يديه بلا رحمة، أنا خرا...

يفوص قلب الدكتور كريم في بحر من الألم الأسود، يصطدم بقلب الشاب في عمق اللهجة السوداء، تحاول القلوب تعزية بعضها، يتبادلاً نظرة مشلولة (الطبيب المهزوم، والشاب المهزوم) يأخذ الشاب الورقة الممدودة له من السكرتيرة يمزقها وينصرف بخطا واسعة وهو يشتم... يغمض كريم عينه لدقائق، يتخيل جثة الأم النازفة، يدعو لها بالراحة في مثاها الأخير... يغيب في أحلام يقظة لا يصحو منها إلا عند الضرورة، تدور كلها حول حلم وحيد، كيف عساه يفرّ من هذا المشفى إلى الأبد؟ كيف سيجد وسيلة للعيش خارجه؟ ليته يتمكن من تحويل العيادة لكان لبيع الفلافل...

ينطلق صوت مطرب صاعد من الراديو الصغير بجوار موظفة المكتبة، مطرب ينهق ويجني الملايين، يلتصق الصوت الناشد واللحن السوقي بالوقت، ياإله السموات أين عساني أفرّ؟. كانت الشمس صاحبة تغريه بالفرار، ترسل إليه دفأها من خلال الشبك المعدني المهترئ والمتمزق للنافذة، يدس الرواية في جيبه ساقته قدماه إلى مكتب مخلص جمركي كان صديقاً لوالده عندما كان فقيراً، فليزوره ليسحق عنده ساعة من الزمن حتى يحين موعد التوقيع ظهراً...

« كان فقيراً معدماً، ثم عمل أعمالاً حرة، صار بعدها، خلال سنوات قليلة يلعب بالملايين!!! »

هذا مايقوله الناس ببساطة، كلمة أعمال حرة تتسع لمئات الملايين وتستوعب في بطنها كل أنواع السرقات. محظوظ من تسمح له ظروفه بممارسة الأعمال الحرة، لكن كيف؟ من سيغطي من؟ وكيف تكون البداية؟ وما هو طريق الثروة؟ سمير كان مجرد مدرس ابتدائي، لايزال الدكتور كريم يذكر بيته البسيط المكون من غرفتين، يوم زاره منذ سنوات مع والده ليباركا له

بانتقاله من التدريس في القرية إلى المدينة... كم فرح بالزيارة، وكرر مراراً شرفتنا يا ابو كريم أنت والدكتور، يوماً كان كريم في سنته الرابعة في كلية الطب... كرت السنوات كل غارق في متاهات الحياة في طموحات صغيرة أو كبيرة، تيسر أو تعسر، إلى أن فوجئ الدكتور ذات يوم وهو راكب قدميه قاصداً مشفى الرخام، برجل يناديه من سيارة رائعة، يوقفها بجواره ويبادره بالتحية: مرحباً دكتور كريم، ألم تذكرني؟.

تأمل كريم الوجه، إنه يعرف هذه الملامح جيداً، وقبل أن تنجده ذاكرته صرخ الرجل:

- أنا سمير، سمير، رحم الله والدك كم كان شريفاً وعصامياً.
بهت كريم، أنت سمير، أهلاً، أهلاً... الملامح ذاتها، لكن الغنى أضفى عليها سحنة اللامبالاة والضجر، وعدم الابتهاج... سأله سمير: إلى أين أنت ذاهب؟

رد كريم: إلى مشفى الرخام.

- أتعمل فيه؟

- أجل.

- عظيم، أنت جاري إذاً، تعال شرفني بزيارة، أنا مكتبي في الطابق الثاني من العمارة قبل المشفى تماماً...

- مكتب، أتركت التدريس؟!

ضج سمير بالضحك، التدريس، تقصد طلقته، أهذا سؤال! كيف عساني أركب هذه السيارة لو بقيت مدرساً... غصّ كريم، تذكر والده في كفاحه المستميت، في سبيل أن يصير ابنه طبيباً، غادر الحياة وجسده مهدود بالشقاء... سأله: ماذا تعمل؟

- مخلصاً جمر كياً...

حين زاره للمرة الأولى في مكتبه، صعقه الترف المتحدي، الأقلام الفخمة، القداحات الأنيقة المطعمة بالذهب، تحف صغيرة من الكريستال تزين المكتب» أربعة أجهزة هاتف، ورود طازجة منداة في فاز من الكريستال، زواره الذين يبدون من كوكب آخر، رجال يلبسون قمصان من الحرير البديع، وأحذية من الجلد اللامع، بنعلٍ نظيف تماماً، لكأنهم يطرون بأجنحة خفية، ولاتطأ أقدامهم الأرض، مسابح من الذهب والأحجار الكريمة الملونة، يضعون رجلاً فوق رجل، يتبادلون المجاملات والدعوات على غداء أو عشاء في أفخم المطاعم، يتكلمون عن بضائع تساوي الملايين، ويغمزون بأرباح تفوق الملايين! سيارات وفيلات، ورحلات حول العالم... لا يمكن لكريم أن ينسى تلك الجملة التي قالها أحد الرجال وهو يضحك: حين يصل حسابك في الخارج إلى مليون دولار، فلاتهتم لشيء، هذه نصيحتي لكم.

أين أنا من هؤلاء؟ من هؤلاء الرجال؟ كيف جمعوا تلك الثروات؟ مامعنى مليون دولار؟ ماهذه الأعمال الحرة التي يجني الإنسان من ورائها كل هذه الرباح؟ أسئلة كثيرة تكاثرت في ذهن الدكتور كريم، وهو جالس وسط هؤلاء اللصوص، يحس أن شهادته مجرد ورقة، ورقة لاتصرف في أي بنك من بنوك العالم... أي قهر فظيع تلبسه... انفضّ الرجال... نادى سمير سكرتيرته الساحرة الجمال، سألت بلطف: ماذا أحضر لكم، شاي، قهوة، عصير برتقال...

قال سمير: بماذا ترغب يادكتور؟

رد بآلية: قهوة

قالت بصوت عذب: حاضر...

تبخرت كل الأسئلة من مخ الطبيب، ماذا عساه يسأل، هل يقول له كيف جمعت هذه الثروة؟! لكن الأخير لم ينتظره أن يسأل، وفرّ عليه صياغة السؤال، اشعل سيجاراً نفث الدخان وابتدأ الحديث: الحمد لله يادكتور فهمت

اللعبة، كي تعيش ببجوحة يجب أن تطعم التسعة من أصل العشرة، يبقى لك واحد نعمة كريم؟ ضحك، كل واحد له سعر، الآن في الجمارك يوجد أبو الخمسة، وأبو الألف، وأبو العشرة آلاف، وأبو مئات الألف، هكذا...

تابع كريم الدخان الكثيف الأزرق للسيكار وتساءل ماهذه اللغة؟! كم هي غريبة عن عالمه... أغاظته تلك الطمأنينة الراسخة التي يعيشها هؤلاء اللصوص عاد إلى المشفى بعد أن رشف شرابه الأسود وهو يشعر أنه يهبط من كوكب إلى كوكب آخر... بعد هذه الزيارة ظل ألم يعوي داخله لأيام، احتار كيف يهدئه، أقسم ألا يعود لزيارة سمير... لكن بطالته اليومية هزمت، تكررت الزيارات، مجددة القهر والألم في روحه كل مرة، ليعترف أن السكرتيرة الفاتنة أسرته بجمالها وجرته بشكل خفي ليكرر زيارته...

ذات يوم رآها منكب على قراءة شكسبير بالانكليزية، عرف أنها خريجة قسم الأدب الأنكليزي في الجامعة، وبأنها انتظرت ست سنوات دون الحصول على وظيفة! وكل الفرص التي أتاحت لها كانت بالعمل مدرسة في قرى بعيدة، ودون أن تكون مثبتة في هذه الحال سيتبخر الراتب ثمن مواصلات، كما قالت للطبيب... لأشهر ظل كريم يراها بينطال الجينز ذاته مع قمصان قطنية بسيطة ملونة، كانت صفحة وجهها النقية الوردية تفتنه، بعينيها اللوزيتين بلون الكستناء، وشعرها الناعم الأسود المسترسل على ظهرها، وثغرها المكتنز قليلاً بلون التوت، والذي يفتر عن صفين بديعين من الأسنان الناصعة... سماها في سره آلهة الجمال.. بعد أشهر من عملها عند المخلص الجمركي، حوّلت شعرها إلى اللون الأصفر الفاقع، وغطت المساحيق وجهها الحريري، واختنق عنقها بعقود الذهب، وانحشرت أصابعها في خواتم الذهب والماس، وماعادت تنتظر الباص أبداً، بل صارت تنتقل في سيارة المخلص الجمركي، بصحبته أومع سائقه، تجلس في المقعد الخلفي كأميرة... تضاعف حقه على المخلص الجمركي وصارعه بخياله وسيلته الوحيدة للتنفيس ولممارسة الحياة أيضاً: أنت

شوهتها حولها لعشيقة؟ يضحك المخلص الجمركي: بل أنا حققت أحلامها، إنها سعيدة، سعيدة.

- سعيدة، كانت بريئة طاهرة، جعلتها بأموالك الحرام عشيقة.

- عشيقة، لوتعرف كم هي محط حسد صديقاتها! ثم إنها راشدة وتعرف مصلحتها، ماذا قدّمت لها الشهادة يادكتور سوى الفقر والذل؟! يكف خياله عن ابتداع الصور، يرحمه من حرق أعصابه اللامجدي.

انقطعت السكرتيرة الفاتنة عن العمل لأشهر بسبب زواجها من موظف مغمور، لكنها عادت للعمل عند عشيقها رب العمل، صار كريم يلمحها مع الزوج والعشيق، يتأمل هذا الثلاثي بسخرية أليمة، يتساءل: أترى اللعبة مكشوفة تماماً بينهم.. أم أن كل واحد منهم يفضل التمثيل والاختباء وراء قناع الشرف!! لكن صورة الفتاة وهي تقرأ شكسبير بوجهها البديع قبل أن تلوّثه المساحيق وبنطال الجينز البسيط الذي يرسم انسياب جسدها وطراوته، وشعرها الكستنائي الطويل ظلت تخز قلب كريم بإبر موجهة، كانت رائحة جريمة غامضة تفوح حول هذا الوجه البديع، الذي عهرّه الواقع.

هذا الصباح، قرر كريم نسف القشرة المتآكلة والهشة للإطار الاجتماعي، لمهنته تحديداً، انتصر على الاعتبارات الواهية التي ظلت تكبله لسنوات، قرر مكاشفة سمير برغبته ببيع العيادة واستثمار ثمنها في أي شيء، سيطلب مشورته، وسيذكره بشكل صريح أو مبطن - لافرق - بالصدّاقة القديمة بيته وبين والده، وبفضل والده في نقله من القرية إلى المدينة حين كان مدرساً. تنشط خياله، وصور له أن سمير سيتحمس للفكرة وسيبيع له العيادة بفترة قصيرة، وسيعلمه لعبة التسلق إلى الملايين، ياسلام، أي سحر هو الخيال، الإنسان هو الكائن الحي القادر على الخيال... لكن أليس الواقع وليد الخيال؟ ألم تكن كل المنجزات خيالات!! سمير نفسه ألم يكن فقيراً ومغموراً حلم بالثراء وسعى وراء

حلّمه حتى تحقق، ماالذي يمنعه هو من السعي، آه كم تأخراً كم صبر على مهنة الذل هذه؟ لكن أكان يستطيع التنبؤ أنه سيعيش عصر انحطاط الطب، وتردي الوضع المهني بهذه الطريقة... هنا نفسه على جرأته في اتخاذ القرار أخيراً، ولام نفسه كيف قرر مراراً أن يقطع علاقته بسمير حدّث نفسه بلهجة الواعظ: أشخاص أمثال سمير يلزمونك ياكريم في هذا الزمن، فابق على صلة معهم، إنهم يخلصونك من مئة وورطة وورطة محتملة كل يوم! تذكر منذ عامين ذكرى بغیضة على قلبه، يومها طلب من أحد المرضى بخشيشاً لقاء إجراء عمل جراحي له، التأم الرجل، فقدّم به شكوى لإدارة المشفى، استدعوه للتحقيق فثار وجن، ولعن وشتم الطب وساعته، الفقر واضطراره لطلب أتاوة من المرضى، هذه الذعر لأيام من تخيل نتائج التحقيق، اسعفته ذاكرته بسمير، لجأ إليه، حكى له المشكلة، طمأنه سمير، بسيطة بسيطة، رفع سماعة أحد هواتفه الأربعة واتصل بشخص، ضحك معه أكثر مما حدثه، حكى له نكتتين فاضحتين على الهاتف، وأخيراً أوصاه بالطبيب المسكين.

حلّت المشكلة تماماً... طوي التحقيق، والرجل الغامض اتصل بالإدارة التي غصّت نظرها عن الشكوى، رأيت ياكريم كيف أن أشخاصاً أمثال سمير لازمون في الحياة!؟

هوت أحلامه حين أخبرته السكرتيرة أن سمير مسافر، متى سيعود، سألها وهو يحس لسانه ملتصق بسقف حلقه من الجفاف، قالت: بعد يومين أو ثلاثة، إنه مشغول بتسليم بضاعة هامة... دعتة لشرب فنجان قهوة، لكنه اعتذر وغادر المكتب وهو يحس أن كل درجة يهبطها تقربه من قاع اليأس أميالاً... أين سيذهب؟! لن يرجع إلى مستشفى اللعنة، ولن يتحنط كالعادة في مقهى الرصيف، ولاشيء ينتظره في عيادته سوى الغبار المتراكم فوق الأثاث الميت من صقيع الوحدة، مثله، تماماً...

تأمل هذا الشعور الرمادي الذي ينمو شيئاً فشيئاً في صدره من الصباح وحتى المساء حتى يشوش حواسه كلها، سأم وانهازام وانكسار، هذه حالته حين

يذهب كل يوم إلى المشفى، سيمر رغماً عنه في الطريق ذاته، تتساقط أمام قدميه أحلامه، كما تتساقط أوراق الأشجار اليابسة، يدوس أحلامه في طريقه إلى المشفى، يسمع أنينها، يحس صدره مملوءاً بالدخان، دخان رمادي كثيف، كذلك الذي ينفثه سمير من سيكاره، أحياناً يتحول الدخان لضباب كثيف جداً، يطلق زفرات طويلة من فمه فيخرج ضباب الاختناق من صدره على دفعات، يساعده التنهد العميق في التحرر شيئاً فشيئاً من كثافة اختناقه... يتخيل دخوله من الباب الحديدي حيث تطالعه عينا خياله، أو عيناه الحقيقيتان - ماعداً هناك من فرق - بمهرجان الفوضى والبؤس والكآبة، صار يعي كيف يلبس الخيال بالواقع، كيف لم يعد من فرق على الإطلاق بين رؤيته كل يوم لمظاهر الأذى والبؤس في المشفى وبين مخزون خياله الذي ينفلت من رأسه كيفما تحرك خارج المشفى، لكأن ذاكرته مثقوبة، تتساقط منها الصور كلما اهتز رأسه... جسد البطالة رخو، متعب دوماً، يوقظه من شروده أحد زملائه الفار من المشفى، يبادلته التحية، يحس أنه وزميله دميتان، أجل مجرد دمي، ليسا آدميين أبداً... لا يشعر أنه حي ولا ميت، تستوقفه طفلة صغيرة، قدر أنها في الخامسة من عمرها، تلبس مريلة مدرسة زهرية اللون، وتزين شعرها القصير بشريطة صفراء، مألحى صفاء عينيها، وأنفها الصغير المحمر من البرد، تحمل على ظهرها حقيبة المدرسة، يتوقف ليراقب مشيتها، خطواتها صغيرة سريعة، يشعر أن قلبه يغوص، يتساءل: متى ستعاني هذه الصغيرة من انهيار المقدسات، خاصة العمل؟ متى سترجع إلى البيت وقد خبا اللمعان في عينيها الرائعتين؟ لمن ستشكو همومها عن البطالة وشح الراتب؟! هل ستبكي على السنوات التي ضيعتها في الدراسة وفي الحصول على شهادات؟! هل يعقل أن تبيع نفسها ذات يوم لرجل غني؟! توقفت الصغيرة تراقب بعينيها اللامعتين، إشارة المرور لتهم بقطع الشارع، يشعر أنها تسحب شعلة حب من قلبه.. يتمنى لو يضمها ويتشمم شعرها، ويتحسس خدودها الطرية. يهم بالنظر إلى ساعته ليطمئن على هروب الزمن، لكنه يؤجل تلك الرغبة كي لا يحس بمزيد من الخيبة كون الوقت

لم يسرع... لكن قلبه أخذ يخفق ببهجة خفيفة يعزبه أن وقت الغداء اقترب،
الطعام هو البهجة الوحيدة في يوميه، هو الرفاهية الحقيقية التي يسمح له بها
مشفى الرخام وعبادة التحنيط الأبدية!!!

حفت بخياله صور أطفال ينكشون في القمامة ليأكلوا، صور مرضى
السرطانات، والمشوهين في حوادث السيارات، صور بشر متخلفين عقلياً،
ساعده هذا الجمهور الخيالي من الصور في امتصاص نغمته، وأخيراً اصطفى
بإرادته صور زملائه في العمل الذين يماثلونه في الكآبة واليأس، آه من له سوى
خياله يخفف وطأة الأيام عليه!؟

صباح اليوم التالي كان مقرراً أن يجري الدكتور كريم عملية دوالي حبل
منوي، لشاب يعمل موظفاً في البلدية، أجلت العملية للمرة الثالثة أيضاً... في
المررة الأولى أجلت بحجة عدم توفر خيوط جراحية، وفي المرة الثانية لرفض
طبيب التخدير تخديره، لرفضه تحمل مسؤولية تخدير أربعة مرضى في آن
واحد... احتد النقاش بينه وبين الدكتور كريم الذي قال: كنتم تخدرون فيما
مضى أربعة مرضى.. قاطعه: كنا، أما بعد أن تورط زميلنا بمشكلة، وأنت
تعرفها، وحضر التفتيش ليحقق في وفاة المريض، وزج المخدر المسكين في
السجن.. من أحسن به وقتها؟ من ساعده؟ قال: آه، هذا موضوع آخر، الآن
الشاب ينتظر منذ أسابيع دوره في العمل الجراحي، وقد عطل عمله واستعد
نفسياً وجسدياً للعملية، واليوم دوري في العمليات، وأنت ترفض أن تخدره...
احتد طبيب التخدير وقال بلهجة وعيد: أرفض، أرفض، أرجوك أن تبلغ رفضي
للمدير، قل لمدير المشفى أن يوظف العديد من أطباء التخدير... فنحن أقلية قليلة
جداً...

- لكنني لن أحول الموضوع لشكوى، أرجوك، قدر ظرف الشاب.
- بل أنا أريد أن أحوله لشكوى... أريد أن يشتكي كل جراح لمدير
المشفى بأننا لانخدر المرضى.

لم يعد كريم قادراً على السيطرة على غضبه بعد اللهجة الاستفزازية لطبيب التخدير قال بحق ظاهر: أنت مصمم من البداية الأ تخدر هذا الشاب.
رد الأخير بلامبالاة سعيدة وكأنه وصل لغايته: أفهم كما تشاء.

هذا الصباح أجّلت العملية لعدم توفر قفازات جراحية!!

كان الشاب قد زرق ابرة مهدئة استعداداً للعملية، لم يكن يتجاوز الثلاثين من عمره وجهه مكفهر أبداً، لكأنه خارج من مشكلة عاطفية، تشعر بأنفاس الغضب المكتوم في صدره... طلبت الممرضة من الشاب أن يذهب ليشتري قفازات جراحية... صرخ: أنا سأشتريها، بدل أن أدخل غرفة العمليات الآن، تطلبني مني أن أجوب الشوارع لأشتري قفازات جراحية... وإبرة السم المهدئة التي زرقتني بها هذا الصباح، ألا تؤثر بهذا الجسد، - خبط يديه على صدره ساخطاً - لودهستني سيارة سترتاحن حضرتك أليس كذلك، لو سقطت وأنا أعبر الشارع و...

صرخت الممرضة، كفى، كفى، إذا كنت غاضباً من الجراحين لتأجيل عملياتك ثلاث مرات، فلست أنا ساحة لتفريغ غضبك، أفهمت، أنا لدي أسباب تدفعني للغضب أكثر منك بأضعاف مضاعفة...

- لكنك طلبت مني شراء قفازات جراحية!! من أين؟! هل سأهرول لشرائها ثم أعود كالكلب إلى غرفة العمليات... تابع كريم فوران الغضب بين المريض والممرضة، تأمل الشاب النحيل بالثياب المغبرة ذاتها، التي كان سيدخل بها إلى غرفة العمليات، كل المرضى يدخلون بكامل ثيابهم إلى غرفة العمليات... حدث نفسه بسخرية: بالروعة التعقيم!! استقر نظره أخيراً عند الحذاء المهترئ للمريض، قال: ياللبؤس

فجأة انتفض المريض كأنه تنبه لوجود الطبيب فجأة، وقف أمام الدكتور كريم وقال بغضب: أنا دمية هنا يادكتور، ثلاث مرّات تؤجل عمليتي، أيرضيك

ذلك؟ قال كريم محاولاً امتصاص غضبه: يا أخي، أنت ترى بعينك، أنا مامسؤوليتي، ألم تسمع بنفسك الحوار الذي دار بيني وبين طبيب التخدير المرة الماضية. والآن عدة عمليات توقفت لعدم توفر قفازات جراحية..

قاطعته المريض مشتتلاً بالغضب: وأنا ماذنبي، ماذنبي.

قال كريم: وأنا مامسؤوليتي... هكذا الظروف...

يبدو أنه كان يبحث عن هذه الكلمة، ذلك الشاب البائس، التقطها كغنيمة قائلاً: آه، الظروف، الله يلعن هذه الظروف، اللعنة على الفقر اللعنة على الساعة التي قصدت بها هذا المشفى، واحد مثلي خير له أن يموت بعلته ولا يقصدكم، صحيح كل شيء بالمال... بسيطة لو كنت أملك مالاً لدخلت أي مشفى خاص وأجروا لي العملية...

تدخل كريم: كفى - هذا الكلام لا يفيد... ثم لست أنا المسؤول...

سأل المريض: من المسؤول إذاً؟

قال كريم: يمكنك أن تشرح المشكلة من أولها إلى آخرها لمدير المشفى.
- حسناً، سأقصده حالاً...

بعد دقائق كان النداء يطلب الدكتور كريم لمقابلة مدير المشفى... قبل أن يدخل غرفة المدير، رأى الشاب البائس ينتظر عند الباب، يبدو أنه لم يتمكن من مقابلة المدير، كان يرمق الباب بحنق ثم ينقل أنظاره إلى السكرتيرة الحسنة التي منعتة بلباقة من الدخول إلى غرفة المدير، قائلة له بتهدئتها الملفت: يجب أن يسمع القصة من الجراح أولاً...

عرض كريم قصة العملية للمدير، ولفت نظره بأن ظروف العمل ماعادت محتملة، كل يوم مشكلة، العمليات تؤجل مراراً.. فوضى و... لم يكن المدير راغباً بسماع أي تعليق: قال: يادكتور، اصرفه بطريقة ما. ردد كريم مبهوراً: اصرفه بطريقة ما؟ كيف!

- قل له أي عذر، مثلاً، لاتجري هذه العملية هنا، حوله إلى العاصمة، أو احتمال نجاح هذه العملية ضعيف، أو أنها خطيرة، أي كلام.

سأل كريم باستخفاف: أهذا رأيك حقاً...

- طبعاً، أنا لأريد كل لحظة أن أقابل مشكلة...

- لكنه مريض، وليس مشكلة...

يبدو أن المدير لم يفهم السخرية المبطنة في كلام كريم قال: المهم لن أقابله، تصرف أنت...

خرج كريم من غرفة المدير، ألقت عيناه بعيني الشاب المشتعلتين بالقهر المنتظرتين... تبادلا نظرة طويلة منذرة وملتبسة حاول كريم جهده نقل شحنات الود والتعاطف من خلال نظرتيه للشاب، قال له: للأسف كانت تلك الكلمة بالطريقة التي لفظها بها الدكتور كريم كافية لأن يستدير الشاب دون أن يتفوه بأية كلمة، ليسير بخطوات واسعة مديراً ظهره لمشفى الرخام.

علقت السكرتيرة: الحمد لله لم ينفجر بالسباب، منذ لحظات كان هنا مريض أيضاً أجلت عملياته، يا إلهي لو رأيت رد فعله يادكتور كريم، كان سيهجم عنوه إلى غرفة المدير، وانهاال علينا بشتائم فظيعة، حتى اضطررت أن أطلب الشرطة. يتابع الدكتور كريم بنظره الشاب المتبعد، يبدو له كائناً وهمياً باهتاً ومهترئاً كم نحن مساكين... يخرج بدوره من مشفى الرخام، يقصد مقهى الرصيف المعتاد، اليوم زوادته ليحارب فراغ البطالة كتاب «أعراس» لألبير كامو، يطلب فنجان قهوة يجلس ليقراً، يمر بائع الفول المسلوق قرب المقهى، يجر عربته الخشبية، وبخار كثيف يتصاعد من الدورق، يتحلب الطعم اللذيذ الساخن، ينادي البائع، يعطيه عشر ليرات، يملأ بها صحناً ورقياً. يرشه بأنواع عديدة من البهارات... البائع شاب صغير، قدر عمره بخمسة عشر عاماً، يسأله: أأنت في المدرسة، يرد بحركة نفي من رأسه، أن لا.

يأكل الفول الحار بتلذذ، تتكاثر عربات الفول بشكل ملحوظ هذه الأيام،

يتذكر القصص والمسلسلات المصرية، حيث الفول عصب أساسي في حياة الشعب... تلفحه موجة من الوهن الشديد، يعرف أنه، وهن البطالة، يغمض أجفانه، صورة المريض مديراً له ظهره، يسير ويسير تلاحقه، بكنزته العتيقة، حذائه المهترئ، ويداه الكبيرتان بجلدهما السميك المتشقق، يشعر أن لانهاية لمسيره، يفتح عينيه عمداً كي يوقف صورة المريض... تساءل ترى أين عساه يذهب؟ على الأغلب سيصطاده أحد الأطباء، سيضطر المسكين للاستدانة ليجري العملية في مشفى خاص أو سيتجاهل مرضه وقد يصاب بالعقم مع السنوات... آه بداية صداع يتفجر قوياً في رأسه، يفكر أن يقصد صيدلية المشفى ليأخذ حبواً مسكنة للآلم، لكنه سرعان مايتذكر أنها فارغة منذ زمن طويل من كل الأدوية تقريباً!!!

يجوب خياله شوارع المدينة، يتوقف عند السينما التي كان لها أمجاد فيما مضى فيلم الفهد الذي عمره أكثر من ربع قرن يعرض للمرة العاشرة ربما طوال هذه السنوات ويستمر عرضه أكثر من ثلاثة أسابيع كل مرة!! السينما ماتت بدورها، بدت له تلك الصور البعيدة البعيدة التي لاتزال تحتفظ بها ذاكرته عن أيام نادي السينما والمناقشات الرائعة التي يتبادلها الجمهور مع الشباب المتورين الذين يديرون النقاش... غير واقعية، هل يتشكك بحصول هذه النقاشات الغنية يوماً!! نسي الناس السينما التي تحوّلت لصالات فارغة مهترئة بالقدم والغبار وإذا صدف وحصلت معجزة وعرضت بعض الأفلام الجيدة، فالحضور يعد على أصابع اليد الواحدة. يقفز به خياله من مأساة صالات السينما إلى مقاهي البحر - التي كانت - شامخة، فاتنة، عاشقة، مسترخية بدلال على طوال شريط الكورنيش، كلها هدمت، وسّع المرفأ، وبلط البحر، ابتسم بكل المرارة المتشعبة بروحه وقال: جميل الفعل المبني للمجهول، تنبه أن كل جملة تبدأ بهذا الفعل؟! ماأجمل أن يعلّق كل عمل بالمجهول؟! يستمر خياله في رحلته في شوارع المدينة، يتوقف عند حاويات القمامة التي تطوف بمحتواياتها، الأطفال والكبار أيضاً ينبشون في هضابها... كم هو محاصر؟! أين عساه يفرّ،

وحدود يومه مشفى الرخام وعبادة التحنيط الأبدية وعربات القمامة وسينما مفلسة، ومقاهي البطالة أو مقاهي الرصيف!! أهذه هي الحياة المقدسة التي يتشبث بها الناس بكل قواهم، ويسعون لبناء الأمجاد فيها، وترتعد فرائضهم خوفاً من الموت!! هل الحياة مقدسة فعلاً؟ وأين تكمن قداستها، وأتاه إلهام مفاجئ، بأن الموت ما هو سوى نسخة مكررة لحياته هذه ألايختبر الموت كل يوم دون أن يموت؟! أرعبته فكرة الأبدية ماذا لو استمرت أيامه إلى الأبد على هذا المنوال سواء قبل الموت أو بعده! ليس لديه من حلول معاوضة أو مسكنة سوى انتظار وجبات الطعام، يتحوّل كل إحساسه بالطعام، بمذاقه اللذيذ المتنوع، يتساءل: هل الحب طعمه حامض أم حلو أم مالح؟! ما طعم النشوة؟! الطعام والنوم هما الحياة... ترى ما هدف الحيوانات من حياتها!؟.

وجد نفسه قرب عيادة طبيب الأسنان ذائع الصيت، الذي يسميه الحوت لأنه تمكن من جمع ثروة كبيرة من عمله، قادته قدماء بآلية إلى عيادة الحوت، استقبله الطبيب اللامع بحفاوة، وبعد أن تأمل طويلاً جوف فمه فاحصاً أضراسه، فيما كريم يتابع التقطيب المتزايد على وجه الحوت ويحس بضربات قلبه تتسارع كأنه ينتظر نتيجة امتحان، وكانت النتيجة قطعية وبصوت أكيد: وضع أضراسك مزير يادكتور كريم، كل تلبيساتك القديمة تحتاج لنسف ويجب استبدالها بتلبيسات سيراميك جديدة أستغرب من طبيب مثلك هذا الإهمال - ضحك بتصنع - هل تريد أن يصدق المثل - باب النجار مخلّع -.

بلله الخجل وجد نفسه يسأل الحوت بثقة مصطنعة: أتعرف، لاوقت لي للعناية بأضراسي، لكنني قررت الآن إصلاحها جميعها بعد كلامك المخيف، هلاً قدرت لي الكلفة الإجمالية!؟

صفن الحوت قليلاً وقال بعد أن لوى فمه للأسفل: طبعاً سأقبض منك الكلفة فقط، في هذه الحال، لن تكون أقل من ثلاثين ألفاً...

انقطعت انفاسه وأطرق شاردأ في البلاط في اللونين البني والأبيض على

شكل لوحة الشطرنج، تظاهر أنه يفكر كيف سينسق دوام عيادته مع إصلاح أسنانه في عيادة الحوت، قال: أفكر كيف سننسق معاً الدوام، لأن أوقات عملنا واحدة؟ رد الحوت: بسيطة، يمكن أن تقصدني قبل ذهابك للعيادة، أو بعد خروجك منها وأنا يا أخي أضحي بنصف ساعة زيادة كل يوم من أجل خاطرک... .

شعر من واجبه أن يرسم ابتسامة شكر وأن يتلفظ بيضعة كلمات لطيفة يقولها للحوت، وعده بشكل قطعي أنه خلال أيام سيتصل به ليستأنف هذا الأخير إصلاح تليساته المثقبة والمهترئة... .

قال الحوت: أو كي أنا بانتظارک، فلاتأخر، وضع أضراسک لايحتمل التأجيل لإصلاحها.

نزل الدرج فardاً سحنة قنوطه، الأفكار محتقنة في ذهنه، سيطرت كلمة وحيدة في ذهنه، ارتسمت في خياله بالخط السود العريض: الحوت... جمعها بحيتان... أجل ما هم سوى حيتان يتلعون الأسماك الصغيرة، الطبيب الكبير يأكل الطبيب الصغير، كلمات تصلح لأغنية، لماذا لا يغنيها أحد المطربين الهابطين الذين جمعوا ثروة من أغانيهم المبتذلة، لم يستطع أن يمنع وميض تلك الفكرة الملحة، وهي تصوّر له ازدحام عيادته مثل عيادة الحوت، وبأنه جمع ثروة كبيرة مثله، واشترى بيوتاً وسيارة فخمة.

لكنه أخذ يعزي نفسه بوضع أطباء الأسنان الجديد أو الأسماك الصغيرة، الغارقين في الديون، الذين تصفر عياداتهم كعيادته، قادته خطواته بشكل أعمى عبر الطريق ذاته إلى عيادته، تخيل أن عمره سينصرم وهو يروح غادياً آياً في الطريق ذاته، إلى أن يأتي يوم يغوص فيه تحت الأرض في نقطة مامن هذا الطريق، وبدا هذا الطريق هو نفسه الطريق الصاعد الذي يزرعه سيزيف كل يوم مجتراً يوماً أبدياً... .

أحس بضيق في صدره، تساءل مالذي يجثم فوق صدري؟ بلاطة من رخام، هكذا تخيل... . وارتسم رقم ثلاثون ألفاً فوق البلاطة، البلاطة بيضاء

والرقم مكتوب بالأحمر الزاهي، راتب ستة أشهر، ياللمهزلة! وتساءل بسذاجة
يائس: لماذا ليس هناك ضمان صحي؟!

بدا له أن جمع هذا المبلغ مستحيل، إلا إذا اضطر لسحب قرض من
المصرف، وصرخ صوت متذمر في أعماقه بأنه لن يتورط بسحب قروض على
الراتب الوهمي، وتفتقت جملة في ذهنه أجبرته على الضحك: أصل الإنسان
قرض... لم يصعد إلى عيادته، توقف يرمق اللافتة التي تحمل اسمه بحقد،
ايحقد على الدكتور كريم؟ أيكره نفسه وظروفه؟ لكن صوتاً متعباً زاهداً، بائساً
وساخراً أتاه من الخلف قائلاً: ما بها تلبساتك القديمة؟ هل اهترأت؟ لا بأس
لكنها صامدة أيضاً، صحيح أنها تثقت وسقطت مراراً، وأعيد لحمها وتركيبها،
لكنها عكازة نافعة على أية حال، هل تصدر عن فمك رائحة كريهة أحياناً؟
يا أخي بسيطة، أهتم أكثر بنظافة أسنانك، ومصّ أقراص النعناع، ذكية الرائحة،
ثم هأنت في الأربعين، بالتأكيد عشت أكثر من نصف عمرك، إيه لاتزعل هل
الأمر يتطلب دفع ثلاثين ألفاً في هذه الحياة الفانية؟!

ذكره هذا المبلغ بضمن البراد الذي تاق لشرائه، والذي يبرّد بالهواء...
والذي حلم أحلام يقظة مديدة بأنه سيشتريه ذات يوم، وسيحل مكان البراد
الذي هدته الشيخوخة فصار يصدر قرقرة عالية مستمرة، كأنه يعوي طالباً
الرحمة، وحقه في التقاعد، أو حقه الطبيعي في الموت... براد الهواء يحتاج
ليشتريه أن يدفع ستة أشهر من عمره، من قيمته خلال هذه الأشهر!! تذكر
تصرفاته التي بدت له هذه اللحظة مبكية من شدة الألم، والشفقة، كيف كان
يدخل محلات الأجهزة الكهربائية ويلمس البردات الجديدة بحنان، ويساوم
البائع في سعرها، موحياً له بثقة زائفة أنه سيشتري، ثم ينسل خارجاً مجرّجاً
وراءه عجزه الأبدي... تساءل: أيسخر منه هذا الرقم، ثلاثون ألفاً؟! وسأل
نفسه بسخرية - الوسيلة الوحيدة لامتنصص توتره ماهي الأشياء الكثيرة التي
رغبت بها وكان ثمنها ثلاثون ألفاً؟!

جميل هذا العبث الكلامي إنه يخفف توتر روحه اليائسة... انتعش خياله

وهو يحيي أمامه تلك الذكرى البعيدة، يوم استوقفه خاتم بديع معروض في إحدى واجهات دكاكين الصاغة، خاتم غريب له شكل مخمس، لمعانه رائع، وفي وسطه حجرة خضراء، بلغ حماس إعجابه بالخاتم أنه قرر شراؤه، سيطلب قرضاً على راتبه، وسيزين اصبعه بهذا الخاتم البديع - أي ضرر أن يدخل البهجة إلى روحه، وأن يقتني خاتماً رائعاً وهو الطبيب الاختصاصي منذ أكثر من عشر سنوات!

ظل اصبعه يحترق رغبة بالخاتم الذي قاسه مرّة واحدة، ولم يزد المبلغ الكبير المستحيل سوى إغواء وشبقاً في نفسه لامتلاكه، وانشغل ذهنه أياماً، وربما أسابيع باقتنائه.. لكن الحماسة انطفأت بجرعات الهموم اليومية المتكررة أبدأ... أسعفه خياله بثلاثين ألف رابعة، تذكر أن أخته تدفع هذا المبلغ شهرياً لتعهد البناء الذي يكسو لها شقتها، وبأن هذا المبلغ تافه بالنسبة لها، ولا يشكل سوى عشر راتبها، استطاع أن يتمثل الراتب العملاق الذي تحصل عليه أخته في أميركا، وأنا، وأنا... صرخ صراخاً أحراساً وقد هزته للحال عاصفة غضب عارمة أحسها ستفجر مفاصله كلها، من أنا؟ كزّ بقوة على أسنانه حتى أمكنه أن يشعر باهتراء التليسات وثقوبها وتخلّعها، قال بحنق: ماأنا سوى تليسات مهترئة... اتسع جفناه من الغضب، وجمدت نظرتة لكانه يرمق القدر بحقدٍ وتحديّ وبدا له وضعه المهيني والإنساني غير مقبول، ولا بأي شكل، وتكاثفت السنوات العشرة خلفه بمعاناتها الأبدية المرهقة والمملة، وتكثفت كنقطة حارقة تثقب قلبه، وامتد نظره مخترقاً سنوات في المستقبل عارفاً ببصيرة اليأس أن لأمل له أبدأ... صرخ من حنجرة قاسية، متصلبة بالقهر: ياإله السموات ماهذه الحياة؟! كيف يمكن أن أطيقها؟! وبدت العيادة الأبدية في سكونها المطبق، وأثاثها المفروش بالغبار والنسيان، نعشاً حقيقياً تنتظره كي يموت كي ينفخ آخر نسمة من روحه الذليلة التي تهيم في أعماقه مترعة بالأسى واحترار في تأزمه، هل ييكي، أم يضحك، أم يشتم، أم يتابع التسكع، ورفض الاحتمال الأخير، لأن تأمل واجهات المحلات سيضاعف ألمه، خاصة أن جيوبه خاوية.

وجد نفسه يقصد عيادته مجدداً، ويدخلها منهكاً من الانفعال، ومأن
جلس خلف طاولة المكتب في كرسي تحنيطه الأبدى، حتى كورّ يده، وخبطها
بقوة على الطاولة مطيراً الأوراق والأقلام وزجاجات الدواء الذي فسد منذ
زمن، وكان سيدق الطاولة بقبضته للمرة الثانية محطماً رسغه ربما، لولا أنجده
مريض بالدخول، نظر إلى الرجل بدهشة متعجباً أية معجزة هذه أن يقصده
مريض!!

شملة بنظرة متفحصة، يبدو ثرياً، ترى كيف أخطأ ودخل العيادة؟!!

بادره الرجل بالتحية، فردّ سلاماً مصطنعاً فيه حفاوة زائفة مبالغ بها:

تفضل، تفضل.

أخبره من تلقاء نفسه أن ابن خاله قصده منذ ثلاث سنوات، وبأنه أجرى
له عملية جراحية ممتازة... حكى المريض شكواه، ظفر ابهامه منغرس في اللحم،
يسبب له ألماً شديداً، أمكنه أن ينتعش مستعيداً كيانه كطبيب وتحركت
عضلات حنكه ولسانه التي أحسها غارقة في شلل طويل، طويل.. واتفق مع
المريض على موعد لإجراء العمل الجراحي بعد يومين، ودفع الرجل خمسمئة
ليرة على طاولة المكتب قائلاً بلهجة تفيض ودأ: هذه دفعة على الحساب...
وحين خرج الرجل حاملاً الوصفة الطبية التي كتبها له الطبيب الشحاذ، عاد
يجلس في مقعده مستمتعاً بالخشخشة اللطيفة الصادرة عن ورقة النقود حين
يدعكها بأصابعه، كان سعيداً سعيداً واحس بأن نسائم الربيع تهب في روحه،
استرخى جفناه المتصلبان ولم يعد يحدّق بحقدٍ في فراغ العيادة، وبدا له أن
المكتبة أمامه تبسم كذلك، وتمطى محرّكة كتلتها الصماء البليدة، حتى
الجدران تمطّت، والكراسي الضخمة المهترئة أخذت تضحك كاشفة عن
أضراس بتليسات مثقبة ومهترئة!!.

عجباً، أهكذا يتحوّل مزاجه من غليان الغضب ورعوده وعواصفه، بمجرد
خمسمئة ليرة، إلى نسائم علية تنعش القلب!! أعطته خمسمئة الليرة شعوراً

بالشبع والأمان والاستقرار، وكأنه ضمن مستقبله عشر سنوات على الأقل،
أمكنه أن يقوم عن كرسي تحنيطه وينزل الشارع، آه، ماذا عساه يشتري؟! أبحتر
حقاً؟! داعب روحه بمودة كأنه يشفق عليها ككيان منفصل عنه، كم أحس
بالامتنان للصدفة التي قادت هذا الشخص اللطيف إليه، ابتسم متفائلاً وهو
يتخيل أن الرجل سيدفع له المبلغ الذي سيطلبه بعد العملية، فليدد الآن
الخمسئة، طالما سيقبض مثلها أو أكثر بعد يومين! ولج باب السوبر ماركت
ولسانه يستحلب طعوماً يحبها، همس لنفسه: مألذ الشراء، مألذ، أليس من
اقوى متع الحياة؟! لم يكن شح الراتب وحده يشعر كريم بالذل، ذلك أن حالة
من الذل اليومي صارت تتلبسه ابتداءً من الخطوة الأولى التي يخطوها باتجاه
المشفى وحتى نهاية الدوام، كان يتحسب الشر دوماً، وكانت ابتسامته الأولى
وسلامه اللذان يخص بهما زملاءه والموظفين في مشفى الرخام تعنيان تحديداً
براءته من التهم المحتملة، كان يعيش كمن يترقب كل لحظة السقوط في حفرة،
وشعاره اليومي: يارب نجّنا من شر هذا اليوم، كان يشعر أنه يستعطف صحتهم
وابتسامتهم، وهو يقول صباح الخير المبطنة بصباح الموت، وينتظر برهة، ثوان
يحسّها ثقيلة، مرهقة، كلها ترقب حتى يسمع ردهم بألية وتعاطف: صباح
النور.. فيتهد: الحمد لله، ليس من شر هذا الصباح، لم يلفق لي أحد تهمة،
ولم أطرده من وظيفة رغيف الخبز! أحياناً كان يتساءل: ألسنت مبالغاً قليلاً
بأحاسيسي؟ لماذا أشعر بكل هذا الرعب بينما الأيام تمر متشابهة وعادية ولأزوال
على رأس عملي؟ لكن هذا التساؤل كان يشعره بمزيد من الألم وهو يعي كيف
أنه ضحية رعب مستمر. ترى من خلقه في نفسه؟ أهو ساذج وضحية أو هام
حتى يسقط أسير رعب يتفاقم مع السنين؟ من هؤلاء الذين يعرفهم جيداً، وفي
أعمق غرف روحه ترتسم وجوههم التي تبتسم له، كالابتسامة التي خصّها
يهودا للمسيح قبل أن يسلمه للصلب!

أليسوا هم المسؤولون عن خلق هذا الشعور المدمر واللاإنساني بالرعب في
نفسه... المسؤولين الرخامين!! كيف يشع الرعب من شقوق يومه العادي؟

كانت علاقته مع الجميع ملتبسة، الآذن يحسه يتجسس عليه، ويضع في اعتباره أنه يمكن أن يراقب هروبه ويكتب فيه تقارير يقدمها للإدارة.. لذلك فحين كان الآذن يحضر أحد أفراد أسرته أو جيرانه للفحص، كان كريم يستقبله بحفاوة مبالغ بها، لكأنه يرجوه أو يرشيه ألا يفسد هروبه اليومي، المرضيات رغم تعاطفه اللامحدود معهن إلا أنه ظل يخشى أن يكون بعضهن مدسوساً للمراقبة.

كان يفكر بحياته وهو يرشف الشاي أو القهوة والصمت، بدا له أنه مامن حلٍ أبداً سوى أن ينمي في داخله القدرة على الفرار العقلي والذهني، وإن أمكن الجسدي من عيادة التحنيط ومشفى الرخام، حياة تفرّ من حياة، تعلو فوقها، تبني طابقاً من الأوهام والأفكار فوق طابق الاسمنت والضجيج، كان مقتنعاً تماماً أن عليه أن يخلق كريم ضمن كريم... محاولة خلق إنسان يستمتع بالدفء بالشمس، بالتأمل، لم يكن بالأمر السهل بالنسبة له، لكنه كان الحل الوحيد، ما كان يقبل أن يصير واحداً من المئات الذين يجترون كل يوم الأحاديث ذاتها عن الضرائب، وخيبات الأمل في العمل، كان يفر إلى مقاهي البحر، ويخلق علاقات عشقية مع البحر والشمس وصخور الشاطئ، والقطط المسترخية في دفاء الشمس، والتي يحسدها على صفائها الذهني، وكان يتبادل معها نظرات تفاهم وتعاطف ويمازحها سائلاً: إن كانت تجد صعوبة في تأمين لقمة العيش؟ ويتخيل أنه يسمع ردها، بأنها سعيدة لأن أكرام القمامة لم تكن يوماً بهذا السخاء كما هي عليه الآن، لكنها تنهد بأسف وهي تخبره بأن البشر صاروا ينافسونها في لقمة عيشها، لأنهم ينبشون في أكرام القمامة ويأكلون منها أيضاً!.

كانت أيامه تتابع بسلاسة كما تنسل حبات الرمل من بين الأصابع، وكانت حالات من الزهد والعبث تتنابه، فيحدث نفسه بكل سأمه اللامحدود: هاأنا أعيش بدليل أنني أقص أظافري الطويلة، هاأنا أعيش لأنني أمشي، وآكل وأنام، كان يحتاج لمؤشرات تثبت له أنه يعيش، لأن داخله كان ميتاً باليأس... لم يجد بعد طول بحث من حلٍ مريح نسبياً ليأسه، سوى أن يخلق شخصاً

ضمن شخص، سوى أن يوصي لنفسه بأن كل الظروف حوله لاتعنيه، بل تعني إنساناً آخر يضطر أن يمثل أنه طيب، وأنه يعمل في مشفى، وبأنه يتوجب عليه أن يجلس كل يوم لساعات متأملاً الفراغ في عيادة التحنيط الأبدية... ليس من إنهاك أصعب من إنهاك الفراغ، أغلب المساءات كان يتهاوى من التعب رغم أنه لم يقم بجهد يذكر، سوى انتظار اللاشيء، كان يلتهم عشاؤه كيفما اتفق، وهو واقف، ثم يبدل ملابسه ليلبس بيجامته الذابلة التي مأن يسقط نظره عليها حتى يتحرك فيه شعور الذبول والنعاس، ثم يجلس في سريره ليقراً بذهن مشوش أبداً... لم يكن يطبق الشاشة الصغيرة التي تعني له تحديداً الكذب والضوضاء، والدعايات التافهة عديمة الذوق، والتي يدور معظمها حول أنواع العلكة والعصير، كأنهما عصبا الحياة الأساسيان؟! أما المحطات اللبنانية فكانت تجعله يهوي أكثر فاكثر في إحباط يأسه وهو يتساءل: أهؤلاء بشر مثلنا، يعيشون الفن وزخم الحياة، يستمتعون بالسينما والمسرح والحرية... أفضل لي أن أهرب إلى كفني وأغرق في النوم، في الوقت الذي تغفو فيه الدجاجات...

حارب الوقت بالنوم، هذه حكمته الجديدة، بدل الشجار اليومي مع المساء: ماذا سأفعل بك؟ ماذا سأفعل لك؟ كيف سأملؤك؟ كيف سأخلق الحياة فيك؟ لسنوات وهو يتشاجر كل ليلة مع مسائه، بينما الليل يمر شاحباً قرب نافذته يلقي عليه تحية المساء بصوت خافت وحزين ويرمقه مطمئناً إلى وضعه الأبدي، ويغادره بعد أن يطمئن أنه غرق في النوم بمساعدة النوم... لكنه لم يكن يتابعه حين يستيقظ عند الفجر، ليعد قهوة استعادة الذكريات القريبة والبعيدة، وليسجل في دفتر مذكراته، انطباعاته عن الحياة، في تلك اللحظات البكر من الفجر، كانت نفسه تصفو كمرآة لماعة تعكس كل أشعة الشمس حياً وبهجة، كان يشعر أن ماء روجه مقطرة، نقية، يمكنه أن يشعر عندها بسكون الكون الأولي، تلك اللحظات الرائعة التي سبقت الخلق، لكنها كانت تحمل في جلال صمتها كل حبيبات الحياة، كان ذهنه في تلك اللحظات يتورد بنسف الحياة، فيكتب صفحات أشبه بمناجاة كونية. ويحس بعدها بالرضى وبأنه

لا يزال قادراً على التمتع بالحياة، كان يتفرج بعين خياله على روحه كيف تفرّ من صدره كحمامة بيضاء تحمل في منقارها غصن زيتون وتطير عابرة قارات ومحيطات، محتوية الكون كله في صدرها النقي، كيف تحط على شرفات لاتزال غارقة في عتمة الشفق تنثر دموع الشوق والحب لكل المساكين والبسطاء في هذا العالم... كانت الحمامة البيضاء تتابع طيرانها حتى تصل خط المدى، وتقف عند خط عناق البحر والسماء، لترك غصن الزيتون هناك، هدية حب للمدى الأزرق، بصمة حب خضراء مندأة بزيت المحبة، وتعود الحمامة من تجوالها الكوني لتستقر مجدداً بين أضلاعه، فيما هو يتفرج على خيوط الفجر الأولى كيف تتسلل من النافذة، وكيف يبدأ الصمت الجليل يחדش بخطا الأولاد المهرولين إلى مدارسهم، والموظفين الساعين وراء لقمة العيش...

كان يعود بعد ساعات الانفعال الصوفية هذه إلى فراشه، مثقلاً بمشاعر الشكر والامتنان لإله يجعله يعيش بزخم لامحدود ساعات رائعة تبدأ قبل الفجر، وتنتهي بعد طلوع الشمس، كان يغفو لساعة أو أكثر ثم يقوم ليتأبط سأم بطالته اللامحدودة، إنما بروح عالية قادرة على مقاومة اليأس، حتى فجر اليوم التالي... كثيراً ما كان يشك بحقيقة تلك المشاعر النقية التي تصطبغ في نفسه فجراً، أتراها حقيقة أم زائفة؟ إنها أشبه ببروق، ببروق سريعة وخاطفة سرعان ماتنطفئ، ببروق لا منطقية تخترق غيمة القنوط الرازحة على صدره، إنها مجرد شوق الفرحة، كتوق الإنسان لمعشوق، كانت نفسه تحتاج للفرح، تخلقه، تؤلفه من لاشيء، فيأتي كومضة، بلا جذور، بلا هوية، أشبه بزوغان بصري خادع سرعان ما يزول تاركاً إياه غيمة ثقيلة من القنوط.

أقبل العيد، وهو مفلس تماماً، أمامه أربعة أيام من الخواء، ترى هل من علاقة بين خواء الروح وخواء الجيوب؟ يالوجع السخرية وهو لا يحمل في جيب بنطاله الأنيق سوى خمس ليرات! لا بأس لن يموت من الجوع، ففي البراد طعام، وأمه ستطهو كل يوم طبخاً شهياً، كان يحلم أن يعيش أربعة أيام في الريف،

يستأجر غرفة بسيطة وسط الخضار النقي، يتنشق الهواء المحتمل براوائح الأرض والشجر والأزهار، والحيوانات يغمض عينيه من شدة الشوق لكل جميل وبسيط وطبيعي، وماشوق الإنسان العميق للطبيعة سوى رغبة أصيلة لعودة الإلتحام بها، بذرات التراب، وجذور النباتات، والائتداء المحجوبة في الأعماق حيث تتدفق الينابيع... كيف تصير الرغبة البسيطة، مجرد قضاء ثلاثة أيام في الريف، ضرباً من المستحيل؟ انزلت في ذهنه صورة اخته وملايينها المكدسة في البنوك والعقارات، مجرد صورة عرضية في ذهنه لم تحرك فيه أي شعور... يالهول الأسى المتراكم في روحه، لكأن أسى البشرية كلها يتجمع في داخله، يحس أنه يدور حول نفسه دوراناً لامجدياً، يزرع الغرفة بخطا عصبية متوترة، يفتح باب قوقعته خارجاً إلى الصالون، ينظر عشرات المرات في الساعة، يستعجل العقارب دورانها، بأن تمر الزمن بأقل أذى نفسي ممكن وأقل قهر عارفاً أن لامفر منه، لكن هاهو النهار لايزال في بدايته ولم يمض على تناوله الفطور سوى ساعة، خلال هذه الساعة كانت معاناته من الحدة لدرجة شعر أن روحه ستنفق، وهامي أمه تتفرج عليه بحواسها بروحها، إنما ليس بعينيها أبداً، لأنها تخشى إنفجار غضبه فيمالو التقت عيناها بعينه يتمناها لو تخرج، لوتسافر، بالبشاعة مشاعره وقسوتها، لكن مأسع أن تعيش مع إنسان يعزبك كل لحظة، ولاتستطيع إخفاء أي شيء عنه، يحس بأنفاسك وتنهداتك وبراكين غضبك المحبوسة، إنها تعرف جحيم إفلاسه وضجره، وتقترح عليه زيارات عائلية، معتقدة أنه يتسلى ويخرج مؤقتاً من غليان عواطفه، لكنه لايرد على اقتراحاتها، يتشبث بالصمت، أو يتفوه بكلمة واحدة: لا.

كل عيد يعتقد أنه في العيد القادم سيكون أفضل حالاً، وسيكون في جيبه بعض المال، لكن وحدة قياسه الأبدية - الراتب - مصابة بشلل لاشفاء منه، فلتبقه الحياة ماشاء لها أن تبقية حبيس قوقعته وكتبه وموسيقاه التي ماعادت تحرك في نفسه شيئاً سوى أوجاع مزمنة. تذكر موعظة سمعها ذات يوم للمطران جورج خضر الذي يعجبه لحد الإبهار إنه مثال الانعتاق الاسمي عن

كل الدنيويات، يعيش في قلب الحقيقة، ينهل من المحبة ويفيض تذكر قوله: إن الله ينعم على البعض بالغنى وعلى البعض الآخر بالفقر! تساءل عجباً كيف يكون الفقر نعمة؟! هل من شيء مهين للإنسان سوى الفقر، ترى كيف يفلسف الإنسان الفقر ويعتبره نعمة؟ ما أشد إحساسه باللاجدوى الآن، إنه مفرع من حقيقته، من بشاعة يأسه وتجذره عميقاً، يومه صار عدوه فليغب عن الوعي عن الوجود، ليتجرع عدة حبوب منومة ويغلق الستائر وينبه أمه بلهجة الجافة القطعية ألا توقظه من سباته، إنه يحس بنظرتها قبل أن ترتسم في عينيها، نظرة خوف وقلق ورغبة بالحوار دون أن تجرؤ عليه هاهو يفرق في النوم من الحادية عشرة صباحاً حتى الخامسة فجراً أفاق وهو يحس جسده مهترئاً كخرقة، وأمعائه تتقلص برخاوة تقلصت معدته تقلصات رخوة تطلب الطعام، رأسه ثقيل ونظراته زائغة وشعور غثيان يتموج مغرقاً جسده، لم يميز الوقت تماماً، لأن الفجر لم يكن صريحاً، لكنه انتفض مسرعاً من فراشه وقد أوشك أن يبول في بنطال بيجامته، ترنخ وكاد يسقط وهو يسرع باتجاه المرحاض، أدهشه بوله الداكن، ربما لأنه لم يشرب ماءً طوال يوم سباته، شرب كوين من الماء لكن حلقة ظل متجففاً.. غمرته فجأة موجة حنان عارمة تجاه تلك المسكينة الغارقة في النوم، تذكر نظرتها الوادعة المظلة من عينيها العميقتين السوداوين وهي ترجوه بصمت ألا يعتكف في قوقعته وألا يتناول حبوب السم، وكيف رد على نظرة التوسل الحنون بنظرة تشتعل بالحقد والغضب على الدنيا كلها، بما فيها هي... أمه التي لم يتساءل يوماً أي ألم تقاسيه بسببه، انهمرت دموعه حارقة وهو يغلي القهوة تخيل بشاعة تخليه عنها يوم البارحة، سرت قشعريرة قوية في جسده كله وهو يستعيد سحر نظرتها وهي ترنو إليه بكل طاقتها على حبه، كانت تقشر الثوم بعد أن نقعته طويلاً بالماء ليسهل تقشيريه حين انصب عليها صوته: أنا داخل قوقعتي لأنام فلا توقظيني... ياه، بأي قهر تلتك كلماته، ترك دموعه تنسكب غزيرة وهو يتمنى لو يقبل يديها بنهم لا يرتوي، عارفاً أنه لن يفعل أبداً... تساءل بخجل: لماذا نمت يوماً كاملاً؟! ترى هل سأنام كل

العطلة؟ فتح البراد ليأكل قطعة جبن، عسى تقلصات معدته تخف طالعه صينية فيها فروج محمّر وخضار متنوعة ياللمسكينة، طبخت أكلته المفضلة، وتغدت وحيدة فيما هو غارق في موته، ترى ألاستحق هذه الإنسانة أن يدخل البهجة إلى قلبها؟! أن ينسى إحباطاته ويأسه ويعيش معها بسعادة وأمان، أحس بقوة أن السعادة الحقيقية في البساطة، وأسف أشد الأسف على اليوم الذي سحقه، أما كان باستطاعته أن يتغدى معها وأن يتزها بعد الظهر على الكورنيش مستمتعين بدفء الشمس والبحر البعيد الذي فصلوه عن الناس بصحراء من الأسمنت، أشعل الفرن ليسخن الفروج والخضار، وأخذ يرشف قهوته وهو يقرّع نفسه بشدة على تصرفاته غير المعقولة ما هذا السلوك غير السوي يا كريم؟! هل الضجر الشديد والإفلاس يدفعانك لتخدّر نفسك يوماً كاملاً؟ أما يجب أن تتغير تجاه نفسك، التفت إلى كرسي بجواره ليجد ثيابه الداخلية وقمصانه مكوية ومطوية بأناقة، يالحبها الصامت الذي لا يطلب مقابلاً أبداً، ياللمسكينة الذي يتعامى عن الإهانات والتجاهل والتجريح، مدّ يداً مرتجفة ليلمس الثياب المطوية قرب منها وجهه متنشقاً رائحتها العطرة، مسحت يده بحنان على الثياب كأنه يمسح على وجهها حدثها: مسكينة أنت مسكينة، فجأة انبثقت فكرة في ذهنه بأنه هو المكسين إنها سعيدة في عطائها، أما هو فشقي، فلينسى المال ترى أما من سعادة خارجة؟ تذكر كيف كان يتنكد ويتعكر مزاجه بشدة وهو يحسب سعر المكيف الذي يعادل راتبه خلال عامين، طظ في المكيف، أليست السعادة في تناول يده، وماحاجه الإنسان في الحياة سوى لقلب يحبه؟ كم مضى من زمن لم يسمعها فيه كلمة حلوة؟ لم ينظر إليها بحنان؟ بل إنه يتحاشى أن ينظر إليها، يخل عليها بنظرة، يريد أن يعاقبها على ذنوب لم تقترفها أبداً، يريد لها ساحة لتفريغ سخطه على الحياة، بل إنه لايتورع عن إشعارها بأن وجودها عبء عليه ومقيد لحرية الشخصية... وهي تمتص كل براكين أحقادها وجنونه بنظرة تسامح وابتسامة ناعمة تخشى أن تكون صريحة أكثر من حد معين، كي لايعتقد أنها تستفزه.

أحس بالاشمئزاز هذا الصباح وهويعي بعمق كيف أنه يسمح للمال بأن يشوهه ويدمر حياته، ويلغي سعادته، وأقرّ لنفسه بأنانيته وقصر نظره، وبأنه لونهظر نظرة شمولية للعالم لوجد أنه بألف خير، لكنه لا يستحضر في ذهنه سوى الأفكار المزعجة، واعترف لنفسه بأنه آن الأوان ليحارب نكده المستفحل الذي تحول لطبع متأصل في نفسه... قام يمسح دموعه التي تباطأ انسكابها، أخرج الفروج الشهوي من الفرن، وأخذياكل بشهية من يتعافى بعد مرضٍ طويل، غارقاً بالندم على نهار البارحة، وكاد البكاء يعاوده وهو يتخيل منظر أمه وحيدة ومنكسرة، لكنه زجر نفسه: كفى دموعاً، وحدث نفسه بأن من واجبه أن يسعد المسكينة التي تعمل على خدمته وسعادته، غسل يديه، وفيما يده تمتد ليتناول فرشاة أسنانه تنبه لظرف دواء على رف المغسلة، إنها حبوب مسكنة، ترى هل تشكو أمه من شيء؟ وتخيل أنها عانت من ألم شديد في مكان مامن جسمها، ولم تجرؤ على طلب معونته إذعاناً لأوامره، انتابه قلق ملح، فاتجه إلى غرفتها ماشياً على رؤوس أصابعه، وفتح على مهل باب غرفتها، أدهشه أنها جالسة في سريرها تقرأ، كانت إحدى المرات النادرة التي قال فيها: صباح الخير... ردت بدهشة: صباح النور... كرم لم تتوقعه أبداً أن يبادلها تحية الصباح، وهي التي اعتادت على تجهمه الصباحي الصامت، المكهرب بالتوتر، ترجع صدى صوتها بذهنه - صباح النور - ليس فيه أثر لتمثيل أو عتاب، أي قلب هذا قادر على الصفح والمغفرة؟ حدث نفسه، هذه هي الأم، إنها محبة بلا حدود.

جلس على طرف سريرها، سألها: لماذا تلتزم غرفتها؟ لم تجب، لكنه حزر أنها لا تريد أن تزعجه، وتخشى أن تفسد عليه عزلته، قال لها متحاشياً ان تنظر عميقاً في عينيه كي لا تقرأ حزنه: ما أطيب طبخك...

ردت بصوت جاهدت أن تخفي نبرة الألم فيه: ألفت صحة على قلبك، وعادت تطرق في كتابها.

سألها: ماذا تقرئين؟ مدت له الكتاب، كانت تقرأ كتاب الهدوء للبابا

شئونة سألها: هل يؤمك شيء، فقد وجدت ظرف حبوب سيتامول على رف المفصلة.

اعترفت له بأن ضرسها ألمها بشدة، ودّ لو يقطعها قائلاً: لماذا لم توقظيني لكنه سكت خجلاً

سألها: ألا ترغبن بشرب القهوة.

قالت: أجل.

قامت من سريرها، تأمل قامتها النحيلة وقد تقوس كتفاها، يالإنسانة العظيمة إنها لم تعاتبه على يوم البارحة حتى بنظرة، تجاوزت سقطته، كأنها لم تحدث ياللعيب العظيم الذي لا يأس ولا يعاتب ولا يريد مقابلاً.

عجيب الإنسان، من يستطيع فهمه؟ البارحة دفعه اليأس لتجرع حبوب الغياب واليوم يمتلئ سعادة، وحباً لتلك المرأة الجالسة إلى جواره ترشف قهوتها، ويستمتعان بدفء المشاركة. منذ زمن طويل لم يرشفا القهوة معاً، كان يخرج من قوقته كل صباح متجهماً كعادته يحضّر القهوة دون أن يلقي عليها تحية الصباح، ثم يرجع إلى قوقته يشربها وحيداً فيما هي جالسة في الصالون تسمع نشرة الأخبار من محطات عديدة، أو تتسلى بمتابعة البرامج الصباحية وحيدة، ترى لم لا يشاركها تلك اللحظات؟ لماذا حرّمها وحرّم نفسه أن يبدأ نهارهما بكلمات لطيفة ونظرات دافئة؟ ولكن أي ندم ينفع الآن وقد اغتال مئات الصباحات برعونة وغباء، ويأس تركه يستحکم به ويسير ويشل إرادته، يالغرابة الإنسان؟ ما أسعده الآن يتذوق حبها وكأنها ذوبته مع دقيق البن، وصبته في فنجان.

انساب حديثهما حلواً عذباً، حكّت له بحماسة عن الفيلم التلفزيوني الذي سهرت تتابعه ليلة البارحة، وكم تمنّت لو يحضره معها، استمتع بسردها للأحداث، إنه يعطيها فرصة الكلام، يحبها بأن ينصت لها، خجل حتى الموت من تصرفه يوم البارحة، وزاد خجله صمتها التام المتجاهل ليوم البارحة، سألها:

ماذا سنفعل اليوم كان سيوافق على كل اقتراحاتها، وحين أعربت عن رغبتها بزيارة اختها الوحيدة أثنى على اقتراحها، بل طلب إليها أن تحضر قالب كاتو يأخذانه لها، أثنى على فكرته وقامت تحضر عجينة الكاتو، فيما هو يرشف قهوته للمرة الثالثة محارباً بقايا نعاس وخدر من تأثير حبوب اللعنة، كان ينصت طرباً لصوت آلة خفق البيض الكهربائية وأحس تلك الضجة موسيقى تفرحه، تذكر كم كان يصرخ محتداً من صوتها... وكيف كان يصفق الأبواب كي لا يسمع هدير المحرك... ضحك مبتهجاً وهو يستعيد طعم إفطاره الدسم هذا الصباح، قام يشعل التلفاز ويصغي للمذيع الخاص بالأبراج، دوماً هناك مفاجآت ساره وسعيدة، وغيوم ستنتشع، ولقاء مع النصف الآخر، ترى أية اكذوبة كبرى هي الأبراج، كان مندهشاً حقاً من فرح روحه الصريح والمألون، كأنه ربيع مباغت، يحل فجأة بعد شتاء قاس. حقاً النفس البشرية تتوق للسعادة والسلام، أحس بأسف عظيم كونه ضيّع سنوات من حياته في يأس أعمى، وما الحياة سوى لحظات قد تطول أو تقصر. فلم لا نقضيها براحة لم لانساعد أنفسنا لنكون سعداء؟! كان واعياً تماماً لنفسه في تلك اللحظات، وكان قرار حاسماً وقوياً يتكون في نفسه، سيثور على مشاعره السلبية، ولن يستسلم بعد للاحباطات آه الحياة جميلة حقاً، وتلك المرأة الرائعة التي تعيش معه تعطيه دروساً رائعة في الحب والسعادة كل لحظة... ليته يملك المال تلك اللحظة ليشتري لها باقة ورد كبيرة كاد يغتم من ذكر المال، لكنه سارع لطرده هذه الأفكار من مخيلته مذكراً نفسه أن سعادتها هي أن تراه سعيداً، وأن هذا اليوم ستعبره من أسعد أيام حياتها.

تأمل تجاعيد وجهها الغارقة في الطيبة، مأرق هذه الإنسانية، تشجع، وقبل خدها، كم مضى من زمن لم يقبلها؟! توقفت عن خفق الزبدة مع السكر مدهوشة تأملته بنظرة تشع أملاً، طلبت إليه أن ينحني لتمكن من تقبيل وجنتيه... طبعت قبلتها على خده فسرت دقائق من مشاعر الحب إلى جسده... اعترف بينه وبين نفسه أن خارج الحب لا يوجد سوى اليأس والموت،

وتذكر كم كانت محقة وهي تطلب إليه ألا يستسلم لليأس، وأن يتذكر قولها دوماً بأنها مستعدة أن تخلصه من عذابه بحبها... بالروعة تلك الفكرة! كم كان يهزأ منها ويحقرها، غير آبه بمشاعر أعظم إنسانة عرفها! لكن هل ينكر سعادته تلك اللحظة وعجينة الكاتو تنتفخ في الفرن وتنضج، مطلقة روائح ذكية تحرك شهيته أليست العواطف كتلك العجينة بحاجة لنار الحب لتنضجها! أحس بحبه يتجاوز أمه ليشمل خالته التي ستفرح بزيارته بعد انقطاع طويل انتشر حبه من صدره ليغمر الكون كله هذه المرة...

أصرت خالته أن تستقيهما على الغداء، ووسط دهشة المرأتين وافق مرحباً بالفكرة، كان يأكل بشهية وهو يشعر السعادة تفتح في ساعات يومه كالورود اليانعة... وفي المساء سهر مع أمه يتابعان الحلقة ١٨٠ من المسلسل المكسيكي المدبلج، وهما يعلقان ساخرين على تدني المستوى الفني والأخلاقي لهذه المسلسلات، لكنه حين أوى إلى فراشه، أحسّ بما يشبه الطعنة، طعنة ألم مبالغت تركز في شرسوفه، وهاله الفرق الشاسع بين حالته البارحة وحاله اليوم، إنه على طرفي نقيض! ترى ألا يدل هذا الوضع على عدم استقراره؟! وبأنه لم يصل إلى التوازن بعد، ألا يدل على أنه شخص لم ينضج بعد؟ إنه يخشى طباعه في تناقضاتها؟ ألا يشعر بأنه عدة شخصيات في شخص واحد؟ ترى كيف يوحد بين شخصه؟ أه فلينم الآن، لينم، لأن دمه لم يتخلص بعد من سموم المنوم الذي ابتلعه البارحة!!

كانت الساعة تتجاوز العاشرة صباحاً حين استيقظ، نظر في ساعته راضياً كونه استيقظ متأخراً، هكذا أزاح عدة ساعات من الضجر القاتل من يومه الذي يتربص به كالعادة، أحس بنشاط، وبأن خلاياه لفظت كل سموم المنوم، عاد الخجل يخزه في جلده، ياللعار، أيتناول منوماً كي يقتل الوقت ويهرب؟! قطب ممتعضاً من هذا المنطق السخيف والسطحي، واعترف لنفسه أن مشكلته ليست في الضجر أو لأنه لا يملك مصروف ثلاثة أيام عطلة العيد، بل لأنه محبط حقاً، ولأنه لا يستطيع تحقيق أبسط أحلامه، إنه مشلول تماماً، خرج من قوقعته لتغزوه

رائحة طبخ شهية، قال لأمه صباح الخير مجتهداً أن تبدو ولهجته صادقة، لكنه أحس كيف خذله صوته، وكيف كان لزجاً كأنه ملتصق بالوقت الميت، ردت وتفاؤل البارحة لا يزال يغمرها: صباح النور.

سألها: ترى ماذا تطبخين؟!

قالت: احزر من الرائحة؟

قال متحزراً: أشم رائحة بهارات شهية.

ابتسمت: أطبخ بازلاء مع لحم موزات، ورز بالكاري.

قال: ياسلام، كم أحب الكاري، هيا متى سنتغدى.

قالت: ليس قبل الواحدة، لقد دعوت خالتك إلى الغداء.

أحس بامتعاض، لم يكن راغباً برؤيتها، فقد اتخمه حضورها البارحة، لكنه قال حسناً، تمنى لو يملك بعض المال ليجلس في مقهى رصيف يطلب شايًا أو بيرة ويعود حاملاً الفاكهة أو الحلوى معه، لشد ما يشعر الآن بشهية لقطعة كنافة ساخنة وكثيرة الجبن، تأمل بعمق شعور العجز الذي يخلقه الفقر في نفسه:

يألهي ما أبغض هذا الشعور، انتابه رفض فظيع لافلاسه الجديد، أو لوضعه متأرجحاً بين الإفلاس التام، وبعض الملايم! وأحس وهو يرشف قهوته فيما أبخرة الكاري تزيد اشتعال حواسه نغمة، أن وضعه الذي استمر هكذا سنوات، قد يستمر إلى الأبد، أمر لا يحتمل بأي شكل من الأشكال واستطاع أن يتحرر من خجله وأن يبرر لنفسه أن لجوءه للحبوب المنومة كان له دوافع قوية حقاً، ذكر نفسه بالجهود الإيجابية الهائلة لمحاربة يأسه وبث الأمل في روحه لكن عبثاً... وبدا أمام نفسه أبله وهو يستعيد صور البارحة في سعادته الطافحة منه، سخر من قراراته الهشة التي خلاصتها التفاؤل، وانتفض غاضباً ليغير وضعه جلوسه وهو يقول لنفسه غاضباً: ياللعار، ياللعار، ليس في جيبي قرش واحد!

وتدفقت الشتائم إلى شفثيه، لكن صوت أمه تغني أغنيته المفضلة والأبدية (نحن والقمر جيران..) استوقفه، يالحنان هذا الصوت، إنه يسمعها دوماً تردد هذه الأغنية مذ كان طفلاً.. قام ليبدل ملابسه ويتسكع في الشوارع قبل أن يحين موعد الغداء، استوقفته صورة أخته المؤطرة بإطار من الفضة، اقترب منها، ونظر عميقاً في عينيها خاطبها بصوتٍ مسموع: أنت لاتشعرين بي.

ذكرته أمه أن يرجع إلى البيت تمام الواحدة، فيما هو يغلق الباب مغادراً، نادته برقتها المعهودة وطلبت إليه أن يشتري كيلو بندورة في طريق عودته، وعدّها أنه سيفعل فيما قلبه يفوص في الهم وهو يتذكر إفلاسه الحقير، سيتظاهر أنه نسي.. صفعته ذكرى عرس اخته منذ سنوات، حين كان بحالة افلاس مشابهة، يومها طلبت إليه أن يشتري لها تقريراً طبياً للزواج، لم يكن يحمل في جيبه سوى خمسين ليرة، وفوجئ أن ثمن تقرير الزواج مثني ليرة... عاد إلى البيت ظهراً متجاهلاً أمر التقرير، وحين سألته أخته عنه، تظاهر أنه نسي، ثم استطرد بأنه يفضل أن تشتريه بنفسها، لأنهم على الأغلب يطلبون صاحب أو صاحبة العلاقة.

جرّته قدماه إلى شارع الكورنيش، لتتحول روحه إلى نوارس بيضاء ترفرف فوق سطح الماء، تبوح بضيقها للسر الأزرق، تنهد قائلاً: ها أنا كما خلقتني يارب، لأملك شيئاً أجز نفسي من مكان إلى مكان بواسطة نقلي الوحيدة: قدماي وتوقف رغم أن خطواته كانت سريعة، ليتساءل: إلى متى؟! أما من مخرج؟! وتلّفت حوله كأنه سيكثر على الجواب، أو إيماءات تساعده على مسك طرف الخيط، لكنه لم يجد سوى البنائيات الضخمة والفخمة، ومن خلال نوافذها بانت الستائر المثناة المخملية أو من الحرير أو الساتان، وأبدي إعجابه بالفوانيس التي تزين أسقف الشرفات من الخشب المخطط البديع، شتم أصحاب النباتات الفخمة بسرّه، وسأل ظلّه القصير الذي ترسمه أشعة الشمس على الأرض: من أين يأتي أولاد الكلب بالمال؟ وأنا طبيب اختصاصي على أعقاب الأربعين لأملك شيئاً!!

جلس على مقعد مهترئ في الحديقة العامة، متأملاً المتسكعين والفقراء الذين يفرشون العشب أو يتمددون فوق المقاعد مستسلمين باسترخاء لذيذ لدفع الشمس، كان بائع مرطبات يكسر قطع الثلج الكبيرة ليغمر بها زجاجات المياه الغازية، أحس بعطش ورغبة شديدة في شرب الكولا، تحول الحرمان إلى وجه واضح يقترب منه حتى كادت أنفاسهما تلتحم، ففكر بالأطفال المحرومين والفقراء، كيف يشتهون أشياء كثيرة ولا يحصلون عليها، طافت بذهنه صورة متسولة كانت تطلب شوكولا وليس نقوداً.

تناول غداءه مع أمه وخالته، واجتهد أن تكون حالته أقرب لتفاؤله البارحة... حدثت نفسه بمرارة: لم يبق لي سوى متعة الطعام؟ لم تسأله أمه عن البندورة، يبدو أنها نسيت، أسعده أن امرأتين ستمشيان بعد الغداء، ومأن أنصفق الباب وراء المرأتين حتى داهمته عاصفة كآبة قاتلة، أحس بالتغير الفوري للامحة شاعراً تماماً كيف سقط القناع المفروض عليه أمام الآخرين، وبان وجهه المجلل بالحزن على حقيقته، تساءل بعينه الرائعتين المترعتين بالأسى: مامعنى الحياة حين تنعدم فيها الافاق، وإمكانية تحقيق أبسط الأحلام!

فاجأته أمه بعودتها المبكرة، تحمل بيدها كيس البندورة، تفرّس بوجهها المورّد، وانتابه شعور أكيد أنها ستعيش أكثر منه... آمن بهذا الشعور الذي داهمه كاليقين، ملحفاً نفسه بالأشخاص الذين يتمتعون بملكة قراءة المستقبل.

أخوة ملتبسة

يسأل كريم نفسه: ماالتعريف الأدق للأخوة؟ يجيب بعد تأمل: الأخوة تعني الانزلاق من رحم واحد... يحدّق في الفراغ أمامه، يكتب التعريف على حبيبات الهواء، يضيف كلمة هامة وقطعية: فقط. يحدث نفسه: الجملة غير مكتملة المعنى بدون تلك الإضافة، فالأخوة بتعبير آخر لاتعني شيئاً على الإطلاق، سوى انزلاق من رحم واحد، وماالمعاني السامية التي تلبس لها سوى أوهام أو حالات خاصة.

لماذا يصر الإنسان على تعذيب نفسه بالمثل والأحلام والآمال، كيف يقولون بأن الحياة لاتعاش لولا فسحة الأمل؟ كم بدت له هذه الجملة غريبة ومحمّلة بالتناقضات، هو الذي نقب طوال سنوات مراهقته وشبابه في مفهوم الأمل، وتبين له بأنه الخيط الذي يقوده من عذاب إلى عذاب، آه كم تأمل أخته، لايزال حتى الآن يسميها سلوى الحبيبة، كما كان يناديها حين كانا طفلين. انزلقا من رحم واحد وعاشا في غرفة دافئة العواطف ربع قرن. سلوى الحبيبة تصغره بعامين حبه لها أشبه بالوصاية، طباعهما المختلفة جعلتهما ينشدان لبعضهما أكثر، كان من النوع العنيد الطموح، وهي كانت هشة غير قادرة على المواجهة، كم كان يؤاسيها ويهدئ أعصابها المتوترة قبل كل امتحان، كانت تبكي كطفلة وهي تقول له: لقد نسيت كل شيء، لأتذكر شيئاً مما درسته، فيربت على كتفها ويمسح شعرها بحنان وهو يقول: كل الطلاب يظنون أنهم نسوا كل مادرسوه، هذا شيء طبيعي...

تقاطعته والدموع في عينيها: لكنني والله نسيت كل شيء... اسألني ستأكد.

- هيا، أغسلي وجهك، ودعينا نخرج قليلاً، نتنشق هواء نقياً.
يحس برخاوة جسمها حين ترفض، يصر على خروجها للنزهة فتدعن، يأخذها إلى الكورنيش يشتري لها الذرة المسلوقة والبوظة - يحكي لها حوادث طريفة يحس بالنشوة وهو يسمع ضحكاتها الصافية، يحس بيدها الصغيرة تتأبط ذراعه، وبجسدها يرخي ثقله عليه، وتقول له: أنت جبار لاتخشى الامتحان.
يجيب ضاحكاً: أنا لست جباراً، لكنك هشة لدرجة تضحكني.

تعترض: أنا أثير الضحك في نفسك!

- طبعاً، منظرِكَ وأنت تبكين خوفاً من الامتحان يضحكني، كوني أكثر صلابة ياسلوى، أهكذا يواجه الإنسان الحياة؟

- لكن الأمر خارج عن إرادتي، لاتتصور كم أخشى الامتحان، ثم، ثم إن نابليون كان يخاف الامتحان.

يضحكه كلامها يقول: لافائدة، لاتزالين طفلة شنتيرة.

- أتعرف يا كريم، أحسدك لأنك لاتخاف.

قال: أنت مخطئة، الخوف صفة طبيعية عند الإنسان، كل إنسان يخاف الذي يدعي عدم الخوف كذاب، لكن ليس من وسيلة للتغلب على الخوف سوى مواجهته.

كان يفاجئها دوماً بأشياء تحبها وتدخل البهجة إلى روحها، سوار من فضة ربطات شعر ملونة وبأشكال مبتكرة، تزين بها شعرها الكثيف الناعم، عقود تقليدية، أما استعداداه لعيد ميلادها فيبدأ قبل أشهر، ينتظره بحماسة وحب، يجب أن تكون هدية سلوى الحبيبة مدهشة، تدخل أعظم سعادة إلى قلبها.. يبدأ بالاقطاع من مصروفه قبل أشهر يخبيئ المال ورقة فوق ورقة، وكل

عيد يجب أن تكون الهدية من ذهب، وقتها كان يقدر أن يشتري الذهب، لأن العملة كانت تفلح وتزرع كما يقولون، لا ينسى كيف تلصص عليها ذات يوم من ثقب الباب وهي تعرض هداياه أمام صديقاتها قائلة: كريم رائع، اسم علي مسمى هذا السوار منه، وهذا العقد، وهذا الصليب، كل مافي العلبة هدايا من أخي.

تصفو نفسه وتستسلم لخدري لذيذ ونشوة، يتخيل زرقة صافية لامحدودة يحس روحه تشبه المدى الأزرق الساكن لبحر بلا حدود، هذه هي السعادة إنها مدى أزرق لامحدود، لطالما تساءل لماذا يحب أخته لهذه الدرجة؟ وكم تعرض لسخرية رفاقه وهم يقولون له: والله لن تدلل زوجتك مثل أختك. لم تدللها كل هذا الدلال؟! هو نفسه لا يعرف الجواب، يحس في أعماقها هشاشة وضعفاً، يشعر أنها تطلب القوة منه، تهب في روحه عواطف جامحة غايتها اسعادها، لا يمكن أن تشعر بسعادة إن لم تعط الآخر سعادة. اختبر تلك الحقيقة وآمن بها. كانت فرحته تفوق فرحتها بالأغراض البسيطة التي يقدمها لها، ولم يتساءل يوماً لماذا لاتعامله أخته بالمثل! صحيح أنها تقدم له هدية حلوة في عيد ميلاده، إنما لم تتصف هداياها له يوماً بالإدهاش، لم تشعره يوماً بأنها فكرت ماذا ستهديه قبل شهر أو حتى ايام. تأتي هداياها كيفما اتفق: البارحة رأيت هذا القميص، قلت سيليق بكريم، اشتريته لك مارأيك؟! لكنه يتظاهر حين يتسلم هديتها بأن الدنيا لاتسعه من السعادة، يبالغ في شكرها، عدا عيد ميلاده لم تفكر يوماً أن تدخل البهجة إلى قلبه.

أول خيبة مرّة أحسها يوم سافرت مع أمها إلى بيروت لتشتري جهازها استعداداً للعرس الفخم، كانت سعيدة بالعريس المليونير الذي قدم لها في ظرف أنيق كدسة من الدولارات، وقال لها: لاتبخلي على نفسك بأي شيء، اشترى كل ما يحلو لك.

حين طلبت رأيه بالعريس قال لها: إنه ليس من طيبتنا، خيوط حياته لاتشابهك مع خيوط حياتنا، قاطعته: لأفهم ماتقول.

- أقصد بأنه تاجر ثري جداً، يهلوس بالأرقام ليل نهار، نحن لسنا من هذه الطينة، نحن نهتم بالعلاقات الإنسانية الحقيقية، لدينا قيم، نهتم بالثقافة صحيح كل إنسان يحب الرفاهية ويسعى للبحبوحة المادية، لكن هذا لا يعني أن يكون الربح غاية الحياة، وأن يلهث الإنسان وراء مشاريعه التجارية مضيعاً فرحة الحياة الحقيقية.

قاطعته: أسألك عن رأيك، تبدأ بالمواعظ الفلسفية، يا أخي كن عملياً، ماذا تريد الفتاة في حياتها سوى رجل تعيش معه مرتاحة، منذر مليونير، تلتمع عيناها مليونير بالدولار، هل كنت أتوقع أنا الطالبة الجامعية التي تعتبر تأمين وظيفة امتيازاً لها، عريساً مثله.

أول مرة ينتابه غثيان من كلامها، يضطر أن يقول:

- وفراس، أما كنت تحببته؟!!

يتمتع وجهها، لم تتوقع تلك الصفعة، فراس زميلها في الجامعة، أحبته ثلاث سنوات ثم افتعلت شجارات وهمية معه لتتملص من حبه وترتمي في دولارات المليونير رمقته بنظرة عتاب قائلة: فراس ليس مستعداً للزواج، خدمة العلم تنتظره، ولا يملك

قاطعها بل يملك بيتاً...

أسرعت بالتدخل: أتسمي هذا بيتاً، إنه غرفة وصالون.

سألها: وما حاجة الإنسان في بداية حياته لسوى غرفة مريحة تؤوية، ثم إن المستقبل أمامكما واسع، ويمكنكما معاً أن... احتدت قائلة: مهلاً، مهلاً، لأطبق هذه الجملة (يمكنكما معاً) أتعرف ماتفسيرها، أي أنني سأفبق كل يوم منذ الفجر، لأرتب البيت وأنظفه وأحضر طعام الغداء، ثم سأنطلق لاهثة إلى الوظيفة، لأعود ظهراً مهدودة القوى، إنما سأتحامل على نفسي لأودي واجبي تجاه زوجي وأطفالي، وكل ما أتقاضاه من راتب حقير، بالكاد يكفي ثمن خبز خاصة وأن الحياة تسير من غلاء إلى غلاء...

انفجر في وجهها قائللاً: كفى، كفى، لماذا تسأليني إذاً عن رأي، لماذا

مثلت على الشاب المسكين بأنك تحببته وستكونين معه، ماأبشع الغدر، ماأبشع الحب الذي ينتهي بالغدر ياسلوى، لاتطلبى رأي بعد الآن، ارتمي في الملايين وتمرغى عليها، عفواً، ارتمي في ملايين الدولارات. قَرَب وجهه منها، ثبت نظره في عينيها الخضراوين الساحراتين وقال: الدولار أتجيبه أكثر شيء في الوجود أليس كذلك؟ كان يلتهب بالغضب.

بكت، حمد الحوار المشتعل بيكائها، تجاهل كل منهما مدار بينهما من كلمات لاذعة، سافرت إلى بيروت لتستعد للعرس، لتشتري أطناناً من الثياب الداخلية وقمصان النوم الحريرية والأحذية والثياب، لم تفتكره بهدية، كانت تلك أول طعنة يتلقاها منها.

خاف أن يعاتبها، خاف أن يكتشف بذوراً مختبئة في روحها لم تنتش بعد، لم تورق بأعظم شجرة تضرب جذورها عميقاً في الروح: الأناية.

كانت تفيض بهجة مع كل كيس تفتحه وتدلّق محتوياته أمامه، تأمل ياكريم هذا الفستان، أليس رائعاً، أعشق هذا اللون القرمزي، إنه لون الملوك أليس كذلك، وذلك الطقم البني من الجلد الطبيعي، أتعرف إنه أجود نوع في العالم، ماذا لو تحزر سعره! ياإلهي سيغنى عليك! لكن منذر قال لي: لاتبخلي على نفسك بشيء في فوضى الكلام والثياب كانت تبتعد، تبدأ بالغياب، ماعادت سلوى الحبيبة التي تبكي على صدره من مخاوفها وأوهامها، مستّها عصا سحرية الدولار هيّج روحها، أشفق عليها بأعماقه لأنها ماعادت قادرة على الإحساس بالسلام، سعادتها من النوع الشره والمتطلب والمرهق، كلما اشترت ازادات نهماً للشراء الجلد، والفراء، والشامواه، قذفوها في اروقة جنون العظمة، معطف الفراء الذي حلمت باقتنائه ماعاد يرضيها، صارت تطلب ألواناً أخرى وموديلات غريبة، عدة أدوات التجميل التي أحضرتها، أدهشته، أصابته بزوغان بصري، ونظره يقفز من لون أحمر شفاه إلى لون آخر، علّق بسخرية أليمة: لون شفّيتك أجمل من كل هذه الأصبغة.

رمفته بعتاب قائلة: كلها ماركة كريستيان ديور.

جاء دور العطور، حين قربت من أنفه زجاجات العطور ليشمها، انتابته رغبة أن يصفعها، أن يقول لها: إهدئي، كانت مشاعره محتفية وملتبسة، ومرتجفة من السير في طريق الحقيقة، ما كان يريد أن يعترف أن إنسانة أخرى تكشف له في أعماق أخته، لكن رغبته بصفعها تحولت للمسمة حنان وهو يعد عن أنفه ويقول بلهجة حزن لم يستطع مداراته: ألف مبروك.

دارت أمامه كفراشة، مطيرة تنورتها الحريرية الزرقاء، كاشفة عن فخذين بديعي التكوين، أطرق صامتاً: المليونير اشترى قوام سلوى البديع ووجهها الملائكي بحفنة من الدولارات... فعلاً الحقيقة مرّة. لكن هل هي سعيدة؟ هكذا تبدو. هذا ماتبحث عنه: الثراء، الحلم المشترك للشباب، كل صديقاتها حسدنها على العريس اللقطة، وكلهن أخذن للاستعداد لحفلة العرس عساهن يعثرن على عريس بمواصفات عريس سلوى، تحديداً في ثرائه! وجد نفسه يفكر بفراس، يحاول تمثل مشاعره تذكر هداياه البسيطة لسلوى، أقلاماً، دفاتر ذكرى أنيقة تقفل بقفل ذهبي أنيق، وروداً طبيعية نضرة، وخاتماً رفيعاً من الذهب محفوراً في باطنه الحرف الأول من اسمه واسم سلوى، إنها الخطبة الحقيقية كما كان يقول، خاتمه ضاع في فوضى الهدايا التي تدفقت على سلوى من خطيبها الثري.

لا يمكن أن ينسى هدية الخطبة التي قدّمها منذر لأخته، كانت سلوى تلبس فستاناً وردياً عاري الكتفين، ولاتزين عنقها بأي عقد، استعداداً لتلقي الهدايا، كان عنقها عاجياً مشدوداً مستعداً ليتطوق بالسلاسل، لكن الخطيب المليونير لم يقدم لها سوى عقيد وحيد مع إسوارته التي تماثله، فتح علبة مخملية كحلية كبيرة، وأخرج طوقاً اسطوانياً بعرض الاصبعين ينتهي برأس أفعى لها عينان خضراوان من الجاد ولسان أحمر طويل من الزمرد، الاسوارة كانت مماثلة تلتف على الذراع أربع دورات لتنتهي برأس الأفعى نفسه... انتزعت الأفعى شهقة زعر من صدر كريم... تمثلت أمامه اسطورة الخلق، كيف أغوت الأفعى حواء، أحس أن سلوى غدت أسيرة الأفعى، تعشق الذهب، حتى النظرة التي

شعت من عيني أخته بعد أن لبست طوق العبودية كانت نظرة استسلام طويلة وواعدة، بأنها ستظل الغنمة المطيعة والرقيقة إلى الأبد. الخاتم الخرافي الذي لبسته سلوى كان ينتهي برأس أفعى أيضاً، وقد ففرت فافها وابتلعت فيه فصاً من الماس يساوي ربع مليون ليرة على الأقل، صعق الحضور وحاولوا تخمين ثمن الأفاعي الذهبية! كان قلب كريم يختنق بانفعالات عنيفة ومتمردة إنما مبهمة... كان يحس بالمعاني الكاملة للأفاعي، تلك الأفعى التي دفعت الإنسان للسقوط، أترى العريس يتقصد المعاني الخفية للاسطورة أليس السقوط يعني عبادة الذهب!؟

طوال حفل الخطوبة كانت نظرات كريم تثقب وجه سلوى، تحاول استكشاف أحاسيسها، هل هي سعيدة، أم مبهورة؟ أم متورطة في شرك الدولار المنصوب لها بعناية، لأول مرة يعجز عن قراءة وجهها، نظره يرتطم بالأفعى الذهبية، عينا سلوى غائبتان وراء الكحل والظلال الزرقاء والزهرية التي تلون أجفانها، نظرتها ضباية زئبقية تجول في كل الوجوه، لكنها لا ترى أحداً، نظرة مبهورة بسحر المعدن الأصفر، وحين طلب إليه المصور أن يقترب من أخته ليلتقط لهما صورة تذكارية، تعمد أن يثقب بنظره عينيها، كان يحب الصفاء النقي في عينيها، يقول: عيناك مرآتان تعكسان كل لواعج روحك، لكنه الآن لا يعثر على روحها، بل يرى حدقتين سوداوين ضيفتين، يحيط بهما خضار بلا بريق كانت حدقتاها السوداوان أشبه بفوهتي بشرين بلا قاع، يتسعان للكثير الكثير من الهدايا الثمينة.

تقلب في فراشه طويلاً، وصور سلوى وخطيبها تلاحقانه، يقطعان قالب الحلوى بطوابقه العشرة، يتبادلان كؤوس الشمبانيا، ليشربا أنخاباً تبدو لها أنخاب صفقات تجارية بينهما، أحس أن اللسان الأحمر الدقيق للأفعى يكاد يثقب عنق سلوى وينغرس في ترقوتها الرقيقة التي تشف من خلال جلدها المخملي الناصع.

لماذا أحس بالخراب إلى هذا الحد في حفل الخطوبة؟ سيطرت عليه

مشاعر عديدة، الخراب، السقوط، الرغبة بالبكاء كالطوفان، وأخيراً صورة فراس مخذولاً، وحيداً ومطعوناً في غرفة حبه المحطمة... ومن حين لآخر، تمزق تخيلاته صورة سلوى تصرخ محتجة: لأطبق الكفاح، ستداهمني الشيخوخة باكراً من التعب والإرهاق، أريد أن أرتاح في حياتي... ليس بالحب وحده يحي الإنسان، بل بالدولار!

ضاعت سلوى، طوال الليل كان يهلوس بضياعتها، ماعاد يتعرفها، كان يتساءل من تلك الفتاة التي تقصد مزين الشعر ثلاث مرات في الاسبوع، وتبدل طلاء أظافرهما كل يوم ليتماشى مع ألوان ثيابها، مشاكلها النفسية العميقة بأن الخياطين يخلفون بمواعيدهم، وتقلق حتى الفجر خوفاً ألاتوفق بفستان عرس يدهش المدعوين لدرجة يحتل اسبوعين على الأقل من أيامهم يمتدحون الفستان البديع.

كان يحاول أن يجد حلقة الوصل بين البيئة التي عاشت فيها سلوى وبين اختيارها لرجل أحلامها، سلوى بنت استاذ الرياضيات المشهور في المدينة بنزاهته وأخلاقه والذي نمت عند أولاده حب القراءة والاهتمام بالثقافة والقيم النبيلة، والذي أفنى حياته في الدروس الخصوصية ليؤمن مستوى معيشياً لائقاً لكريم وسلوى، أكان يرضي لها بهذا العريس لوبرقي على قيد الحياة؟!!

أمه تنظر لارتباط سلوى بسطحية، تفرح للشباب الغني القادم من بلاد العم سام والذي اختار ابنتها من بين مئات الفتيات الحاملات بالعريس الثري، كيف يعيش هناك؟ كيف جمع كل هذه الثروة؟ ماهي طباعه؟ ماأهدافه في الحياة؟ ماالقيم التي يؤمن بها؟ لم تسأل؟ حكى لهم عن طموحه الذي دفعه للهجرة إلى أميركا مذ كان في السابعة عشرة من عمره، عمل في تجارة الموزاييك، ربح الكثير، ثم صار يتاجر بكل شيء... كلمة مطاطة تبتلع كل أنواع التجارة القانونية وغير القانونية. فتنته سلوى بقوامها المشقوق البديع وعينيها الخضراوين، اعترف بأن جمالها صعقه، وازداد إعجاباً بها حين عرف الأسرة الشريفة التي تنتمي إليها... الوالد لم يجمع ثروة لكنه جمع سمعة وشرفاً لايقدران بثمن..

و حين سأل كريم أية كتب يحب أن يقرأ، ضحك قائلاً أن لا وقت لديه للقراءة و حين سأله عن الأفلام التي يشاهدها في أميركا، ردّ بسخرية صريحة بأنه يترك السينما للعاطلين عن العمل. كان حديثه المفضل شرح قصة ثرائه للناس، حدسه المرهف الذي كان يدلّه على الصفقات الرباحة، تلاعبه الذكي على القوانين بحيث يخرج مثل الشعرة من العجين، عبقريته في شراء عقارات قديمة، ترميمها وبيعها...

في حفل العرس الاسطوري، ترّبع العروسان على جسر انجز خصيصاً لهما من خشب الزان، وقد فرشت أرضه بالسجاد الأحمر المرشوش بالورود والياسمين، يعبر عرض بركة واسعة لأشهر فندق في المدينة.

جلس العروسان على كرسيين مذهبين، وقد ارتفع خلفهما جدار من الورود يزيد ارتفاعه عن المترين، بدت سلوى كأنها هابطة من السماء بفستانها الأبيض والطرحة البيضاء المرصعة بأحجار ماسية لماعة... كانت فاتنة حقاً بالأضواء المنعكسة عليها وبالعرش الذي تعتليه فوق البركة، أمامها على طاولة صغيرة اصطففت الهدايا فوق مفرش من المخمل الأسود، كلها من الذهب والماس، هدايا من أقارب العريس ومعارفه الذين تجمعهم به أواصر المصالح العميقة... و حين حان دور كريم ليقدّم هديته لاخته، تمنى لو ينهار الجسر وهو يمشي فوقه ليصل إلى صاحبة الجلالة، كان يمر بأسوء أزماته المادية ولم يبق معه ثمن أرخص حلق ذهبي بعد أن دفع أجار العيادة وضرية الدخل لكن أمه أنقذته من أزمته، أحست به دون أن يشكو أو يلعن، دخلت عليه قوقعته قبل العرس بأيام، وضعت على طاولته علبة صغيرة وهي تنظر إليه بحنان: قدّم هذه الاسوارة لاختك يا حبيبي.

كانت اسوارة جميلة من الذهب مرصعة بأحجار من الفيروز واللؤلؤ، هي هدية الأم يوم زفافها... أسرع بالخروج من غرفته كي لا يخرجه ثقل نظرتها، تلاطمت المشاعر المتناقضة في روحه، ودّ لو يصرخ مفرغاً احتقان روحه: خذي اسوارتك، وقدميها أنت لصاحبة الجلالة، أنا لست شحاذاً... تخيل أنه يرمي

الاسوارة أرضاً فتطير أحجارها الفيروزية. لكن يده امتدت بانكسار لتلمس المعدن البارد، وحزر أن أمه قصدت الصائغ ليّمع الاسوارة. اضطر لقبول هدية أمه لأنها تعرف أنه لا يملك شيئاً... وحين عبر الجسر الاصطناعي فوق البركة ليصل إلى أخته، ويلبسها الاسوارة في معصمها المختنق بالأساور، ثم ينحني ليقبلها، أصابته لحظة قشعريرة، ودوار، كاد يهوي، لثوان وجد نفسه يغور في عمق البركة، إنما دون أن يرتطم بالقاع، عمق سحيق سحيق، ربما انتابه الدوار من كثافة عطرها، أو رائحة شعرها بعد أن تيبس بشكل هرم فوق رأسها وانغرس فيه تاج عريض من الأحجار اللماعة، أحس بهروب الدم من وجهه، كانت نظراته تغوص في وجهها إنما لم يستطع أن يراها أبداً لأن هالة من ألوان وأنوار زائفة كانت تحيط بها، لم يعثر على عينيها الساحرتين ولا على بشرة وجهها النقية كالبلور، لم يرها رغم أنه قبّل وجنتيها المطلبتين بأحمر الخدود، والكريمات اللازمة لتصوير الفيديو.

سمع صوتها غريباً جعل بدنه يقشعر: آه، شكراً يا كريم، شكراً يا حبيبي، عقالك.

كان يحس بكاميرا الفيديو تتعقبه، وهو يقدم هديته لاخته، ثم تلاحقه هابطاً الجسر حتى جلوسه في كرسيه، كان حزينا حتى الضياع، يحس بصمت روحه يزداد ثقلاً كلما علت الموسيقى المعلبة في الخارج، كانت الموسيقى أشبه بالعواء وكانت دموعه تنضج وتزداد كثافة وهو يتلعها متحسناً طعمها المالح في حلقه.

غارت عيناه من الحزن، أحس أنهما ماعدتا سوى صفحتين سوداوين بلاياض، كان يتساءل سؤالاً أبداً يتكرر: لماذا تموت الأشياء الجميلة؟! وكانت سداجة سؤاله كافية لتلخيص كل آلام روحه، مازاد من ألمه فشل ذاكراته في استعادة صور سلوى بينطال الجينز والقمصان الملونة، أو بتنايرها الهفافة البسيطة التي تتمايل معها كيفما تحركت... انبجست عن روحه المحتقنة جملة أشبه بالخاتمة للحفل: يا لسخف الذكريات! من أنت الآن يا سلوى؟ من أنت!

وحده الويسكي ساعده ليلطف مشاعره، فليشرب، كم يحتاج الآن أن يغيب،
أن يخدر ألمه الذي يحاصره كاللعة... كم يحتاج لمخدر يجعله يتحمل احتضار
سلوى الحبيبة... لتحتلها امرأة من معدن أصفر بارد وثمان!

ظل طوال أسابيع لا يصدق أحاسيسه بعد سفر اخته إلى أميركا، بدا له
كل ما حدث حلماً ثقيلاً، هل تزوجت حقاً؟ أكان حفل العرس حقيقة؟ هل
غدت اخته زوجة المليونير المتعدد المواهب التجارية؟! ما بها أيامه تتجرجر وراءه
كأنها مربوطة بعقبه بسلاسل حديدية، لكن أيكذب السرير الفارغ والخزانة شبه
الخاوية إلا من ثياب ماعادت تليق بمقامها، وعلب العطور الفارغة المبعثرة في
قاع الخزانة؟ هل اختارت سلوى شريك حياتها لأنه أعجبها بصفاته الشخصية
أم لثروته؟ سلوى التي كانت تبكي تأثراً حين تقرأ النبي لجبران. والرسائل العذبة
التي تبادلها مع مي زيادة، سلوى التي اشترت ثلاثة نسخ من كتاب رسائل
محمود درويش وسميح القاسم وأهدتها لصديقاتها المقربات، لأنها افتنت
بالرسائل شديدة العذوبة لدرجة البكاء.. سلوى التي تقلق بعد قراءة روائع
دوستوفيسكي، والتي اعترفت لأخيها بأن شخصية راسكونيكوف في الجريمة
والعقاب تسيطر على دماغها ولا تستطيع الفرار منها، وبأنها متعاطفة معه حتى
الذوبان... أيعقل أن تختار تلك الفراشة الحرة هذا الثري الذي يسخر من القراءة
والفن... ولا تعني له الحياة سوى تكديس الدولارات... تذكر كم مرة داهمها
تكتب رسائل لفراس، وكيف يتضرج وجهها بحمرة قانية خجلاً.. كيف
تخلت عنه بهذه البساطة؟! ويأتيه الجواب سافراً ساخراً.

- لا يستطيع الإنسان أن يعبد إلهين، إما المال، وإما الله...

ليس أمامه سوى الفراغ المثائب يملؤه بالصور، صور مبشرة مرمية برخاوة
في ظلمة أيامه، تتداخل الصور، تلتف الأفعى الذهبية على عنق سلوى، تفرس
لسانها الأحمر في حنجرتها، يتدفق الدم غزيراً، تتلوى الأفعى لتحيط بكتاب
النبي لجبران تبتلعه، تلحقها الأفعى الأخرى التي تلتف أربع مرات حول معصم

أخته تسرع في زحفها، وتندس تحت وسادتها مصدرةً قهقهات ساخرة من الأخ المسكين، لأفكاره دوي يصم أذنيه، ويرهق جسده، إنه يسمع صوت استهزاء مستمر، أيهزأ به الزمن أم الحياة أم كلاهما؟ لماذا تتصارع عواطفه وأفكاره بهذه الطريقة وتسخر روحه ملعباً لها! لماذا يشعر أنه مهان مذ ارتبطت اخته بهذا الثري؟ من الذي أهانه؟ أخته أم زوجها أم زمن القهر والمال؟ لماذا يشعر بان شيئاً أصيلاً وحقيقياً في داخله قد دمر تماماً بعد زواج اخته؟ ولماذا يمنعه الكبرياء من التعبير عن عواطفه وأفكاره أمام أمه على الأقل تلك الشاهدة الصامته على دواخله؟ ظلت أفكاره تتلاطم في رأسه كأموج هائجة لا تمل في صراعها مع صخور الشاطئ، إلى أن انفجر ذات يوم واجداً متنفساً لاحتباس مشاعره المكبوتة، بجملة بسيطة قالتها أمه: ألا يجب أن نكتب لسوى؟

صرخ مهتاجاً: ولماذا لا تكتب هي، يبدو أنها نسينا زوجة المليونير، ماعاد من مقامها أن تكتب لنا، ماعادت تملك الوقت للتفكير بنا، إنها مشغولة بحساب ثروة زوجها. كان يسترسل بغضبه متلذذاً مفجراً ضيقه من الحياة ولم ينتبه لنظرة الذعر في عيني أمه، وهي تتخذ وضعية الانكماش لتحمي نفسها من عواصف غضبه، بدا وكأنه قد قرر أن يفرغ جعبته من الكلام، وليكن ما يكون، لايهمه الخسائر، سيرم ما يقدر عليه فيما بعد، أو ليترك الخراب قائماً، فلن يبالي! أمام ذهول أمه، هدأ، عرف أنه سيخجل ليس لأنه قال ما قاله بحق أخته، بل لأنه صار عارياً تماماً أمامها، أمكنه أن يقرأ أفكارها، ستعزو ثورة غضبه لغيرته من اخته، ستعذره، بعد أن هدأت عواصفه دهش كيف باح بكل مكنونات قلبه أمام أمه، حرقته صورة سلوى بوجهها النقي ونظرتها الهادئة وهي ترنو إليه عاتبة، صورتها طالعة من قلبه، تعاتبه: أمكذا تحكي عني يا كريم؟!!

اجترّ ندمه لأيام، فرّغه بعدها برسالة مشحونة بالعواطف والأفكار لأخته، بدا متصالحاً مع نفسه ومعها ومع العالم وهو يدخل الرسالة من شق صندوق البريد متمنياً وصولها السريع إلى أخته الحبيبة.



أيقظته فجراً برنين الهاتف الملحّ وصوتها المترع بالشوق، المتلهف للكلام:
- كريم، كم أنا مشتاقة إليك.

- من سلوى الحبيبة!

قالها بصوتٍ صافٍ نابعٍ من قلبه، زال تعكّر روجه، وانقشعت غيوم
خيباته، نسي الخطوبة والزواج والأفاعي الذهبية، والتماع عينيها أمام مظاهر
البدخ، كانا وجودين، صوتين، يصل بينهما سلك المحبة المتجذر عميقاً منذ
الطفولة.

- ما أحلى رسالتك، لقد أبكتني طويلاً، أرجوك يا أخي اكتب لي دائماً.

طرب لحرارة صوتها قال: سأكتب لك دوماً، وأنت أيضاً اكتبي لي.

أحس باختناق صوتها بالدموع وهي تقول: أنا، أنا أحس نفسي تائهة،
كل شيء حولي غريب لأعرف كيف.. اختنق صوتها، ذاب قلبه، تمنى لو
يخترق سلك الهاتف، ويتحدى المسافات، ليحضن رأسها ويؤاسيها كما كان
يفعل حين تبكي خوفاً من الامتحان، قال بلهجة تصنع الفرح:

- ياسلوى الصغيرة، الحبيبة، هذا شيء طبيعي في البداية، لكنك

ستعتادين، كيف حال مندر؟ هل أنت مرتاحة معه؟

- إنه لطيف ويغمرني بالهدايا، لكنه مشغول جداً، لأراه إلامساءً، وكل

النهار أظل وحدي.

- اشغلي وقتك ياسلوى، ألم تتسجلي في معهد لتعلم الانكليزية.

- لا، أحس نفسي مشوشة، رغم أن مندر يلح علي لأتسجل في المعهد.

- بالتأكيد ياأختي، ستشغلين نفسك، وستمتلكين الوسيلة الوحيدة

للدخول في المجتمع الجديد اللغة. - وأنت ماأخبارك ياكريم، أمازلت تتأرجح بين

العيادة والمشفى، اكتب لي عن كل شيء بالتفصيل.

يجيب ضاحكاً: لم يمضي سوى شهر على سفرك، وتتوقعين تغيرات

كثيرة، لم يتغير شيء، أخباري هي نفسها، كما قلت أتأرجح بين العيادة
والمشفى، ومساءً مع شلة مقاهي الرصيف، نجتزّ الأحاديث نفسها.
- أحسدك يا كريم.

- أتحسديني، على ماذا؟

- لأنك تعيش في وطنك، في مدينتك، وسط أهلك وأصدقائك. مع
أمك الحبيبة..

- إنها قربي تنتظر دورها لتكلمك.

- حسناً، لكن عدني يا كريم أن تكتب لي دوماً.

- أعدك ياسلوى الحبيبة، والآن سأعد قهوتي وسأكتب لك وأنا أرشفها.

- أشكرك يا أخي الحبيب، أشكرك يا صديقي الوحيد.

ترك أمه وأخته تتناجيان، ابتداءً يكتب لأخته بشحنة عاطفية عالية،
تجسدت صورتها أمامه مراهقة صغيرة تجلس على طرف سريرها وفي حضنها
كتاب الجغرافية وتقول له: نسيت كل شيء، وتذرف الدموع. استهل رسالته
مبتدئاً بوصف صورتها باكية خوفاً من الامتحان مفجراً شوقه وتعاطفه معها
إنطلاقاً من هذه الصورة، سير قلمه نحو هدف أساسي: مساعدتها في غربتها،
وأسعده أن يرضي غرورها وهو يصف مشاعر افتقاده لها، وتخيلها لطيفها في
البيت كيفما تحرك، ولمح بأن ظروفه جيدة وبأن عمله في العيادة يتحسن. ترى
لماذا يكذب؟ ربما لأنه أحس أن الروح العالية والمتفائلة في الرسالة يجب أن
تشمله أيضاً حتى لو اضطر للكذب.. وجد نفسه يبحث في ألبوم الصور عن
صورة معينة طفت في خياله، صورتها معاً على الشرفة يشربان عصير البرتقال
ويمسكان الجريدة التي أعلن فيها أسماء الناجحين في الشهادة الثانوية، وأسم
سلوى بينها، روحها تضحك في هذه الصورة يكاد يسمع رنين ضحكها
الصماء، تخيل مقدار البهجة التي ستشعرها وهي تتأمل تلك الصورة الرائعة
بالأبيض والأسود. حثّ أمه على الكتابة لسلوى أيضاً، قالت له وهي تمسح

دموعها: الله يلعن الغربية، لأستطيع أن أكتب الآن وأنا منفعلة هكذا. لكنه قدم لها فنجان قهوة ووضع في حضانها أوراقاً بيضاء وقلماً وقال هيا اكتبي، لاشيء سيسعدنا كرسالة منك. من شق علبه البريد انسلت الرسالة من بين أصابعه، وقف لبرهة قبل أن ينطلق إلى المشفى، لكأن شحنة من عواطفه الجياشة تنطلق من صدره عبر الشق وتعلق بالرسالة. تمنى لو تصلها الرسالة بأسرع ما يمكن وأن تدخل البهجة والطمأنينة إلى قلبها.

أحس أنه يجرجر ندمه مع خطواته البطيئة إلى المشفى، كم قسا عليها تلك المسكينة، تذكر كيف صرخ بها محتداً وهي تدلق محتويات أكياس مشترياتها، واتهمها بأنها تغيرت وأصبحت تهتم بالمظاهر وتعشق الذهب... صورها خياله في تلك اللحظة طفلة بريئة تفرح بالعيد وهداياها كيف استطاع أن يعكر فرحتها ويقسو عليها ألم يكن فرحها عادياً يشبه فرح كل شابة تنتظر يوم زفافها؟ وتفرح بجهازها؟ هل اتهمها بأنها تخلت عن حبيبها مقابل العريس الثري؟! الشري؟!!

أيتهمها أم يتهم زمناً عاهراً، جعل الناس لاتقدر أن تعيش وأن تحب بدون المال! لو كان الطريق سهلاً ومهدداً في علاقتها مع فراس، لما تخلت عنه، لقد أحست بالتأكد باستحالة وبصعوبات هائلة تنتظرها، أحست بلا جدوى الكفاح - ترجع صوتها في أذنه - براتينا معاً بالكاد نأكل، نأكل فقط! معها حق، أين مكان الحب في عيشة خانقة كهذه! إنها حرة في اختيارها ومنذر رجل ناجح، كافح سنوات في أميركا حتى جمع ثروة... اعتذر لطيفها من كل قلبه، ووعدنا أنه سيظل أميناً لها وسنداً مهما كانت بعيدة، غض بصره وخياله يصفعه بصورتها مهتاجاً يتهمها بالبخل وقلة الاحساس لأنها لم تحضر له هدية حين ذهبت للتسوق في بيروت، صحيح أنه لم يعبر أمامها عن استيائه، لكن الخطيئة تبدأ من الفكر، كم يغذرها الآن، بالتأكيد نسيت غاب عن ذهنها وهي مهتاجة من السعادة، والارتباك من الحياة الجديدة التي تنتظرها، أن تشتري له هدية، لكن قشعريرة تقزز هزت بدنه وهو يدخل الباب الحديدي للمشفى

وصوتها يطن بأذنه: منذر يغمرنى بالهدايا، انطفأت للحال شحنة الحب المتفائلة العالية التي ابتدأ بها صباحه بسماعه صوتها. لكن لماذا همدت عواطفه وتوارت شمس أشواقه وراء سحب داكنة من الخييات؟! ترى أين يكمن الجانب المقزز في كلمة (الهدايا) تخيل منذر يغمر أخته بالهدايا ليمتلكها، علاقتها علاقة امتلاك ومصالح، ليس فيها حب ورقة وانعتاق عن الماديات! لكن، أليس من واجب الزوج - خاصة إذا كان ثرياً - أن يقدم الهدايا لزوجته أحس بالتعب ينتشر في أوصاله بتموجات متلاحقة، تمنى لو يغرق في نوم عميق، يعفيه من التفكير والتحليل، تنبه بأسى كيف أن مشاعره وأفكاره لاتقف على أرض ثابتة بل تتأرجح بين أقصى الحب والتفاؤل وبين هوة الحزن واليأس! أيدل هذا أنه شخص غير ناضج بعد؟ أم أنه لا يزال يسعى ليجد صيغة يتعامل بها مع زمن التغيرات والخييات هذا! متشبثاً بخيوط الوهم والتفاؤل التي سرعان ماتقطع.



كيف يتراكم الزمن أحياناً بطريقة خفية، تجعل الإنسان يتوقف مشدوهاً وهو ينظر للوراء، غير مصدق أن سنواتٍ صارت تفصله عما اعتقده قريباً منه، لكأنه حدث البارحة. هاهي سلوى تغدو أمماً، وتساfer أمه إلى أميركا لتقضي بجانبها ثلاثة أشهر، مرّت سنتان لم يلتقيا، كان يكتب لها بانتظام رسائل يتقصد أن تفرحها، يتلقى رسائلها القليلة مجبراً نفسه على الابتسام بعد انتهائه من قراءتها، لكن دخيلته كانت تتقلص بحزن وخيبة في كل مرة... مالذي يشعره بالخبية في رسائل أخته؟ إنها لطيفة، تبثه أشواقها وتمنى له الخير والسعادة، وتمنى لظروفه المهنية أن تتحسن، وتمنى اللقاء القريب... وليس سوى التمنيات، التي يشعرها جاهزة سلفاً كأنها تقتطعها من كتب الرسائل التي تباع في المكتبات. إنه يقرأ تمنياتها وأشواقها فلاتدب في أوصاله أية حرارة. إنه يشعر بزيف كبير في علاقتها، زيف بدأ يتشكل ويتسرب منذ زواجها، تحديداً خطوبتها.

لم تعد معنية به، خيوط حياتها ماعادت تتشابك مع خيوط حياته،

يفصلهما محيط كبير من دولارات وعطايا. تحوّل في خيالها إلى صورة، إنه الأخ المحب الذي تصلها منه رسالة كل عشرة أيام، لكن إلى أي حد يتواجد في مستقبلها وتفكيرها؟ هاقد مضى ثلاث سنوات لم يلتقيا، كانت تفتكره خلالها بطريقة تسبب له عظيم الألم، تحوّل له مبلغاً ثابتاً كل عيد ميلاده مثني دولار، هديتها له، باللهدية التي يغدو استلامها غصّة في الحلق، جرحاً في القلب! اضطر لقبولها لحاجته الماسة إليها، في المرة الأولى كان محاصراً بضريبة الدخل، وفي المرة الثانية كانت عيادته تمر بأسوأ فترة عرفها إذ لم يقصده مريض طوال ثلاثة أشهر، وفي المرة الثالثة كانت ضريبة التنظيفات والتي يسميها بسرّه ضريبة القمامة تفاجئه بتراكمها خلال ثلاث سنوات كان يحتاج لصدقة أخته على شكل هدية، أو لهديتها التي تأخذ شكل صدقة، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التساؤل: أي مبلغ تافه هذا مقارنة مع مستوى معيشتها وثراء زوجها... وهو يتفرج بعيون خرساء على فيضانات الثروة، اشترى زوجها فيلا في العاصمة، وكلف أشهر المهندسين ليشيدوا له قصراً في قريته التي شهدت ولادته، ولم تتبأ له بكل هذه الثروة، واشترى شاليه من طابقين على البحر... رحلات سياحية في أوروبا، أمام هذا المستوى الفاحش من الثراء، أتكون هديته السنوية من أخته مثني دولارا! هل كان ليتصرف مثلها لوتبادلا للمواقع... ياه، ياه تنطلق من أعماقه محمّلة بالشجن، يتخيل أنه سيغمرها بالهدايا، وسيجدد أثاث البيت القديم، وسيشتري لها سيارة، ويدعوها لزيارته في أميركا مرة على الأقل كل سنة، وسيصحبها معه في رحلاته السياحية، إنه واثق أنه سيتصرف بهذه الطريقة لو شاء قدره وسكب عليه الثروة. مامعنى الحب إن لم يكن فعلاً؟ أي سخف لأشواق من الورق، وتمنيات من حبر ورغبات تأخذ شكل طوابع بريدية!!

انتابه فرح هائج ممزوج بالقلق حين قررت زيارة الوطن بعد حوالي أربع سنوات من مغادرته ستحضر مع طفلتها التي يتابع نموها من خلال صورها، يشتاق أن يضمها إلى صدره ويقبلها ويتشممها... كان أول رد فعل له حين

علم بموعد حضورها أنه قصد ساحة الأسماك واشترى أجود أنواع السمك، بسخاء، انهارت ميزانيته بعد أن دفع ثروته لبائع الأسماك! داعبه خياله مازحاً، أنت دفعت كل ماتملك ثمن السمك، ليكون غداء فاخراً تعده لاختك، ترى هل تدفع هي كل ثروتها لك!! يا للمزاح الثقيل والغبي، اتهم حرّ تموز الذي لا يطاق بأنه سبب مزاحه الثقيل هذا لسوء الحظ أجّلت أخته سفرها عشرة أيام بسبب مرض ابنتها، انتابه قلق عظيم من فساد الأسماك بسبب انقطاع التيار الكهربائي لساعات كل يوم، وبسبب حرّ تموز الخائق، لكنه كان يعزي نفسه بأن السمك مثلج في الفريزر، كان يجس الأسماك مراراً في اليوم خشية أن تلين وتفسد، وكل مرة كانت رائحتها الواخزة تخرش أنفه، اللعنة على سوء الحظ، أكان من الضروري أن تمرض الطفلة ليتأخر سفر أخته. كان فرحاً وقلقاً في آن، اشترى دمية للصغيرة وفتاناً حلواً، تمنى لو يشتري لها الكثير من الثياب الجميلة من البالا، لكنه كان يحدس أن ابنة المليونير لا يمكن أن تلبس من البالا!

اشترى لأخته المجموعة الكاملة لنزار قباني، بالتقسيط، دهش صاحب المكتبة من حقيقة أن طبيب اختصاصي بالجراحة ومنذ أكثر من عشر سنوات يشتري كتباً بالتقسيط!

كان لقاءه معها حاراً، لكنه مبطن بأمر غير معلنة، قلبه مبتهج لكنه في وضع ترقب. أحب الصغيرة التي ألفتها بسرعة، قلبت سلوى مجموعة نزار قباني وهي تعترف له أنها لم تقرأ كلمة واحدة منذ زواجها... بدورها قدّمت له فيض هداياها، حذاء بديع من الجلد، ثلاث قمصان من القطن، كنزة رمادية من الكشمير، طقم من الجوخ الفاخر، بيجامة رياضية، ربطات عنق حزر أنها لزوجها لأن تجمعات قماشها عند العقدة كانت واضحة، غضّ نظره رغم إحساسه بغصة ألم، لم يشأ أن يعلّق كي لا يفسد الجو البهيج بينهم... طبخت الأم الأسماك مشوية مع الزيت والثوم كما تفضلها سلوى، وما أن تذوقت سلوى اللقمة الأولى حتى دفعت الصحن بعيداً وهي تقول بامتعاض:

- السمك فاسد، لاتأكلوه وإلا تسمنا.

أسرع يقول وهو يهرب بنظرته المنكسرة بعيداً عن أمه وأخته: معك حق،
الأفضل أن نرميها في القمامة.

العين الوحيدة التي استطاع أن ينظر إليها، وتتعاطف معه هي عين السمكة المستديرة، وقد فقدت كل أمل لها، علقت أمه مؤاسيه: خسارة، هذه الأسماك من أفخر الأنواع... قال كاظماً غيظه المتعاضم: هيا، لرميها في القمامة. كان يعرف وهو يدفن الأسماك في عمق الكيس الأسود أنه لن يستطيع شراء مثلها إلا إذا تحن عليه القدر، وأرسل إلى عيادته عدة مرضى! كل الحوارات التي دارت في ذهنه بينه وبينها تبخرت، أحاديث الروح والبوح العميق التي انتظرها شهوراً قبل مجيئها ذابت في الفراغ... كان أكثر قرباً منها حين كان يرأسها، استنبط ذهنه تعاريف جديدة للوحدة: أن تكون وحيداً، يعني ألا تقدر على البوح بمكنونات قلبك لأناس كنت تعتقد أنهم قريبون منك ياه كم تغيرت ياسلوى، أكاد لأعرفك، أنت تلهئين من عمارة إلى عمارة بحثاً عن مكتب له مواصفات معينة رسمها لك زوجك سلفاً... كل يوم تزورين عدة مكاتب لتختارين الأنسب الذي سيكون في المستقبل مركزاً لأحد فروع شركة زوجك التجارية... تعودين منهكة من التعب والحر، تنامين، لتستيقظين بعد ساعات تبثين متاعبك، وهموم بحثك اللامجدي عن المكتب المطلوب.

لم يخطر ببالها أن تزور أباها في عيادة تخنيطه الأبدية، وتنظر إليه بحنان قائلة: تكلم يا كريم اشتقت لحديث الروح، وما أخبارك؟ ألم يتحسن عملك؟ سأساعدك، اعتمد علي، فأنا ثرية جداً. تعال نلقِ أنا وأنت احتمالات مساعدتي لك؟ لم تسأله أياً من تلك الأسئلة الإنسانية العادية، اكتشف أنه لا يستطيع النظر في عينيها مباشرة، كان يسترسل في تأمل صورتها المنعكسة في المرآة أو زجاج النافذة، أو صورتها المحفورة في ذاكرته، يعاتبها برقة وعنق أيضاً، ويسألها بحرقة: لماذا يتغير البشر! حاول أن يجد لها أعذاراً كونها أصبحت أما وزوجة، تحمل على كاهلها الكثير من المسؤوليات لكنه لم يكن يقتنع هو نفسه بهذه الحجج.

وأخيراً وفقت بمكتب يتمتع بالمواصفات المطلوبة، جرّته من يده ليتفرج عليه ياسلام مدخل بناء رائع مزين بالنباتات الطويلة بلاط من رخام، مكتب واسع اكساؤه ممتاز... سألته: مارأيك يا كريم؟

كانت الفرحة تقفز من عينيها وهي تسأل، تخيل أنه لو لم يجيب فلن تشعر بصمته، إنها لا ترى سوى نفسها ولا تسمع سوى صوتها، قرّر ألا يجيب. تابعت: أليس هذا المكتب رائعاً؟ الحمد لله وفقت أخيراً به، لوتعرف كم قلقت يا كريم، خفت ألا أوفق بالمواصفات التي يريدونها منذر، بصراحة هي مواصفات دقيقة، يريد مكتباً في مركز المدينة، واسعاً، وقريباً من المرفأ، وإكساؤه فخم، أتعرف اجتماع الصفات الثلاثة صعب، فالمكاتب وسط البلد صغيرة عادة و..

فكر أن يتركها ويمضي، ترى هل ستشعر بانصرافه! انسلّ من أمامها ودخل المطبخ الفخم من اللونين الأزرق والأبيض، كان يسمع صوتها تتكلم... لقد فحصت الألمنيوم إنه من أجود الأنواع، لا تؤثر عليه الرطوبة أبداً، كذلك ورق الجدران و.. إيه، كريم، كريم، أين أنت؟

فتح فمه بصعوبة ليقول بصوت جاف: في المطبخ.

لحقته، تأبطت ذراعه، رائع هذا المطبخ أليس كذلك؟ مسحت على السيراميك بحنان، فكر أنها لم تمسح على شعره بهذا الحنان حين التقيا بعد غربة أربع سنوات! رسم وجهها قلقاً جدياً، سألته: هل أصبح من السهل استيراد السيراميك الإيطالي والفرنسي! لم تعد روحه تطيق احتمال المزيد، انتفض قائلاً: لقد نسيت موعداً هاماً، اعذريني سأتركك.

انسلّ خارجاً قبل أن تعلق بكلمة، كان يختنق فعلاً، إنه يكرهها، يكرهها، يكره الشخصية التي آلت إليها، بالأنانيته المفرطة، وانعدام إحساسها به... كانت تتأفف من الحر طوال الشهر الذي قضته في بيت أهلها، وهو كان يرشقها بنظرات قاسية وباردة، تمنى لو يملك الجرأة ويقول لها: أيايقتك الحر، يمكنك إهداؤنا مكيف هواء، لم يستطع كبح جماح نغمته، سأل أمه ذات يوم متعجباً: أكاد لأعرفها، إنها غارقة بالمال، ترى ألا تفكر أن تستبدل لنا هذا البراد

المهترئ بيراد جديد أو تهدينا مكيف هواء، أو تشتري مقاعد جديدة للصالون...

قالت أمه: أنا لأريد منها شيئاً زادت لهجتها المسالمة والزاهدة من حنقه قال: أعرف أنك لا ترغين بشيء، لأتطلبين شيئاً، ليس من داع للطلب، لكن هي، لو كانت تحبنا حقاً وتفكر بنا، كيف ترضى ألا تغمرنا بعطاياها! أيعقل أن تكون أنانية وبخيلة إلى هذا الحد!

- لأحب أن تحكي عن أختك هكذا يا كريم، لاتدع الحقد يتسلل إلى قلبك، ثم، ثم إن المال، مال زوجها. صرخ: لافائدة، من الحديث معك، أنت تتجاهلين الخشبة التي تعلق العين، تريدان أن تجدي لها الأعذار عنوة. في الأيام الأخيرة لزيارتها، انهمكت في شراء الذهب، لها وللصغيرة، فكرت كريم لو يحكي لها من باب الاختبار عن شغفه الشديد بذلك الخاتم الذي تمنى شراؤه، كان يود لو يتفرج كيف ستخذه، فلترحل بسلام، لترجع إلى قصرها العاجي وليبقى هو أسير قوقعته الأبدية، لكن السؤال الذي يعذبه: كيف سيواجه مخزون ذاكرته من الصور الدافئة والعذبة التي جمعتها حقاً!! أترأه يبالي ويضخم الأمور كما تقول عنه أمه دائماً؟ مامعنى الأخوة إذاً، مامعنى المحبة؟ ومامعنى العطاء والمشاركة؟ أيجتاج أن يعيد النظر بكل القيم التي نشأ عليها؟ من أعطى القداسة للمقدسات؟ وقاين وهايل أما كانا أخوين أيضاً! بالسخف الذكريات حين تبدو مقطوعة لايربطها بالحاضر أي رابط...

سافرت محملة بالأغراض، ذرفت دموعاً غزيرة على فراق أمها وأخيها، لكن خوفها من سرقة الذهب الذي تحمله تغلب على كل مشاعرهما، آخر جملة تفوهت بها: كل ما أرجوه ألا يسرق الذهب الذي اشتريته.

ماعاد قادراً أن يكتب لها، بدت له رسائله التي تنضح عذوبة ورقة، المنطلقة من الماضي الدافئ والممتدة نحو المستقبل ساذجة ومضحكة، لماذا تلح عليه أن يكتب لها؟! ماذا تعني لها كلماته الغارقة في المعنى والعاطفة؟ هي التي

تلهث وراء مشاريع زوجها في توسيع الثروة، وتحقيق الأرباح الخيالية... لعل رسائله كانت وسيلتها الوحيدة للتذكر، كي لاتنسى سنوات طفولتها وشبابها كلياً، كي لاتشعر بأنها مقتلعة تماماً من جذورها، كي تذكر ولادتها الأولى في بيت الأستاذ المكافح، والأسرة التي لا تملك أي رصيد سوى المحبة..

كزت الأيام والأشهر، كل يوم يمر يشعره بسعادة خبيثة كونه لم يكتب لها، رغم محاولات أمه: أكتب لاختك فهي حامل ومتعبة، فإنه كان يجرؤ ليرد على كلامها بنظرة ساخرة ووقحة، هي بدورها انقطعت رسائلها نهائياً، اكتفت باتصالات هاتفية متباعدة، كان يرفض أن يكلمها موصياً أمه أن تخبرها بأنه غير موجود أو نائم.

أنجبت صبياً، فأهداها زوجها الشالية والمكتب، أحسن أن من واجبه أن يتصل بها ويبارك لها بالمولود، عاتبته على انقطاع رسائله وعلى تهربه من التحدث معها في الهاتف، قالت بصوت كله عتاب: أهكذا يعامل الأخ أخته الوحيدة؟

لكنه ردّ بعتاب أقوى: أهكذا تعامل الأخت أخاها الوحيد!

- لكنني مشغولة كثيراً يا كريم، والغربة شيء صعب، كيف أصفه لك؟

كان يحس أن صوتها قادم من الماضي البعيد وليس من أميركا، كم حملته هذه المكالمات القصيرة أشجاناً لطيفة، يستحيل أن ينسى الأيام الجميلة الدافئة التي جمعتهم، إنها سلوى الحبيبة فعلاً، التي كانت تتأبط ذراعه وهما يتنزهان على الكورنيش كل منهما يتخيل الزمن الآتي بطريقة مختلفة كانت تشعر بالخوف دوماً من المستقبل، تحكي عن الضمانات، وهو كان يسخر من منطقها ويقول لها بأن الإنسان الناجح وذا الإرادة القوية يصنع المعجزات... أين موقعهما الآن من هذا الكلام؟! هل انقلبت الصورة، فصار هو مرعوباً من المستقبل ويبحث عن الضمانات، وهي غرقت في النعيم واليقين وماعاد شيء يقلقها... مهزوم أنا يا أختي مهزوم، آه لو تعرفين سنوات الصبر والتحمل التي دفعت ثمنها أعصابي وشبابي، أترارك لاتشعرين بي؟! هل يحتاج الحزين

والمخذول أن يحكي عن نفسه أمام من يحبه؟! أليس للحب رادار قوياً ينبه المحب لأحزان المحبوب وظروفه الصعبة، هل أبوح لك بمكنونات نفسي ياسلوى؟ ربما لن تصدقي أن أحوالي تتدهور لهذه الدرجة! كان يحدث نفسه باستمرار وصورتها في ذهنه، ولم يبق إلا أن يمسك القلم ويكتب لها، لأن الأفكار تجيش في رأسه منذ أسابيع، ورغم مخاوفه وإحساسه بالانكسار والمهانة تجاه أخته، بسبب الحاجة، إلا أنه كان عارفاً أنه سيكتب أخيراً. استطاع أن يفهم كيف ينكسر الإنسان تجاه الحاجة، وكيف تصبح كلمات مثل الكرامة، عزة النفس، الكبرياء، مجرد دخان، لاثير في النفس المنهكة من الحرمان أية عزيمة أمسك القلم بوضعية الكتابة، كان سيقوم بعملية تبيض لعشرات الرسائل الذهنية التي يكتبها لها منذ أسابيع، لن يفعل شيئاً الآن سوى تظهير الصورة على الورق. أفلت القلم من يده ليرسم علامة الصليب، ورغم عدم إيمانه بكل تلك الطقوس، لكنه كان بحاجة لأشياء تؤازره ولو لم يكن مقتنعاً بها، بدت الزهور التي وضعتها أمه في الكأس منذ ثلاثة أيام على درجة عالية من النضارة، ابتسم معتبراً المشهد علامة على نجاح خطته في الرسالة... تلّفت حوله باحثاً في ألفة المكان الذي يحفظه عن ظهر قلب عن علامات تفسّر بأنها السعد، لمح ذبابة مقلوبة على ظهرها، مهتاجة من الحركة، تأمل تلك النقطة السوداء الكبيرة المقرزة، إنما المتمتعة بنعمة الحياة، كيف تستमित لتقف على أرجلها، إنها في ورطة، هو أيضاً متورط، تساءل: من منا متورط أكثر؟ حدّث نفسه، لو نجحت الذبابة في الطيران، سينجح هو في مهمته.

أمسك قلمه بجدية لياشر الكتابة، استسخف أفكاره العابثة، ابتدأ الكتابة باستعطاف صريح لم يستطع أن يكذبه على نفسه الحبيبة: سلوى الحبيبة. تنبه لاندلاق تملقه منذ البداية للهجة الاستعطاف والاسترحام المبطنة في المقدمة، لكن لا بأس، لأتابع، فالغاية تبرر الوسيلة، هذا ما أحسه، يجب أن يعطي أقوى زخم عاطفي وفكري في رسالته كي تتعاطف معه وتوافق على مشروعه، سيقنع أخته أن تساعدته بأن تسمح بتأجير المكتب الرائع لأستاذ اللغة الفرنسية، الفرنسي، الذي يخدم جنديته في المركز الثقافي، السيد ماتيو شاب عازب،

أصدقائه قلة، لطيف وراق، سيحافظ على المكتب، ولولا ضيقه المادي الذي ماعاد محتملاً لما فكر بهذا الحل... لكنه وبعد تفكير عميق، وبعد أن فقد الأمل بإمكانية تحسن عمله الخاص أو زيادة الرواتب، فكر أن لاملجأ حقيقي له سوى أخته الحبيبة، وبأنها وحدها قادرة على إنقاذه من أزماته المادية، ختم رسالته بأن صورهما معاً كيف يجلسان متقابلين يدرسان، وبينهما الطاولة الخضراء المفروشة بالمكتب تلح على ذهنه هذه الأيام، ذكرها باليوم الذي ألح عليها بشرب القهوة كي تقاوم النعاس وكيف تحوّلت لطقس لا يمكن أن يبدأ الدراسة من دونه، لم يكن يعرف أنه سيكتب عن هذه الذكريات، لأن أياً من رسائله الذهنية لم تتطرق حقيقة لهذه الذكريات البعيدة، أتراه يتعمد أن يشحذ كل الزخم المعنوي لماضيها المشترك، كي يكون تأثيره فيها أعظيماً، فتوافق على مساعدته، وهكذا يضمن حياة كريمة، أيامها معافاة، لا يلحقها ذعر الحاجة... تخيل أنها ستسارع للاتصال به حال تسلمها رسالته، وستقول له بعتابٍ شديد: يا أخي الحبيب، افعل ماتشاء بالمكتب، أجرّه، استثمره بالطريقة التي تراها مناسبة، تخيل أن الأستاذ الفرنسي سيدفع له مقدماً أجار المكتب عن سنة، وأنه سيقبض المال، ويستأجر كشكاً لبيع الفلافل أو الشاورما، ألم يحلف له بائع الشاورما أن ربحه في اليوم يعادل ألفي ليرة أحياناً، أي حوالي نصف راتب طبيب اختصاصي!!!

حانت منه التفاته ليرى الذبابة جثة هامدة، انقبض قلبه، اعتبر أن هذه علامة شؤم ودليل على فشل مسعاه، لكن ذهنه سرعان ماتحاييل في تفسير موت الحشرة، وفسره له موت الشر! طوى الرسالة راسماً مجدداً وبغير اقتناع تام علامة الصليب ودسها في الظرف، كتب في دفتر مذكراته، تاريخ كتابة الرسالة، وهو نفسه تاريخ إرسالها بالبريد. بدا راضياً عن الصيغة التي كتب بها الرسالة، لكنه لم يستطع تفسير موجة الحزن التي داهمته بعد إرسالها بالبريد، قلبه يحدثه أن نتيجة هذه الرسالة ستكون مدمرة، وبأنها الشعرة التي ستقضم ظهر البعير، سيظل مترقباً لجوابها أياماً، إن قبلت فستكون أخته الحبيبة المتفهمة كما تحفظها ذاكرته البعيدة، وإن تبدو له تلك الذكريات ضبابية وكأنها لم

تحصل في الواقع، وإن رفضت، عندها سينفجر، ولن يتورع عن قول أي شيء، والتصريح بحقيقته أفكاره وتقويمه لها. بدا له احتمال رفضها شبه مستحيل، وغير منطقي. كيف سترفض وهي ثرية ثراء فاحشاً، وهذا المكتب المغلق لاحتاجه، ربما نسيت في زحمة ممتلكاتها، بالتأكيد ستوافق على مساعدة أخيها الوحيد، وستسمح له بأن يؤجره عامين لأستاذ اللغة الفرنسية، كما يتمنى، تمنى لو يصدق صوت منطقته الخاص، لكن ثمة تساؤل أتاه طارئاً، بلبه بقوة: لماذا لم تصارح أمك بفكرتك وبكتابة رسالة لأختك بخصوص هذه الفكرة؟ ألا يدل ذلك على تخوف مبطن من رفض أختك؟

لام نفسه، لماذا لم يطلبها بالهاتف، لو اختصر الوقت وعرف الجواب حالاً... لكنه ارتعد وهو يعرف أنه لا يستطيع أن يطلبها، الرسالة تعفيه من المواجهة، بل تعطيه فرصة أكبر للتأثير عليها، يمكنها أن تقرأ الرسالة أكثر من مرة وتفكر بها ثم تتخذ قرارها، هنا نفسه على صياغة رسالته بطريقة تبدو شديدة الصدق، تخيل لو أرسل لها اعتباطاً بضعة أوراق من دفاتر مذاكراته، ترى كيف سيكون رد فعلها؟ هل ستصدق أن أختها يعاني كل هذا الضيق؟ أتراها حقاً لاتفكر بي؟ كرر هذا التساؤل مراراً بينه وبين نفسه، عجباً ماعنى الأخوة إذا؟! داهمه خاطر خبيث، ماذا لو تظاهرت بأنها لم تتسلم أية رسالة؟ آه من الخواطر المشائمة، عندها سيكلمها هاتفياً وسيحشرها في الزاوية ليسمع ردها.

أمامه اسبوعان من الأنتظار على الأقل، مآدهشه حالة القنوط الملحة التي تلبسه، ماعاد يفكر بالاحتمالين الوحيدين اللذين ينتظر تحقق أحدهما، إما الموافقة وإما الرفض، أدهشه تساوي الاحتمالين بسبب حالة القنوط شديدة الوطأة التي تلبسه، أحس بتقزز من لهجته الرخوة واضحة الاستعطاف التي كتب بها لسوى، وبدت له مقدمة الرسالة على درجة مخجلة من الانسحاق: الحبيبة: الحبيبة سلوى. لماذا يندلق أمامها مضيعاً كرامته واعتداده بنفسه أما كان أليق بكرامته لو يكتب لها شارحاً حقيقة ظروفه البائسة، وعجز عيادته الخاصة وراتبه الوهمي عن تأمين حياة كريمة له... أما كان يستطيع أن يذكرها بواجبها تجاهه هي الثرية الغارقة في الرفاهية، ماعنى الحب إن لم يتحول إلى فعل؟!!

لو كتب لها هذه الجملة لاستطاع أن يكبلها أكثر، أن يجبرها ألا تتعاطى عن وضعه... تساءل: آه يا كريم، هل تخيلت يوماً أن تنسحق هكذا تجاه أختك!! لكن هل حقاً تغيرت أخته بسبب الزواج من ثري، أو بسبب الغربة؟ لكن هل نظر إليها يوماً بعيداً عن العاطفة ومنطقها الذي يحرف كل شيء لصالح المحبوب. من هي سلوى؟ ليحاول أن يفكر بها مرة واحدة بطريقة حيادية منطقية... تذكر كيف كانت تبكي قهراً وهي تصف أناقة ثياب صديقاتها، وحليهن، وإحساسها بالخجل من ثيابها البسيطة، وشكواها الدائمة من قلة مصروفها مقارنة بهن.. وفراس الذي أحبته، لم ترض الارتباط به لأنه لا يحقق طموحاتها المادية.. هذه هي الحبيبة سلوى، إنسانة نفعية مادية، وأنانية، لكن طبيته وعاطفته منعتاه من رؤيتها على حقيقتها... لكن أينكر أنها تحبه؟ أينكر كم مرة قالت له أنت سندي الأساسي في الحياة، وأنت أخي الوحيد والحبيب، الذي أبكي تأثراً من رسائله.. أجل إنها تحبه، لكن... تحبه لكن لا تقترب من جيوبى، هذا هو شعارها الحياتي، انطلاقاً من تلك الحقيقة ترسم علاقتها معه، شعاره هو أنا أحبك، إذاً لك الحق في كل شيء أملكه، هذا منطق الحب الحقيقي.

ماعاد يحس أنه ينتظر ردها، حالة من الاستخفاف اللامبالي تلت قنوطه، وكأنه يريد أن يحصن نفسه سلفاً من الصدمة المحتملة التي يتوقعها منها، ولم يكذبه إحساسه، تلقى ردها أبكر مما توقع، لم يستطع منع خفقان قلبه وهو يفضّ الظرف، اعتقد أن وصول الرسالة العاجلة دليل موافقتها، نسي أن يرسم علامة الصليب، طقسه الانتهازي الوحيد أمام كل محنة وكل رغبة يتمنى لو تتحقق، تجمدت نظرتة فوق خطها الجاف الأسود: أنا لأفكر نهائياً في تأجير المكتب وليس لدي ثقة بأي مستأجر سواء كان فرنسياً أو أميركياً أو أياً كان... لم أفهم بالضبط ضيقك المادي الذي حدثني عنه، أعتقد أن راتبك مع مدخول العيادة يؤمنان لك حياة كريمة، خاصة وأنت تعيش في بيت والديك، الذي هو لك، فأنا متنازلة عن حصة منه، في كل الأحوال يا أخي الحبيب ن إن كنت تمر بضائقة مادية مؤقتة وبسيطة يمكنني أن أرسل لك حالا خمسمئة دولار أو ألف

إذا احتجت حقاً... لقد أحست برغبتك في أن أرد عليك فوراً، وهأنا أكتب لك فور تسلمي رسالتك اللطيفة والرقيقة، أحسدك حقاً يا كريم على احتفاظك برومانسيك، للأسف الحياة اللاهثة هنا لاتسمح لي أبدأ بالعودة إلى الماضي وتذوق الحلاوة التي فيه، تخيل يا كريم أنني أحتاج كل يوم لأربع ساعات مواصلات بين بيتي ومركز المدينة، لن أتمكن من الحضور هذا الصيف لأنني سأكون مشغولة مع زوجي في افتتاح معرض الموزاييك في منهاتن، استأجر منذر صالة عرض كبيرة لهذه الغاية. لكنني أدعوك أنت وأمك لزيارتي، طبعاً كلاكما ضيفاي، لن تتعرفا على أي مصروف ابتداءً من بطاقة الطيران وكل المصاريف الأخرى.

أخيراً يا كريم اعذرني على ضيق الوقت، لكن اكتب لي دوماً، لاتتصور كم تسعدني رسائلك، خاصة وأنت تسترجع أمامي تلك الصور شديدة الحلاوة التي جمعتنا في الماضي، أحسدك فعلاً على ذاكرتك... وكثيراً ما أتساءل: أكنت حقاً الفتاة الساذجة الرومانسية... أخيراً قبلاتي الحارة لك ولأمي الحبيبة.

أختك المحبة سلوى

مزق الرسالة نفعاً، كازاً على أسنانه، ومطلقاً شتائمة المنفلتة من دملة في حنجرتة تشكلت سريعاً وهو يقرأ ردها: ابنة الكلب، لم يع أنه يشتم الأستاذ الفاضل الذي يستريح في مشواه.

الحيوانة، القدرة، المنحطة، البخيلة... ترك حمى الغضب تقوده في متاهاتها الجنونية، تحوّل إلى قبلة موقوته آن أوان انفجارها، ستدمر كل شيء بطريقتها، طظ في الأخوة، طظ في الأخوة. الحيوانة بدون إحساس، تدعي أنها لم تفهم معاناتي وتتصدق علي بحصتها في البيت تمنّي علي أيضاً، أنا الذي انسحقت أمامها وكتبت لها: الحبيبة، سلوى الحبيبة... كان يحدث نفسه بانفعال شديد، وهو يتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعتة ولم يكتب لها تلك الرسالة... أتاه صوت يؤاسيه: بل حسناً فعلت لتكشفها علي حقيقتها، ليسلط

أنوار الحقيقة على دناءة روحها وبخلها... سارع إلى الهاتف يرفع السماعة سيستمها ولو كان الوقت منتصف الليل عندهم، أتاه صوت زوجها مثقلاً بالنعاس: آلو، آلو.

لم يستطع أن يتفوه بكلمة، رغم أن الشتائم كانت تتزاحم خلف حاجز أسنانه تبحث عن نافذة لتنفلت، أمسك القلم ليكتب مبتدئاً بجملة صاحبة الجلالة الموقرة، كان يريد أن يصب لعنته في كلمات، أن يتبرأ منها، وينسف كل الاعتبارات التي كانت تلجمه عن قول حقيقة أفكاره بخصوصها، لكن القلم حرن في يده، ولم يستطع أن يكتب شيئاً.

الحيوانة عديمة الإحساس، كان يكرر هذه الجملة دون ملل، لكنه في جحيم غضبه كان يحتاج لمن يجعله يفهم، لمن يفسر له كيف يغدو الإنسان صنماً خالياً في أي إحساس وتعاطف.. قرر في سره أنه سيسعى جاهداً لإماتتها من حياته، ولن يتورع عن كشف نقاب العواطف الزائفة التي تربطه بها وسيحكي للملأ عن بخلها وحقارتها وقلة إحساسها. ارتسم وجه أمه أمامه متألماً، لكنه صرخ بصوت عالٍ: أنت لالعلاقة لك بنا أفهمت.

في سره أحس بسعادة خبيثة تنتشر كالحرارة في أطرافه، أحس أنه اهتدى لحل لضيقه الشامل المادي والمعنوي بأن يعلن القطيعة على أخته، هاقد وجد مصرفاً لاحتقان روحه، أقسم لنفسه: والله لن أتراجع عن قراري مهما حصل، حتى لو ركعت عند قدمي وتوسلت لي أن أسامحها، وبأنها ستعطيني المكتب بالمقابل، نخرت هذه الصورة المتجسدة في خياله صلابة قراره، وجسدت له الإغراء الشديد في أن يمتلك هذا المكتب فعلياً، هل يستمر عندها في القطيعة أن يكون على استعداد للصفح والنسيان، ولكتابة رسائل تبدأ مجدداً بسلوى الحبيبة!

الأيتكشف له الضيق والحرمان بأقصى أشكالهما، وكيف يلويان ذراع الإنسان ويضطرانه للقبول والإذعان، تخيل أنها ستأتي ذات يوم قريب مجللة بالسواد بعد أن تتلقى خبر وفاة أمها، سيرمقها ببرود وكره، سيستعد منذ الآن

لرشقها بنظرة الاحتقار والنبد، والتي سيجند في سبيلها كل طاقات روحه..
و حين ستهجم عليه لتقبله وتبكي على صدره، سيدفعها بعيداً، وبقسوة وعنف،
ستسقط أرضاً ولن يتقدم خطوة لمساعدتها، ستصعق وهي ترمقه بذهول نظرة
تعني: أكاد لأصدق ماأرى، أنت كريم المحب؟! لماذا تتصرف هكذا؟! لن
يتفوه بكلمة، أو قد تنفلت منه جملة: أنت حقيرة، أنت لست أختي.. ستصرخ
عندها: أيها اللئيم لن أتنازل لك عن حصتي في بيت أهلك.. جمده الذعر حين
وصل به خياله عند هذه النقطة، أحس في تلك اللحظة تحديداً أنه هبط على
أرض الواقع... همس له دهاءه الذي ظل مخدراً لسنوات: لا يجب أن تعلن
عليها القطيعة إن لم تنازل لك فعلياً عن حصتها من بيت أهلك صحيح أنه
بيت قديم، لكن لها حصة فيه، والدك رحمه الله كتبه مناصفة بينك وبينها...
إعلان الحرب عليها وشتمها لم يفيدك بشيء، بل يجعلك تخسر البيت...
أحس أن العناية الإلهية أسعفته بهذه الفكرة، الآن عليه أن ينتزع توقيعها وتنازلها
عن حصتها من البيت، ترى أيكتب لها مجدداً؟ هل تذله الحاجة، ليخط
كلمات تسبب له أشد الوجع... لا، سيلجأ إلى وساطة أمه، إنها لا ترفض لها
طلباً تلك المرأة الرقيقة سيطلب إلى أمه أن تكتب لها وتطالبها بالتنازل عن
حصتها من الميراث لأخيها، وسيلح على أمه بضرورة التنويه بأن كريم لا علم له
برسالتها، لأنه شديد الحساسية تجاه هذه المواضيع، وما أن يتلقى ورقة تنازلها
حتى يسقط القناع عن وجهه ويعلن على الملأ القطيعة معها.

تلاشى فوران غضبه، تحوّل إلى زيد طفيف، أحسّ بإنهاك شديد ونعاس،
وآلام في مفاصله، استلقى في فراشه وهو يدخل تدريجياً بغيوبة تعفيه من
التفكير، لكن آخر فكرة انطفأت في ذهنه كانت أشبه برثاء، بأن تلك التي
بشمها ويخطط كيف سيتعامل معها، وكيف سيقتلها في روحه، هي في نهاية
المطاف: أخته!!!.

مجرم بالصدفة

جلس على كرسي تحنيطه الأبدي في العيادة، يتأمل بيروود خط أخته وهي تقر بتنازلها عن حصتها من البيت، توقف نظره عند توقيعها الذي أحسه متعجرفاً وغريباً، سجّل في دفتر مذكراته التاريخ الذي تنازلت فيه أخته عن ملكية البيت. حدّث نفسه بسخرية: هأنت تملك بيتاً وعيادة فما حاجتك بعد؟ من يملك بيتاً وعيادة هذه الأيام يعتبر محظوظاً وثرياً... فتح درج مكتبه وهو يتنهد بعمق أخرج ألبوم الصور ليسلي نفسه المغرقة في الكتابة، طالعه صورة سلوى بثوب الزفاف، تتأبط ذراع عريسها، وصورها مع ولديها في الفيلا الرائعة في نيويورك، صورهم على شاطئ البحر... وجد نفسه يمزق الصور كلها غير آسف، رغم أن روحه ارتعشت وهو يرى وجه أمه يتشظى، الآن يتلعه الفراغ. لاعلاقة له بها إطلاقاً، لن يكتب لها أبداً بعد، ولن يناديها حتى بينه وبين نفسه بأختي، ولن يلفظ اسمها، قرّر ألايعاتبها، وألايعلن ثورته أمام أمه وأمامها، سيعذبها بالتجاهل والصمت، آمن أخيراً أنهما وجودان مختلفان غريبان، إنها غريبة عنه حقاً، فلينبذها خارج عواطفه وأفكاره.

لايزال أمامه ستة أيام ليقبض راتبه، جيوبه خاوية تماماً، لو لم يقصده أي مريض خلال هذه الأيام سيظل شحاذاً، فكّر أن الشحاذ يجمع كل يوم مبلغاً من المال، بينما هو لايجرؤ على التسول لأنه طيب، قام عن كرسيه يحرك عضلاته ويفتح النافذة ليسلي نفسه بالتفرج على المارة، ماكاد يطل برأسه من النافذة حتى سمع صوت رجل يناديه: دكتور، دكتور كريم. التفت ليجد رجلاً

بصطحب طفلاً صغيراً، أحس أن مئة حنجرة انفتحت في رقبتة وانطلقت أصوات مهللة: هللوا، هللوا، المجد لله في العلى الذي أرسل مريضاً ليسعفني.

رتّح بالرجل، دعاه للجلوس، شكره الرجل المتعب الذي تشع التجاعيد حول عينيه بشكل شعاعي سأله الدكتور كريم: خير، مم تشكو؟

قال الرجل: لست أنا المريض، بل ابني.

كان الصبي وسيماً ونحياً، يلبس ثياباً فضفاضة عليه، الأرجح أنها لأحد إخوته، أو تبرع له بها أحد المتصدقين، كان الصغير يرمق الطبيب بعينه النقيتين بأهدابها الطويلة الكثيفة.

سأله: مم يشكو؟

قال الأب: في الواقع، أنا لم أشاهد بعيني، لكن أمه أخبرتني، تلكاً قليلاً ثم تابع حديثه العفو منك، لكن بيت خاتمه هبط.

- آه، تقصد هبوطاً في الشرج.

- أجل يادكتور، أرتعبت أمه، لكنها ضغطت القطعة الهابطة إلى الداخل، وأعادتها كما كانت.

- حسناً، كل شيء سيظهر عند الفحص.

بكى الصغير نافراً من الفحص، لكن والده نهره وشمه ولعن الخلفة والأولاد وساعة النحاس يوم تزوج، بدا الصغير معتاداً على الشتائم لأنه لم يبد استياءً أو دهشة... انتهى الطبيب من الفحص، تذكر مادرسه حول علاج هذه الحالة بانه يمكن اللجوء للعلاج المحافظ لمدة سنة على الأقل بوضع قطعة من القطن في فوهة الشرج التي تستدعي تقلص هذه الأخيرة وبالتالي تقويتها. لكن صوتاً من الجانب المناقض للعلم أغواه بالألا يتصرف كما تقتضي الأمانة العلمية، لماذا لاتوهم الأب بأن الصغير يحتاج لعمل جراحي؟ هكذا تقبض مالاً أكثر بكثير من ثمن المعاينة؟ شجعه خلو جيوبه أن يقول للأب: الصغير يحتاج لعملية..

على بكاء الطفل وهو يسمع كلمة عملية.. سأل الأب بقلق: ألا مفر من العملية؟.

ببراعة تقمص كريم دور الطبيب المقنع الذي يشرح وجهه نظره للأهل: في الواقع العملية لاغنى عنها، إنها عملية بسيطة لاتستغرق أكثر من ربع ساعة. أطرق الأب قائلاً: في الحقيقة العين بصيرة واليد قصيرة.

ابتسم كريم مشجعاً الأب: لاتخف، سأوفر عليك أجرة المشفى والتخدير، سأجري له العملية في مشفى الرخام.

تهلل وجه الأب وابتسم، فانحفرت التجاعيد الشعاعية حول عينيه قال: لن أنسى معروفك يادكتور أبداً.

امتعض كريم، إنه لا يريد دعاءً ولاشكراً، يريد مالا يتعكز عليه حتى آخر الشهر قال:

بصراحة سعر السلك ٨٠٠ ليرة، وأنا سأحضر السلك من عيادتي لعدم توفره في المشفى.

- حاضر يادكتور، أنت تأمر، لكني لأحمل الآن سوى أربع مئة ليرة. أخرج من جيبه حفنة أوراق نقدية مهترئة من فئة العشر ليرات والخمس وعشرين ليرة، عدّها للطبيب وقال.. سأدفع الباقي قبل العملية بإذن الله.

أحس كريم بألم وهو يمسك الأوراق النقدية البالية والغارقة في البؤس كصاحبها، لكن ذهنه سرعان ما حولها إلى مشتريات ضرورية.

لم يستطع أن يغفو لحظة، كيف سيعرض الصغير لعمل جراحي لا يحتاجه؟ لماذا يتصرف بعكس ما يمليه عليه ضميره المهني؟ تذكر قسم ايوقراط الذي أقسمه حين تسلم شهادته من كلية الطب البشري. تساءل: هل كان يخطر لإيوقراط أن يصل وضع الطب إلى هذا الدرك من الانحطاط؟

حاول أن يرى نفسه متذكراً مئات الحالات لنساء تعرضن لعمليات قيصرية، ولسن بحاجة لها، لمجرد أن يقبض الطبيب أجرة عمل جراحي تفوق

أضعافاً مضاعفة أجره الولادة الطبيعية، تذكر كم من حالات وجع البطن شخصت عمداً التهاباً في الزائدة الدودية لتوريط المريض بعمل جراحي! ألا يجب أن يجاري التيار ليعيش؟ كيف سيعيش إن لم ينغمس بالصفاقة!! ماذا لو استنشق الصغير المادة المخدرة لدقثق، فليطوق له المعصرة بالسلك أو لايطوقها، لايهم المهم أن يقبض... ألا يملي عليه هذا الزمن أن يتصرف بهذه الطريقة ليصير الابن البار لزمه العاهر! لكن لماذا يشعر بكل تلك القوة بأنه سافل، غريب عن طبيعته، ومرمي خارج ذاته، روحه في الأساس تأنف الخداع والابتذال والغش، فلم يقحمها في أوكار لاتطيقها.

قرر أن يصارح الأب أنه سيعطي الطفل مهلة للانتظار قبل الإقدام على العمل الجراحي، حدث نفسه: لأستطيع بأي حال من الأحوال أن أكون نذلاً.. لكنه في اليوم التالي حين دس له الأب ورقة نقود من فئة الخمسمئة ليرة في ظرف التحاليل المخبرية، أحس بارتخاء جسده كله، سرى في عروقه دفء الإطمئنان الخاص بالمال، شعر بالعجز عن إعادة المال إلى الرجل، رغم إيمانه أن المسكين استدانها، سأله الأب:

- هل السلك جاهز يادكتور؟

أجاب بدون تفكير: بالطبع.

كانت حالته أقرب للذهول.

- متى ستجري العملية؟

- بعد غدٍ إن شاء الله.

- على بركة الله، أملي بالله وبك يادكتور.

قبل أن ينصرف الرجل سأله كريم: كم ولداً عندك.

قال: ستة يادكتور.

هل شجعه كثرة الأولاد على مزيد من الاستهتار؟! إنه لايتعرف نفسه في سقوطها يحس نفسه غريباً ومنفياً، لماذا يصرّ الإنسان على الصفاقة؟ هل يريد أن

يتمرغ بالحياة، ويتبع الأساليب الملتوية والأخلاقية ليصل كما وصل الانتهازيون؟! لماذا لم يتراجع عن العملية أمام الأب المسكين؟ هل مجرد خمسمئة ليرة تدفعه للخيانة والاستسلام؟ ما باله يجرجر نفسه كالمخدر، لا يشعر أنه حي ولا ميت، متى سيمر هذا الكابوس؟ باللورطة القدرة، إنها أبشع بكثير من ورطة الإفلاس. لم يستطع أن يمنع رعدة خوف هزته من رأسه حتى أخمص قدميه حين انتزع الصغير من حضن أمه، وحمله الآذن إلى غرفة العمليات، مسحت الأم دموعاً خرساء تتساقط بلا جهد من عينيها، اقترب من الأم يطمئنها بأن العملية بسيطة، قالت بصوت مرتعش: المسكين عطشان، طلب الماء كثيراً.

هوى قلبه في بئر لاقرار له من الغم، ودّ لو يصرخ بصوت جهوري: أعيّدوا الصغير إلى حضن أمه. لشد ما احتقر نفسه، وهو يعي قذارته وسفالته اللتين يسعى جاهداً للإصاقهما على جلده، حين بحث بعينه عن الآذن الذي انتزع الصغير من حضن أمه لم يجده لم يعد من مجال للتراجع، بعد أن دخل الطفل غرفة العمليات.

حين طلب إليه طبيب التخدير أن يباشر عمله، تمنى لو يموت في الحال، لو تنشق الأرض وتبتلعه. تأمل الصغير غافياً وانبوب الحنجرة البرتقالي يخرج من فمه ويثبت بالورق اللاصق على جانب خده الأيسر الشاحب، كان صدر الصغير يعلو ويهبط بإيقاع بطيء حزين، بدت أهدابه أطول مماهي، مسدلة برقة، راسمة ظللاً مزرقاً أعلى وجنتيه، باغته دموع مفاجئة أمرها للحال أن تجف، وما أن بدأ عمله بتطويق المعصرة حتى علا صوت طبيب التخدير مذعوراً: مهلاً مهلاً... لا تباشر عملك.

تساءل مصعوقاً كأنه في كابوس: خير، ما الأمر؟!
أحس بصوت طبيب التخدير يشرخه: لقد توقف قلبه.

صرخ بصوت مدمر: ماذا؟

أخذ المخدر ومساعداه يضغطان صدر الطفل بقوة، ويحقنان أورده

الخيطة بأدوية لكن عبثاً، الصغير يزداد شحوباً ولايستجيب، ولم يعد صدره يعلو ويهبط بإيقاع حزين، صرخ كريم وقد فقد صوابه، فيما عرق بارد لزج يغرق جسده، ويجعل ثيابه الخضراء المعقمة تلتصق بجسمه. قال وقد جفّ حلقه تماماً: هذا الطفل تحديداً، لايجب أن يموت. نظر مساعد طبيب التخدير إليه وسأله: أهو قريبك؟

صرخ: أكثر من قريب.

رمقه طبيب التخدير معاتباً: أرجوك تمالك أعصابك يادكتور، دعنا نعمل على إسعاف الطفل، بدل إرباكننا. خرج من غرفة العمليات، وكأنه نزف دمه كله في الداخل، ولم يبق فيه قطرة واحدة، أحس أنه كيس أجوف ممتلئ رعباً، له عينان زائغتان لاتريان شيئاً مما حولهما، تساءل أين أنا؟ من أنا؟ مالذي فعلته يداي؟! أين الصغير، أي كابوس هذا أعيش فيه؟ قولوا لي كلكم أنني في حلم، بالتأكيد أنا أحلم حلم ثقيل مزعج لكن سأصحو منه حتماً.

لحقه مساعد طبيب التخدير، أمسكه من كفه، همس في أذنه: مات الصغير... فشلت كل محاولتنا في جعل قلبه يعود للخفقان، يبدو أنه مصاب بنقص في الخميرة... لم يعد يسمع، ولايرى، انتشر سواد شامل أمام عينيه، التصق صمغ كثيف بأذنيه، دوى صوت مخيف في أعماقه: لقد قتلت، قتلت الطفل المسكين، عاد إلى غرفة العمليات كأنه يقتحم أبواب القدر، وقف كأنه ينتظر حدوث معجزة، ويعود الطفل المسجى على طاولة العمليات إلى الحياة، اقترب من الميت، أمسك يده، أدهشه كم هي ناعلة ورقيقة، جسّ معصمه الذي أحسه كفصن مقطوع من شجرة ومرمي... حاصره الذعر كحبل ثخين يضغط على عنقه ولايخنقه... مأسهى الموت الآن.. كم يتمنى أن يموت ويرتاح... جفّ حلقه وجفت دموعه، عد يا حبيبي إلى الحياة، وأنا أقسم بحياتك الغالية ألا ألجأ لتلك الأساليب الحقيرة مدى الحياة...

لكن الطفل فضلّ الطيران بعيداً عن بؤس طفولته، فاراً من غرفة العمليات، سيصير نورساً أبيض يحلق في الفضاء الفسيح، لا يستغله طبيب،

ولا يصب أب بائس اللعنات فوق رأسه... أمكنه أن يسمع صوتاً طفولياً يتردد صدها في غرفة العمليات: سأرتمي في حضنك يارب وأنعم بالراحة الأبدية والسلام.

تطوع طبيب التخدير بإبلاغ الأهل بالفاجعة، تلوت الأم أرضاً كدجاجة مذبوحة وشدت شعرها مقتلعة خصللاً سميكة منه، الأب أطرق صامتاً لم يذرف دمعة يبدو أنه يتحمل المصائب بتلك الطريقة الخرساء... جرّ زوجته من كمها لتلحقه، بعد أن رفض بشدة اقتراح طبيب التخدير بطلب رأي الطبيب الشرعي في سبب الوفاة.

قائلاً: سلموني ابني، أريده أن يلقي ربه صحيح الجسم، لن أسمح أن تمزقوه إرباً الله أعطى والله أخذ. كانت كل عضلة في جسم الدكتور كريم ترتجف، وهو يسترق النظر بعينين مفتوحتين على سعتهما للحوار الذي يدور بين المخدر والأب المفجوع، أحس أن عرق بدنه مدمى لم يستطع أن يظهر أمام الأهل، من حسن حظه أن طبيب التخدير برأ ساحته وأخبر الأهل أن الجراح لاعلاقة له بالوفاة، لأنها حصلت قبل أن يياشر عمله.

«الله أعطى والله أخذ» هذا ما قاله الأب وظل ملتصقاً بأذن الدكتور كريم طوال الوقت، لم يقدم الأب المسكين شكوى، آمن أن هذه مشيئة الله... خرج الطفل المسكين من غرفة العمليات لفة صغيرة خضراء، سيدفن في مكان ما، سيكيه اخوته وأهله لأيام، ثم سيطويه النسيان... خاتماً الفصل الأخير من الجريمة الكاملة.

تمتد الدقائق حبلاً سوداء عليه السير فوقها، حبلاً من قطران لزج تشد قدميه إلى أسفل، يناجي نفسه: تمزقي ياروحي ماشاء لك، التمزق اكتسب يا قلبي حتى تتوقف عن النبضان، فها هو قلب الصغير استقال من وظيفته الأبدية في التقلص وضخ الدم في أنحاء الجسد البض، بل أنا قتلته، ورطته بعملية لا يحتاجها، مقابل ثمانئة ليرة، أجل سعر الطفل ثمانئة ليرة... لم يشعر أحد

بجريمتك يا كريم، لم تشرح الجثة، ولم يخطر لأحد أن يحقق بضرورة العمل الجراحي، وما قيمة الطفل بين ستة أطفال يعانون أقسى أنواع الحرمان، يعيشون وسط أب فقير بائس، يصب نغمته من الحياة بشكل شتائم يقذفها من فمه باستمرار، وأم موهوبة بالحمل، تقدر أن تنجب عشرة بدل الميت... لا بأس بأسماء الصغير، حاول أن تؤمن بالتقصص يا عزيزي، وبأنك ستعود للحياة مرة أخرى، عساك ترجع طفلاً ثرياً في المرة القادمة، عساك تولد من رحم امرأة ما وفي فمك ملعقة من الذهب، قتلتك مقابل ثمانمئة ليرة! ما أرخصك يا أسامة؟

الخروف أغلى منك بكثير، هل تستريح الآن في مثواك تحت الأرض، أليزعجك ملاءة الكتان الخضراء، إنها ملاءة معقمة يا أسامة، آه لاتصدق أنا أشك في التعقيم، الذباب يتجول بحرية في غرفة العمليات، والنوافذ في رواق العمليات مفتوحة على مصاريحها للوسط الخارجي الغني بكل أنواع الجراثيم والغبار، الداخولون والخارجون، مرضى ممرضات، أطباء، لايهتمون بالتعقيم... هل اخترت موتك يا صغيري، هل أحست بأنك ستصلب كالسبح حين أرقدوك على طاولة العمليات القاسية وقالوا لك انفخ البالون يا حبيبي، هل فرحت يا أسامة، ألا تملك أية لعبة أليس كذلك؟ البابا بالكاد يطعمك رغيف الخبز، لو طلبت بالوناً لصفعك على خدك، أورماك بحذائه المهترئ وقال لك: أحرص يا ابن الكلب، ألاترحم والدك من الطلبات...

هل فرحت بالبالون يا أسامة؟ هل صدقت كذبة نفخ البالون؟ أكنت تعرف أن السم في قلبه وأنتك ستموت؟ وستطير روحك إلى البعيد البعيد هاربة من نافذة رواق العمليات... أسامة، أنا الطبيب القدر، النذل والجبان قتلتك، ووقعت إمضائي على دفتر العمليات وعلى دفتر التوقيع، وانسلت كاللص من الباب الحديدي لمشفى الرخام، أسير فوق الدقائق يا أسامة، أفاعي سوداء تمتد تحت قدمي، انتظر أن تلدغ عقبي إحداها لأموت وأرتاح... أتعرف كنت أتمنى لو أضمتك طويلاً إلى صدري، وألثم أهدابك الطويلة واحداً واحداً، أهدابك التي أعطت لأعلى وجنتيك ظلالاً زرقاء... ما أرق يدك يا أسامة وأنحل رسغك، حين حبسته بحثاً عن نبضك خلته سينكسر في يدي، رقدت يدك باستسلام

في راحتي، تحسست بأصابعي الخشنة أصابعك القصيرة النحيلة أين أنت الآن يا أسامة؟ أستعقبني أليس كذلك وتظهر لي في صحوي ونومي؟

هل ستقدر أن تنتقم لنفسك يا صغيري المسكين؟ بالسوء حظك يا أسامة، ما الذي قادك إلى جحيمي، إلى عيادة تخنيطي الأبدي؟ ترى ألن يقصدني والدك لأرد له ثمنك، أنا مدين له بـثمنك يا أسامة، ثمانمئة ليرة، سأنتظر حتى أول الشهر كي أقبض راتبي وأعيد المبلغ لأبيك.

لقد أهديتني بموتك بضعة كيليات من التفاح والموز!! كم أنا جبان يا أسامة، لأجرؤ على الصراخ أمام كل الناس بأني قاتل، لو ترجع إلى الحياة يا صغيري، سأبتناك، سأبيع العيادة وأشتري لك بـثمنها ثياباً جميلة ودراجة والكثير من الألعاب، وسأعرفك بالمطاعم والحدايق الحلوة، سنسافر، وسأتنازل لك عن البيت الذي املكه وأسجله باسمك، أتعرف يا أسامة، كان لأختي حصة في البيت، تنازلت عنها لي، أختي حقيرة يا أسامة، أنا بـخيلة، وأنا حقير لأعرف من منا أشد حقارة من الآخر، هي أيضاً قتلتك بطريقة غير مباشرة، لو قبلت أن تساعدني لما اضطررت أن أخرجرك إلى غرفة الذبح، كلهم قتلوك يا أسامة، لاتصدق أنني القاتل الوحيد، انظر إليهم بعينيك الرائعتين، ستفهم أن أبوك أيضاً قاتل، ومقتول أيضاً وأمك قاتلة ومقتولة، كيف استطاع والدك أن ينحرك في خاصرتك بتلك الطريقة الوحشية الفظة كي أتمكن من فحصك احمر جلدك بشدة بعد أن نحرك، وكنت تتقبل سيل شتائه القدرة فوق رأسك بطاعة خرساء... سيشارك والدك مع أمك قريباً في جريمة جديدة وينجبان طفلاً عوضاً عنك، وقد يسمونه أسامة، وقد يصاب أسامة الجديد هذا بهبوط شرح مثلك ويضطر والدك ليجره إلى عيادة تشبه عيادتي، وتكرر المأساة نفسها يا صغيري وقد يتزوج والدك امرأة أخرى، وقد تتزوج والدتك رجلاً آخر، وسيمتلئ الكون بالأطفال المساكين الذين يموتون كل يوم بألوان من الإضطهاد، أتعرف يا أسامة في البرازيل ستة ملايين طفل لقطاع، يعيشون على تلال القمامة، يأكلون منها، والأثرياء يصطادونهم كما يصطادون الخنازير!! هواية مبتكرة صيد الأطفال يا أسامة، أليس كذلك؟ اعتبر نفسك واحداً من هؤلاء... لماذا

أنت صامت هكذا بأسماء؟ قل أي شيء، اشتمني، سامحني، اقتلني اشكرني كوني رحمتك من حياة الذل، إنما لا تبقى هكذا أخرس... ألاتستطيع الكلام يا صغيري المسكين؟ ألاتستطيع الإتيان بأية حركة؟ أحقاً أنت ميت! هل انتقلت بهذه الرشاقة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، خذني معك بأسماء، خذني أرجوك.

لم يستطع أن يتلع لقمة، ادعى لأمه أنه تناول صحن فول مسلوق منذ ساعة، بحلق في وجهها منقياً في ملامحها إن كانت قد اكتشفت الآثار الكارثية لمصيبته، لكنها لم تلاحظ شيئاً، يبدو أن وجهه متواطئ مع جريمته ويرفض الإفصاح عن أية علامة تثير الشكوك تمنى لو تستطيع أن تحمل على كاهلها جزءاً من ثقل جريمته، لكنه لن يقدر أن ييوح لها أبداً... نظر في ساعته، لم يمض على وفاة الصغير سوى ثلاث ساعات، تساءل: كيف سأحتمل مرور الزمن إذاً، وهذه الساعات الثلاث أحسها دهرًا.. دخل قوقعته وزرق فخذته بإبرة فاليوم، وتجمع أربع حبوب منومة، ومثلها مهدئة، أجبر نفسه ابتلاعها مع قليل من النبيذ عارفاً سلفاً التأثير السمي الناجم عن تآزر الحكول مع المنومات، فليمت، ليت قلبه يتوقف عن الخفقان، لكن هاهو يسمع النبضان المنتظم يتفجر من وسادته تحت أذنه، إنه حي، هو حي وأسماء ميت، أدخلته الأدوية في غيبوبة، لكنه ظل واعياً ومبجلقاً في الأثاث الأبدى، أمسك ساعته وأخذ يدور عقاربها بالاتجاه المعاكس، حدث نفسه: الآن عاد أسماء إلى الحياة، لكنه بعد دقائق رأى حمامة بيضاء تطير من صدر أسماء هاربة من غرفة الجريمة، منتهزة فرصة انفتاح مصراعي نافذة العمليات... في تلك اللحظة أحس أن أسماء مات، حيلة العقارب لم تعيد الحياة للصغير.

وحين هم بالقيام من سريره، كاد يسقط، المهدئات تدرخه لكنها لا تفلح في تنويمه، أحس بثقل لسانه وبالتصاقه بقاع فمه بصمغ لزج، أراد أن يحرك لسانه فلم يفلح، كان جفناه مرتخين، وبصعوبة كان يفتح عينيه وينظر نظرات زائفة في كل مكان، فلا يحد سوى وجه أسماء نائماً، فمه نصف مفتوح، عيناه مغمضتان، وخصلة من شعره الكستنائي ترسم خطأ مائلاً على جبهته

العريضة.. سألته أمه: ألم تشعر بالجوع؟ أتريد أن أسخن لك الغداء قال: لا، أحسها ثقيلة كأنها خارجة من قلبه، كم ينهكه الكلام...

تفرست بوجهه وسألته بقلق: أنت شاحب، وتبدو مرهقاً جداً، مابك يا كريم، أتشكو من شيء تداقت الكلمات على شفثيه تكاد تنطلق: لأشكو سوى من أنني قاتل.

لم يجب، أصغى للصمت بينهما، إنها تلح في سماع جوابه، تحامل على نفسه وقال:

- أشكو من صداع.

- سلامتك، ألم تتناول دواءً.

- أجل.

- هل ترغب بشرب الشاي أو القهوة.

- قهوة لو سمحت.

حين امتدت يده لتناول فنجان القهوة، ارتعشت أصابعه بشدة وكاد الفنجان يسقط لولا أن مدت يد أمه كي تمنع سقوطه. قالت: يبدو أنك تعبت اليوم في المشفى؟

انفجر بنشيج حار، فاجأه أكثر مما فاجأ أمه، كان لعابه لزجاً يتجمع في زاويتي فمه ودموعه حارقة يحسها تحرق جلده وتحفر فيه أخاديد... أخذ يشن متوجعاً: أنا متعب متعب، حاولت أمه لمسه، احتضانه، لكنه أخذ يصرخ مهتاجاً: لاتلمسيني، لا أريد أن يلمسني أحد، جسدي مكهرب من اللمس..

- مالم قصة يا كريم مالذي حدث يا حبيبي؟ أهناك مشكلة مافي العمل؟ احك يا حياتي أنا أمك، قل أرجوك مالم قصة؟ كان يترك وجهه يتبلل بدموعه دون أن يقوم بأية حركة انعكاسية لمسحها، قال بصوت هده الإنهاك: قلت لك لاشيء، مجرد تعب، خرجت كلمة تعب من روجه محملة بغبار اختناقه المديد، كلمة محتقنة، ملتهبة، متوجعة، تعب قاده لقتل طفل!

- آه يا جيبني كم أنت حساس، طول عمرك شديد الحساسية، هذا ما كنا نقوله دوماً والدك رحمه الله وأنا، كان يقول لي: هذا الصبي عبارة عن جهاز عصبي متنبه دوماً، إنه حساس كشاعر رقيق كعاشق، انسكبت دموعه أكثر غزارة بعد سماعه كلام أمه، رأى وجهها متراقصاً غائماً من خلال دموعه، سألتها بحنان تدفق فجأة في صوته: أحقاً هذا الكلام يا أمي، أحقاً تعتبريني حساساً.

أمسكت يده، قبلتها، أحس بشفتيها تحرقان ظهر يده... تهاوى كيان ضخم في داخله وتحطم أتقبل يده المجرمة تلك المرأة الطاهرة، وهو المجرم الآثم، عالجيني يا أمي، داوني، ارشقي حبك فوق جراحي عساني أشفي، لكن، لاشفاء لي، القاتل لاشفاء له، لأن الميت لا يمكن أن يعود إلى الحياة ثانية.

بكت الأم، حاولت أن تصدق أنه متعب، وأن روحه محتقنة بأوجاع قديمة بعيدة، حاولت أن تداعبه متجاوزة انفعالها الأليم، قالت: بالطوفان دموعك حين تبكي، لقد استهلكت علبة مناديل ورقية كاملة.

أغمض عيني، أحس بتورم أجفانه من ثقلها، تمثلت في ذهنه أهداب أسامة الحريرية المسدلة كأنها مروحة من حرير، شرخت روحه شقها خرساء، انطلقت من غرف روحه المهجورة.. أسامة أسامة...

- قم إلى سريرك يا جيبني، اهدأ وحاول أن ترتاح، وجد نفسه يجرق قامته إلى سريرها مستأنفاً حفلة دموعه المنسكبة على وسادتها، جلست بجانبه تمسح شعره بحنان لم يشعره في حياته، ولم يتوقع أن تقدر يد بشرية أن تسكب كل هذا الدفء والشفاء في روحه... كيف أغفى؟ هل بلغت المهدئات تأثيرها الأعظمي، أم أن عاصفة الدموع خففت توتر روحه أم بسبب تلك اليد الحانية الشافية التي مسحت طويلاً على شعره حتى هدأت هيجان روحه المذعورة لكنه حين فتح عيني، أحس بصداع فظيع يتفجر في رأسه، أحس جمجمته مزروعة بالمسامير، رآها تنام بكامل ملابسها في سرير والده، وتنفسها بطيء منتظم إنما يدل على إرهاق شديد... هاهو الفجر يتسلل من شقوق النافذة، ذهنه صفحة

بيضاء، بدا له البارحة يوماً بعيداً بعيداً تفصله عنه قرون، أول جملة تفتقت في ذهنه المتسمم بالمنومات: أسامة ميت. ابتداءً نهاره من هذه الحقيقة، وسينتهي بالتأكيد بها، كم من صباحات سيبدوها كل يوم بحقيقة مرّة كالعلقم... لم يعد لتلك الحقيقة وقع الفجيرة في روحه، إن عذابه يأخذ منحى آخر، ليفتك به بتهملي وتأن. ما كان يريد أن يفوت دقيقة إلا ويتعذب فيها، كل طاقات روحه تجندت واتخذت وضعية الاستسلام أمام سياط الألم، مرحباً بالعقاب، ليفتك بي على مهل حتى أنتهى. حاول أن ينسل من سرير أمه دون أن يصدر أية ضجة، لكنها فتحت عينيها قبل أن يقف على رجليه وسألته: كيف حالك يا حبيبي، قال: بخير، سوت شعرها بيديها وقالت: سأعد لك القهوة وكأساً من الحليب، أنت لم تأكل شيئاً طوال البارحة، قال: لأريد أن آكل الآن، سنشرب القهوة معاً.

- حاضر يا حبيبي، أتعرف، لم أصدق عيني البارحة حين وجدتك تلوذ بسريري كطفل صغير، أتذكر كم كنت تحب أن تغفو بجواري، كيف كان والدك يعاتبك ويقول لك: لماذا تندس دوماً في سرير أمك ولا تندس في سريري، فنقول: لأعرف، سرير الماما مختلف.

رشفا القهوة وصداعه يذيقه ألوان الألم الصارخة والصاخبة، حاولت أمه استعادة يوم البارحة لمعرفة سبب انهياره الغريب، لكنه منعها بلطف في البداية، ثم بغضب عن طرح أي سؤال مغلفاً المشاهد الملتهبة والغامضة للبارحة بعبارة تعب قديم متراكم. فكر ألا يذهب إلى المشفى، إنه يحس بالرعب يتعاظم في روحه، لكن إلهاماً ملحاً أجبره على الذهاب، ما كان قادراً أن يركب قدميه ويقود نفسه إلى مشفى الرخام لأن جسده لا يزال مسموماً من تأثير الأدوية المهدئة، نقله التكسي من باب بيته إلى الباب الحديدي للمشفى، وحين نقد السائق أجرته قال لصورة أسامة المرتسمة أبداً في ذهنه: هذا المال من ثمنك يا أسامة... تمثل له الرعب كفاً حديدية تنقض على كتفه، وهو ينحني ليخربش توقيعه، توقع أن يرمقه الجميع بنظرات ارتياب، فهو القاتل، وحين اعترض الأذن

طريقه ليسلمه ورقة مطوية، تقصفت فرائصه رعباً وهو يقرأ بعين خياله المكتوب في الورقة، سيستدعيه القضاء للمثول في المحكمة لأن جريمته اكتشفت، تسارعت دقات قلبه بسرعة جنونية وهو يفتح الورقة ليقرأ بأن إجازاته الساعية تجاوزت الست ساعات لذلك تعتبر بالقانون يوم إجازة إدارية...

جعد الورقة ودسها في جيبيه، جلس في استراحة العمليات منتظراً التعليقات، بادره زميله:

- قدرت انزعاجك الشديد البارحة يادكتور كريم، بسيطة ياأخي، كثيرون يموتون من التخدير، احمد ربك أن والده فقير مسكين، ولم يشتك لإدارة المشفى.

علق زميل آخر: افرض أنه اشتكى، ماذنب الأطباء، الطفل مصاب بالتأكد بنقص في الخمائر لذلك لم يتحمل التخدير ومات.

علق جراح ثالث: الأهل الأغبياء لا يفهمون بالمنطق العلمي.

تدخلت ممرضة معلقة: معك حق لكنهم يعتبرون كل شيء قضاء وقدرأ. أصّر الجراح الثالث: ليس دوماً، فهناك أشخاص شرسون يتمنون أن يجزوا الطبيب إلى المحاكم طمعاً بتعويض. ضحك طبيب التخدير قائلاً: تعويض!! أي غبي يطمع بطبيب في هذا الزمن؟ والله الطبيب يحتاج لصدقة. قال الجراح الأول:

معك حق، إيه مابك صامت يادكتور كريم، أتعرف، لقد أدهشتنا بانفعالك الشديد البارحة، في الواقع لم نكن نعرف بأنك إنساني لهذه الدرجة.

انفجر كريم ضاحكاً، استغرب أنه لا يزال قادراً على الضحك، أحس بشعور يعربد في داخله يتخذ صورة مسخ مشوه، يمد لسانه الطويل كأفعى، هازئاً بالأطباء... لكأنه يقول لهم:

- أنا إنساني، ماذا لو تعرفون الحقيقة!

- أحس بضرورة التفوه بأي كلام خاصة بعد ضحكته المجلجلة قال:
- والله لاتصدقوا لو قلت لكم أنني تمنيت لوأموت بدل هذا الصغير.
- علت صيحات الاستنكار: طول بالك يارجل.
- الأعمار بيد الله يادكتور كريم.
- ماذنبك أنت في وفاته!
- إرادة الله يادكتور كريم.
- والله نحن نموت كل يوم مئة ميتة.
- احمد الله، أن الأهل مساكين وفقراء ولم يثيروا الموضوع في المحاكم.
- أنت لاعلاقة لك أبداً، لقد توفي قبل أن تباشر بالعملية، و..
- بالله عليكم، غيروا هذا الموضوع، مللنا من أحاديث النكد والمصائب.
- وعن أي شيء تريدنا أن نتكلم.
- عن أي شيء، عن المسلسل اليومي مثلاً.
- علت الضحكات، تحوّل الحديث حالاً إلى مناقشة أحداث المسلسل اليومي... والذي يتفق الجميع على تسميته بالأفيون اليومي غمز أحد الأطباء قائلاً: في الواقع المثلة سوسو تاخذ البطولة المطلقة في ثلاث مسلسلات متتالية قال آخر: تكون عشيقة المخرج بالتأكيد.
- علق طبيب التخدير: بل عشيقة المنتج على الأغلب.
- تساءلت ممرضة: ياإلهي كيف تفكرون، كل ممثلة تعتبرونها عشيقة رجل متنفذ، كذلك كل مذيعة وكل امرأة ناجحة. ضحك الأطباء وقال أحدهم: لأن هذه هي الحقيقة ياعزيزتي.
- وأنت ماأدراك يادكتور، هل تعيش بينهم؟.
- ليس من الضروري أبداً أن أعيش بينهم، فكري ببساطة، شابة ناشئة

لا علاقة لها بالفن تتسلم أدوار البطولة دفعة واحدة، ولا تجيد التمثيل إطلاقاً،
كيف تفسرين هذه الظاهرة؟

أعفاها طيب من الجواب: إما مدعومة أو عشيقة، نظر إلى المريضة
متسائلاً: هل من احتمال ثالث.

قالت بدهاء أذهلهم: أجل هناك احتمال ثالث.

- وماهو، نورينا؟

- البطالة. مثلي ومثلكم لاعمل لنا.

- معك حق، والله أنت مذهشة، لكن البطالة سبب أساسي لتصير عشيقة
أولاً ثم ممثلة دخل طيب جراح، قدمت له المريضة مقعداً ليجلس، دوماً هناك
نقص في عدد المقاعد، شكرها، ابتداء الكلام: أما سمعتم بالفضيحة في مشفى
الروضة الخاص؟

- أية فضيحة.

- توفيت شابة أثناء عملية الإجهاض.

- مسكين طيب النسائية.

- بل مسكين طيب التخدير.

أوضح صاحب الخبر شارحاً: لم يكن هناك طيب تخدير، بل مساعد
طيب التخدير.

- وما سبب الوفاة؟

- تعددت الأسباب، والموت واحد.

- تورط المشفى في مصيبة.

- يقال أن الموضوع قد يلم ويستر عليه لأن المتوفاة أنسة.

- أنسة؟!!

- أجل طالبة جامعية في سنتها الأخيرة كما فهمت، في هذه الحال، ليس
من مصلحة الأهل إثارة الفضائح.

انطلقت أكثر من صيحة موافقة، معك حق، معك حق، الشرف فوق أي اعتبار.

قالت ممرضة: مسكينة تلك الفتاة، دوماً المرأة تدفع الثمن، الخنزير سبب المأساة يمكنه أن يخطب ويتزوج بعد أيام. قال طبيب: أنت دوماً حاقدة على جنس الرجال، ماذنبه الرجل إن كان لا يحمل!! قالت: وماذنب المسكينة تموت بسببه؟

- لكنها لم تمت بسببه بل بسبب الإجهاض؟.

- لو تزوجها لما فكرت بالإجهاض؟

- وما أدراك ما حقيقة ظروفه أو ظروفها، لعلها هي التي ترفض الزواج منه.

- أي كلام غير معقول هذا؟ في هذا الشرق الذي يسحق المرأة بألف طريقة وطريقة، أيمن لشابة تحمل من شاب أن ترفض أن يتزوجها؟! كن منطقياً يادكتور.

- والله ممكن، قد يكون لها طموحات وتطلعات، لا يستطيع شاب مسكين أن يحققها!

انبرى طبيب: دعونا من هذه الأحاديث العقيمة، المهم أكمل لنا تمة الفضيحة، ألم يستدع الطبيب الشرعي لتحديد سبب الوفاة.

- كما فهمت أن طبيب النسائية هرب، وبأن طبيب التخدير ويتحمل مسؤولية، لأن مساعده يعمل تحت حماية المخدر المتعاقد مع المشفى، والأخير كان في مزرعته، أما المتورط الحقيقي فصاحب المشفى.

- وكيف سيتصرف!؟

- سيحاول التكتّم على الموضوع ودفنه، دون إثارة المزيد من الأقاويل والإشاعات.

ضحكت الممرضة: كل شيء ممكن عدا تحديد الشائعات في هذا البلد. لأن الشائعات هي خبزها اليومي.

- معك حق، لكن كل شيء يأخذ حده وينطفئ بعدها، غداً نسمع مصيبة غيرها تنسينا هذه الكارثة.

قالت المريضة: لو كنا في أوروبا لقبض أهل الشابة الملايين كتعويض عن وفاة الشابة.

- قلنا لك أن الميتة آنسة، وليس من مصلحة الأهل إثارة الفضائح، لعلهم مرتاحون في أعماقهم لوفاتها.

كان وقع كلمة وفاة مدمراً على كريم، غادر حلبة الثرثرة وفرّ من الباب الحديدي لمشفى الرخام.

إنه اليوم الثاني بعد وفاة أسامة، إنه يمشي ويفكر به، لا يصوره خياله إلا ممدداً على سرير العمليات غافياً، حاول استحضار صورته كيف دخل عيادته، وفحصه، لكن الصور كانت غائمة وسريعة الهروب صورته مسجى هي الغالبة، لم يشعر أبداً بثقل جسده كما الآن، يحس أنه مشدود بقوة إلى عمق لأرض، أتراه يرغب أن يغور في عمقها ويرتاح، أن يلحق بأسامة المسكين، تساءل:

ترى أئن يقصدني والده في عيادتي الخاصة، وكيف عساني أواجهه؟ أقسم أنه سيعطيه راتبه كاملاً وسيقول له: هذه عن روح أسامة... وما ضرورة المال بالنسبة له بعد أن مات الصغير وماتت معه روح الطبيب. فطن كيف انطفأ إحساسه بالجوع تماماً منذ الكارثة، استحضر في ذهنه صنوف الطعام الساخنة والطيبة، لكن الغثيان قلّص معدته بشدة، إنه غير قادر على ابتلاع أية لقمة، لكنه يطلب القهوة يرشفها ببطء وتمهل ربما يرتاح لسوادها، لارتباطها العميق بالأحزان والمآسي، لأنها طقس وحدته الأثير، ولها طعم خيابه وأحزانه، ما كان قادراً على التوجه إلى عيادته، وتخيل أن أسامة سيدخل عليه مجدداً مع والده، وسيفحصه، وسيوسوس له الشيطان كي يقوده إلى العملية، وسيكرر المأساة ويموت الصغير.. هاجمته دموعه لاذعة بسخونتها، آه يا أسامة، جلس في مقهى رصيف وطلب القهوة، لا يزال ذهنه يحاول الاستيقاظ من تأثير المنومات الكثيفة التي ابتلعها دون رحمة، فكر أن كمية الحبوب التي ابتلعها مع

النبذ إضافة للإبرة التي زرقها في فخذة كان يمكن أن تثبط تنفسه وتقتله، حدث نفسه: ليتني مت... رشف القهوة واجداً عزاء قوياً في سخونتها، في دفعها الأصدق من دفع البشر، القهوة أدفاً من سلوى أكثر حناناً وإنسانية من تلك التي تلهث وراء الدولار... تخيلها بعيدة بعيدة، تشتري وتخزن وتلتمع عيونها الزجاجية فرحاً بالتملك، وهو منفي لاتفكر به وبظروفه، لو تعرف بحاله الآن؟ لو تستطيع قوة ما أن تقذفها من غربتها لتنقلها إلى أخيها تتفرج عليه في انهياره... ترى ماذا ستفعل؟ صورها خياله بأنها ستظل جامدة وسترمقه ببرود وحقد بعينها الخضراوين الجميلتين، ولن تندم كونها لم تساعد ولم تسمح له بتأجير مكتبها!

غرق في ندم تدفق في روحه بكثافة، عارفاً أنه سيجرجر ندمه طوال حياته، كم يحزن لزمانه قبل أن يغدو قاتلاً، ياه كيف تكون السعادة بين أيدينا ولانشعر بها، ماالذي ينقصه؟ الأيتمتع بالشباب والصحة والعلم والاكتفاء، فلماذا يتورط في جريمة؟ لماذا يقود طفلاً بريئاً من يده إلى غرفة المذبح مقابل بضع ليرات!! أقرّ لنفسه أن حياته ستصير مدلهمة بعد تلك المصيبة، وبأن زمنه انقسم تلقائياً إلى قسمين، قبل الجريمة وبعدها. كيف عساه يعيش بعد تلك الواقعة؟ كيف يتأقلم الإنسان مع كونه قاتلاً؟ تساءل بكل قوى روحه الواهنة: كيف يعيش القتلة؟ ألالاحقهم وجوه ضحاياهم؟ كيف ينامون؟ كيف يأكلون؟.

طلب فنجان قهوة آخر، رشفه على مهل، واجداً المزيد من العزاء في دفع الشراب الحزين حدث نفسه: القهوة يجب أن تكون سوداء، أجبر نفسه على الابتسام كي يحس بقدره عضلاته على التقلص، على الحركة، ليستنتج أنه لا يزال حياً. إنه يشعر أنه ليس حياً. إنه يشعر أنه ليس حياً وليس ميتاً، حالة بين بين ربما كحالة معظم البشر، فكر بطبيب النسائية الذي توفيت بين يديه الشابة التي يجري لها إجهاضاً. المسكين يتعذب مثله بالتأكيد، لكن الشابة متورطة وترغب بالإجهاض، وهو لم يورطها بعملية وهمية، أما هو فقد قاد طفلاً سليماً إلى غرفة العمليات ليقتله... شتان بين الحالتين. عبثاً يعزي نفسه طبيب النسائية

ليس قاتلاً أما هو فقاتل، وقاتل قدر أيضاً، لأنه لم يقتل بالصدفة أو دفاعاً عن النفس أو بالخطأ، بل خسّتها قتل لدناءة روحه وحسنتها، كان يملك فرصاً للتراجع... تذكر الجملة الرائعة التي كان يستشهد بها في جلساته مع رفاقه في مقاهي الرصيف (ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه) إنه لا يقولها الآن بصوته بل يكتبها بدمه... يفتت جسمه ويكتبها بأشلائه.

دفع ثمن القهوة للنادل من ثمن أسامة، من ربح الجريمة، سار بخطا ثقيلة كأن عقبيه مربوطان بسلاسل من حديد متسكعاً في الشوارع، كرر التساؤل الصعب لنفسه: كيف ستعيش زمناك بعد أن غدوت قاتلاً؟ أيعقل أن يتأقلم الإنسان مع هذا الوضع؟ كان يتفرج على المشاة بغرابة متعاضمة وهو يتساءل: هل أنا من طينة هؤلاء البشر؟ ترى كم قاتل بينهم؟ وكم مقتول؟ يجب أن يصنّف البشر إلى قاتل ومقتول، فيما مضى كان يصنّفهم إلى غني مستغل وفقير مظلوم آه مأتفه تصنيفاته. كانت أمه تنتظره على الغداء مدارية قلقها وراء قناع من المرح المصطنع، حدثته وهي تسكب السبانخ الساخنة في الصحن بأن أخته اتصلت وألحت أن يسافرا إليها هذا الصيف، وبأنها مشتاقة كثيراً لأخيها الحبيب، ودّ لو يسأل أمه: من تكون سلوى هذه؟ مارأيك بها يأمي؟ لكن فمه ظل مطبقاً لا يعلّق بكلمة، لم يستطع أن يتلع لقمة أيضاً. أحس بحرج شديد من أمه وهو يرمق الطعام ويحس بعجز عن تناول لقمة، ألقى نفسه في لجة الكذب قبل أن يحضّر كذبه، وجد نفسه يقول لها: لأعرف كيف أعتر منك يأمي، لكنني مدعو للغداء، الدكتور محمد أصر على دعوتي.

قالت معاتبة: هكذا يا كريم، يمر يومان لاتذوق فيهما طبخي؟

- آسف يأمي.

أسرع بالانصراف، هام في الشوارع المزدهمة، أراد أن يغيب في فوضى الزحام، استوقفه عمال طرق الحديد المحمي وصياغته بأشكال عديدة، كان يهرب من صوت المطرقة اللعين كما يسميه، الآن يحس براحة وهو يراقب المطرقة تنهال بقسوة هائلة فوق صفائح الحديد، ضميره يأخذ دور المطرقة...

أدهشه كيف تعطل نهائياً شعور الجوع عنده، أحس بانخماص بطنه وبتناقض وزنه، ليت وزنه يستمر في التناقص حتى يتلاشى تماماً...

كانت صورة أسامة مسجي تلاحقه باستمرار، أمام عينيه حيثما نظر، تمنى لو يتخيله حياً، حاول استحضار صورة الصغير لون عينيه، لحظة دخوله إلى العيادة، لكن ذاكرته فشلت في استعادة اللقطات، حتى نعمة بكاء الصغير لايتذكرها. عاد إلى البيت بعد ساعتين من التسكع، وضع قناع المتخم من الأكل على وجهه، وهو يتجه رأساً إلى قوقعته متهرباً من أسئلة أمه المحتملة، ارتقى فوق فراشه منهك القوى، بكامل ملابسه حتى دون أن ينزع حذائه، أغمض عينيه، حدث نفسه، إنها الظهيرة الثالثة على موت أسامة، ابتداء عهد جديد في حياته له توقيت جديد، ثناء بعمق مرات كثيرة، أحس أنه يفرق في غيمة وردية دافئة تشبه (الغزل) الذي كان يلتهمه وهو طفل، حلم أنه طفل صغير يتلقى هدية نجاحه من والده، ساعة أوميغا جميلة مستطلية، لبسها سعيداً، وأخذ يعرضها متباهياً بها أمام أصدقائه، فجأة تحول رسغه المزين بالساعة إلى رسغ أسامة، يقبض عليه بقوة وهو في غرفة العمليات، يحاول يائساً أن يشعر بنبض الصغير، لكن عبثاً فتح عينيه مذعوراً، كان منامه حسياً لدرجة أحس أن حواسه كلها تيقظت وبأنه حبس فعلاً رسغ الصغير كانت راحته اليمنى متكهربة من اللمس، إنها المرة الأولى التي يبصره في منامه، بالعذاب الكوايس، في صحوه ونومه يتعذب، كان قلبه يتقلص بقوة وغضب، وكأنه يقذف بسيل من الشتائم مع كل ضربة.

نظر في ساعته، كان قد أغفى ساعتين، قام ينظر إلى نفسه في المرآة، هاله شحوبه بدا متجففاً، تذكر أنه لم يأكل، ولم يشرب ماءً أيضاً، إنه لايشعر بالعطش أبداً، نسي أنه يملك جهازاً هضمياً، نسي كل شيء سوى موت الطفل، سأله صورته في المرآة: لماذا لا تقتل نفسك وترتاح من هذا العذاب؟ لم يستطع أن يواجه نظرة الكائن الآخر له الذي انفصل عنه واحتمى بالمرآة، نظرة الكائن الآخر حزينة بشكل لا يوصف، يائسة حتى الموت.

تساءل: ترى أليحق للإنسان اختيار لحظة موته؟ ولماذا يعتبر الإنسان قاتلاً إذا قتل نفسه؟ مامعنى الحرية إن لم أستطع اختيار لحظة موتي؟!!

هرب من الكائن الذي يشبهه تماماً، ودّ لو يكسر المرآة كي يغيب هذا الآخر، لكن صورته ابتسمت له بسخرية قائلة: كيف أغيب؟ من سيعزيك غيري؟ لمن تقدر أن تبوح له بسرّك سوى؟ مع من ستتكلّم عن هذه المشكلة؟ بصق في وجه الكائن الآخر قائلاً بحنق: أنا أكرهك.

رد الكائن الآخر: أتكره نفسك لهذه الدرجة، حرام عليك يارجل، ارحم نفسك.

رد بنزق: اخرس ياوجه النحس.

دعته أمه لشرب القهوة قبل أن ينطلق إلى عيادته، وجد نفسه يحكي لها عن موت الشابة أثناء عملية الإجهاض، حام حول جواب أمه ليتلمس خطاه جيداً في التعامل مع مشكلته، بعد أن سألتها: أمي كيف سيعيش طبيب النسائية بعد هذه الحادثة؟ سألته: لم أفهم قصدك.

- أقصد كيف سيتحمل عبء وفاة الصبية؟

ردت ببساطة وكأنها لم تعمل تفكيرها: لو كان صاحب ضمير ستلاحقه هذه الحادثة مدى حياته. هزته رعدة قوية، تحامل على نفسه وسأل: أليس من سبيل للخلاص ياأمي من فعل القتل، إنه قاتل برأيك أليس كذلك؟

- ألم تمت بسبب الإجهاض ياابني، رحمها الله، لماذا أخطأت بحق نفسها وجرتها إلى هذا المصير.

ألح في سؤالها: أتعتقدين أنه لن يستطيع أن ينسى مدى حياته أنه تسبب في موت الشابة وبأنه قاتل؟

- بل سينسى، من ضميره صاح لهذه الدرجة في هذا الزمن؟.

- معك حق، قالها لأنه شعر أن من ضرورة الحوار أن يقولها، انصرف إلى

عيادته واضعاً يديه في جيبي بنطاله، متحسباً بقايا الأوراق النقدية البالية والمهترئة المتبقية من ثمن أسامة، كان ينتظر بصبر نافذ، لحظة قبض راتبه ليعطيه كاملاً لوالد الطفل... سيرف عنوانه من مكتب القبول في المشفى وسيقصده، سيتعرف على أخوة المرحوم وسيتخيله كيف يلعب معهم، لو كان حياً الآن لكان يلعب مع إخواته و أولاد جيرانه، سيتورد وجهه ويلهث ويضحك، سينبطح أرضاً وسيشعر بالجوع والعطش، سيأكل الطعام الفقير، ثم سيفوق قرب إخوته، يدفنون بعضهم بعضاً... الآن كل هذه الصور الناضجة بالحياة ماعادت ممكنة، وصل إلى عيادته، أدهشه أن مريضين بانتظاره، تمنى لو يعتذر منهما، لكنه لم يجد حجة مناسبة، قبض المال وهو يشعر أنه يتسلم تعويذة الشيطان الوحيدة.. كتب في دفتر مذكراته تلك الحقيقة التي تكشفت له فجأة: المال تعويذة الشيطان.

خبأ المبلغ في الدرج، سيعطيه أيضاً لوالد الطفل المغدور، وجد نفسه يقلب صفحات دفتر مذكراته، كل ما هو مكتوب فيه، خطته يده قبل أن تتلوث بالجريمة، تنهد قائلاً:

أه كم أحسدك يا صاحب القلم، كنت طاهراً، والآن أنت قاتل....
أمسك القلم، شعر أنه فقد القدرة على الكتابة، لكنه أجبر نفسه أن يسجل تاريخ وفاة أسامة.

اقتحم جحيم عزلته مصفف الشعر، روائح الصباغ والعطور تفوح منه من يديه وثيابه، بادره:

أين أنت يادكتور، والله أحس أنه مضى دهر لم أراك.

ردّ بآلية: أنا هنا، أنت مشغول.

- معك حق، هذا الأسبوع ازدحم محلي، زينت ثلاث عرائس.

لأول مرة لم تنخزه الغيرة قال: عال، الله يزيد الخير.

قال الرجل بلهجة المتخيم: الحمد لله، غصون ابنة الصائغ اعطتني عشرة

آلاف ليرة لقاء تصفيف شعرها وطلتي وجهها بالماكياج... ياإلهي هؤلاء الناس

يحتارون كيف يبددون المال، ضحكك ثم تابع.. على كل لم يتعبوا في الحصول على المال؟ ضحكك متباهياً بالثراء الفاحش الذي حققه من وراء رؤوس السيدات الفارغة:

- إلى حد ما، لكن الدخل ممتاز في هذه المهنة، الحمد لله.

ماعاد يطيق تحمل جاره، استأذنه بالانصراف بحجة أن إسعافاً في المشفى بانتظاره. تمنى لو يستطيع الفرار إلى الأبد خارج مبنى العيادة، وألا يعود إليه مدى الحياة، في هذه العيادة المنحوسة وسوس له الشيطان وأغواه أن يجري عملية للصغير ليقبض المال، وجد نفسه يدخل أول صيدلية، ويشترى الحبوب المنومة والمهدئة، عليه اعتباراً من الآن أن يزود نفسه بتلك الأدوية لتعينه في تحمل زمنه الجديد الذي دشنته بجريمته النكراء.

حين فتح عينيه صباح اليوم الرابع لوفاة الصغير، كانت الأشياء حوله تدور، لم يكن قادراً أن يحرك عضلة في جسمه، حتى عينيه كان يغلقهما إعياء، ويفتحهما بعد جهد ليعاود إغماضهما، خسر خمسة كيليات من وزنه لأنه لم يأكل شيئاً منذ وفاة الصغير، كان يشرب القهوة مراراً، ويفرق جسمه في المهدئات والمنومات ليلاً، ليحلم بأسامة مسجى دوماً على السرير.

ليلة البارحة كان حلمه رهيباً، حلم أنه جالس في عيادته يقرأ في مجله سخيفة، فاجأه طفل صغير في العاشرة من عمره، يشكو من وجع في صدره، حين طلب إليه أن ينزع قميصه ليفحصه بعد أن طلب إليه أن يتمدد على سرير الفحص، وجد كتلة حمراء بارزة بحجم الإجاصة تحت ثديه الأيسر، كان قوام الكتلة ليناً طرياً، نظر إليه الطفل نظرة ساخرة وشجاعة وقال له: انزع لي قرص البندورة هذا، أمي توحمت على قرص بندورة وهي حامل، ولم تأكله، فنبت في صدري... نظرة الجنون هذه جعلت قلبه يرتجف، لكنه تغلب على رعبه بأن أمسك الكتلة بقوة وأغمض عينيه وحاول اقتلاعها بكل قوته، فنجح، أحس

بقوامها الممتلئ يملاً راحته، وبسائل لزج يسيل من بين أصابعه، حين فتح عينيه ليرى مكان اقتلاع الكتلة، وجد أسامة مسجى على السرير ميتاً، مسبل الأهداب، أفاق مرعوباً من الكابوس...

أمر نفسه أن يحرك ساقيه فلم يستطع، وأن يشد قبضته، فحرك أصابعه قليلاً، كان الوهن يهده، عليه أن يتحامل على نفسه ويقوم من الفراش، نظر في ساعته، إنها السابعة، ستكون أمه مستيقظة، إنه يعرف عظيم قلقها، تمنى لم تزيح غمامة الحزن عن روحه، حين أرغم نفسه أن يقوم من فراشه، أحس لأول مرة بعد الكارثة التي ألمت به بخفة جسده، ربما لأنه خسر بضعة كيليات من وزنه، أو لأن صيامه القاسي مع المهدئات التي يتلعبها بكثافة جعلاه يشعر أنه منسلخ عن ذاته، لم يعد الدكتور كريم يزعجه، إنه أقرب للحالة النوارنية، بدت له تلك الحادثة المشؤومة لاتعنيه، وحياته كلها لاتعنيه إنه يشعر أنه من طبيعة شفافة، خفيفة، أشبه بالأثير، ربما غريزه الحياة دفعته لشرب كوب من الحليب، تذكر مساء البارحة حين قلبى أيضاً ليوهم أمه أنه يأكل، لكنه رماه في القمامة. شرب الحليب وهو يشعر أن روحه تستيقظ من سبات ثقيل، لكن معدته أخذت تؤلمه، يبدو أنها اعتادت على الراحة طوال تلك الأيام.

حين جلس مع أمه يرشف قهوة الصباح ويحس بأنظارها المتفحصة عليه، تكشفت له على حين غرة فكرة أذهلته وهي أنه ليس سوى حلقة في سلسلة طويلة طويلة، لها ارتباط بالحلقات التي قبلها والتي بعدها، ليس صحيحاً أن الشيطان وسوس له في لحظة معينة ليحول الطفل إلى غرفة العمليات وبعد أيام مات الصغير، الحدث ليس محصوراً بأيام، بلحظات، إطلاقاً، وإذا نظر إلى هذه الحادثة بالمجهر الإلكتروني، فسيرى في عدسة المجهر حياته كلها مذ كان طالباً على مقاعد الدراسة وحتى دخوله كلية الطب، وسيكون لوالده مساحة كبيرة في ساحة المجهر، الرجل ذابت روحه في الدروس الخصوصية، ليؤمن لابنه الطبيب الاختصاصي عيادة، عيادة لا يقصدها مريض، والطبيب ينتظر بصبر الحمير ويحلم أحلام يقظة لانهائية إن دخل عيادته سيتحسن، ويسير بكآبة ويأس عظيمين كل يوم إلى المشفى ليتحول لمجرد خربشة في دفتر يفتح دفتيه....

سنوات طويلة، أو حلقات متتابعة جعلت روح المسكين محتقنة ومريضة وغير قادرة على التميز، حتى وجد نفسه محشوراً في زاوية ضيقة يلهث، سطعت في ذهنه الحقيقة دفعة واحدة، أجل أنا لست سوى حلقة في سلسلة، دبّ النشاط في جسده الرخو، أخذ يشعر كيف تستعيد أطرافه دفئها، هاله العذاب الفظيع الذي ذاقه في الأيام المنصرمة، تنبه لأمه تسأله:

- ألن تحلق ذقنك اليوم وتستحم.

قال: - أجل.

خاف أن يسقط في الحمام بسبب رخاوة جسده الشديد، لكنه حلق ذقنه وهو يتأمل صورته في المرآة، من هذا الكائن الآخر الذي يحسه انشطر عنه ليؤاسيه، ليحمل وزر خطيئته أو ليتبادلا الأدوار في حمل الجرم، ياللعينين الداكتين، ماأشد سواد حزنهما، بدت له أهدابه أطول مما هي في العادة، وأحس شحوبه أشبه بشحوب أيقونات القديسين، سخر من نفسه حين وصل ذهنه إلى القديسين، لكنه تذكر قصة القديس سلوان، ذلك الراهب الرائع، الذي ارتكب في شبابه جريمة قتل وحادثة زنى! وقضى حياته كلها محاولاً أن يتطهر مما اقترفت يده، سيعاود قراءة هذا الكتاب، عسى القديس سلوان يدلّه إلى طريق الخلاص، أترأه قادراً أن يخلص من جريمته؟ وكم سيحتاج من زمن؟ وهل سيرجع إنساناً سوياً؟. قبض راتبه، لن يسعد بعد الآن بقبض الراتب أبداً، لن يشعر بنكهة أي شيء بعد موت الصغير، قصد مكتب القبول، وطلب من الموظفة أن تدله على عنوان أبي الطفل أسامة جولاق، كتب العنوان على قصاصة ورق، وخرج من المشفى وقلبه يطرق، كيف سيواجه الأب والأم والأولاد... تخيل أن إخوة أسامة يشبهونه وكأنهم نسخة منه، سيستطيع من خلالهم استحضار صورته حياً في ذهنه. أوقف سيارة أجرة، وطلب إلى السائق أن يوصله إلى العنوان المكتوب في قصاصة الورق.. قاده السائق إلى أحياء شعبية تضيق تدريجياً وتزداد قذاراً، تذكر بيت آمنه، طفت صورتها في ذهنه أليفة، شديدة الوضوح أحس أنها الوحيدة التي يقدر أن ييوح لها بورطته، ترجل من سيارة الأجرة، كان الطريق ترائياً وجمهور من الأولاد يلعبون حفاة بكرة

القدم - هاجمته الدموع وهو يتخيل أسامة يلعب بينهم. سأل أحد الأولاد:
- أتعرف منزل سليم جولاق؟ أشار الصبي إلى باب خشبي أخضر قال:
هناك.

سأله بصوت مرتعش: إنه والد الطفل أسامة، أليس كذلك؟
أجاب الطفل: الذي مات؟ أجل إنه والده.

انحبست أنفاسه وهو يسمع الطفل يعلن له الحقيقة بشكل مختلف تماماً،
صار اسم أسامة، الصبي الذي مات، وقف أمام الباب الأخضر الذي كان
موارباً، ومن خلاله لمح ثلاثة أطفال حفاة يجلسون على حصير، كلهم أصغر
من أسامة، يلعبون بالبصل الذي نثروه، وأخذوا يتقاذفونه ككرات، طرق الباب
بنقرات خفيفة، فهول صبي شديد الشبه بأسامة ليقول بصوت جهوري قبل أن
يفتح الباب كلياً: من؟ لم يجب حتى تواجه مع الطفل، اجتهد أن يتسم في
وجه الصغير، لكن جسده خذله، أخذ يرتعش بقوة خاصة عضلات فخذه التي
بدأت تتقلص بسرعة عجيبة، كأنها ترقص على إيقاع سريع، عجز عن رسم
الابتسامة التي طلبها من وجهه، لكن صوته انطلق أخيراً يسأل: هل والدك هنا؟
قال الطفل: لا، إنه في العمل، من أنت؟

لم يستطع أن يقول بأنه الطبيب الذي تسبب بموت أسامة.
سأله. وأمك، أين هي؟

أشار إلى غرفة مظلمة داخلية، قال في الداخل تطبخ. - حسناً، نادها
لوسمحت.

- لكن من أنت؟.

أطرق بخجل وأعلن بأسف شديد: أنا الطبيب.

رمقه الطفل بنظرة عتاب، وقد غشي الحزن عينيه فجأة وقال: طبيب أخي
أسامة.

- أجل.

تبادلا نظرة طويلة، عينا الطبيب تتوسلان للطفل أن ترحماه، وفي عيني

الصغير عتاب وحزن طفولي يذيب الفولاذ، انصرف الصغير لينادي أمه، ظهرت بعد برهة امرأة تحكم وضع المنديل على رأسها، حافية أيضاً كانت أقرب للأشباح بالعباءة الخشنة الواسعة التي تلبسها لكنه استطاع أن يميز هزالها الشديد، وقفت بالباب لم تنظر إليه، شعر بها كيف لاتستطيع النظر إلى وجهه، كان صمتها أقوى من أي تقريع، كان يتمنى لو تشتمه وتصفعه، ولم يعرف كيف سيبدأ الحديث معها، تمنى لو يفرغ بطانة جيوبه من كل ما يحمله من مال، ويرميه عند قدميها دون أن يتفوه بأية كلمة، ثم يفر هارباً، كان الصمت بينهما ثقيلاً مشحوناً بأمر غير معلنة، تمنى لو تنهد حتى، لو يسمع صوت تنفسها، لكنها ظلت واقفة كتمثال... أسعفه صوته أخيراً بتشكيل الحروف ولصقتها، ونطقها: - لقد أخذت عهداً على نفسي أن أزوركم و... توقف عن الكلام، بدت له جملته مخجلة ومضحكة، أي عهد هذا قطعه على نفسه، أحس أنه متورط عليه أن يتابع الكلام. قال: لاتصوري مدى حزني على موت الصغير، لو ماتت أمي لما تعذبت كما أتعذب الآن، داهمه عبث جنوني أن يعترف بالحقيقة، لكن صوته الذي غدا رخيماً ورائقاً استمر يرسم دوائر من الأمان الزائف حول الأم، لقد نذرت أن أقدم لآخوته مبلغاً من المال كل شهر.

لم ترفع نظرها إليه، ولم تنطق بكلمة، توقع أن تقول له بأن زوجها غائب ولاتستطيع أن تقبل شيئاً في غيابه، توقع أن تبكي، وأن تلعن الساعة التي قبلت أن يدخل ابنها غرفة العمليات لكنها ظلت مطرقة... خرس أمام حزنها المهيب، تلاشت الكلمات، أخرج راتبه كاملاً من جيبه، رغم أنه كان قد قرر أن يترك خمسمئة ليرة ثمن سجاثره والموصلات الضرورية... لكنه قرر في تلك اللحظة أن يهبها راتبه كاملاً. مدّ لها المبلغ بعد أن طواه بشكل يأخذ أصغر حجم ممكن وقال تفضلي. لم تمد يدها، ولم ترفع نظرها إليه، لكنه لمح خطين من الدمع يسيلان على خدها ويسقطان قطرات كبيرة على الأرض الاسمنتية بين قدميه وقدميها، يده لا تزال ممدودة. اختنق صوته، كاد يكون متأكد أن حلقه حديد حقيقية تشكل الآن في حنجرتة، ترى من أين تجمعت ذرات الحديد في حنجرتة!؟

قال بصعوبة: أرجوك اقبلي هذا المبلغ عن روح أسامة. أرجوك.

أمسك يدها الباردة النحيلة ودسّ المبلغ في راحتها، ولم تسعه الغبطة وهو يحس بحركة أصابعها تنكمش فوق الأوراق النقدية، تمنى لو يركع ويقبل الأرض التي سقطت عليها دموعها قال لها متشجعاً بعد أن استلمت المال: لو كرهتوني مدى العمر لن أزعل... سمع صوتها لأول مرة: نحن لانكره أحداً، الأعمار بيد الله، هذه مشيئة رب العالمين. كان صوتها صافياً، فيه قوة شفاء حقيقية، شجعه أكثر ليستأنف الحديث:

- أرجو الاتخبيي طلباً بسيطاً لي.

قالت: تفضل.

- هل لي بذكرى من أسامة، قطعة ثياب مثلاً...

رفعت إليه عينين حمراوين قالت: ليس لديه ثياب خاصة.

- ألا يوجد أي شيء خاص به.

تفكرت ثم قالت: أجل وسادة زرقاء صغيرة، إنها وسادته ودميته في آن،

إنها الشيء الوحيد الخاص به.

- أكان يلعب بالوسادة؟!

- أجل كان يحولها لحصان.

- أرجوك، هل تقدميها لي؟. رمقته بدهشة، كأنها تقول: أنا لأفهمك،

لكن أحست برجائه الحار والصادق حين نظرت إلى عينيه بعمق. أسرع

تحضر له الوسادة الزرقاء.

حين أمسك الوسادة الصغيرة، لم يستطع أن يمنع دموعه من التساقط

بغزارة أمام الأم، حمل الوسادة وأسرع هارباً مبتعداً، والطريق الترابي يتلوى

كأففى تمايل طرباً على إيقاع تساقط دموعه.

دفن وجهه في الوسادة الصغيرة الزرقاء المبقعة بدوائر مختلفة، لعلها بتأثير

دموع أسامة أو لعابه تشممها بعمق لها رائحة تشبه اليانسون، أتراه كان يشرب اليانسون قبل أن ينام، أم أن رائحته الخاصة أشبه برائحة الشراب؟ استعاد قول أمه: هذه الوسادة هي الشيء الوحيد الذي يخصه، إنه يحولها لحصان ويلعب بها؟ ترى كيف تتحول هذه الوسادة إلى حصان بأسامة؟ كيف تثبت الأرجل لهذا المستطيل الأزرق الصغير وينبت الرأس، أترى حصانك يركض ويسابق الريح؟ أي خيال جميل تمتلك يا صغيري، وانظراً الآن؟ هل تحن لوسادتك يا أسامة؟ أكنت تمنى لو يدفنها معك؟ أتراك حزيناً الآن وأنت ترى قاتلك يستولي على ملكينك الوحيد في هذه الدنيا؟ لن أفرط بوسادتك أبداً يا صغيري حتى آخر يوم من عمري... هل يرضيك يا أسامة أن أعطي أهلك المال؟ لماذا لاترد علي بكلمة. لماذا تصر أن تظل مخدراً ونائماً وميتاً في خيالي؟ استيقظ يا أسامة في ذهني على الأقل، اصرخ بي، اشتمني، عكر سلامي الزائف والآسن، إنما لاتظل هكذا مسجى فوق طاولة العمليات، غافياً إلى الأبد...

هكذا كان يناجي الصغير فيما تقلصات معدته تزداد وتصبح مؤلمة، بعد صيام عن الطعام أربعة أيام، لعلها انتعشت بعد كأس الحليب الذي تجرعه صباحاً، حدثت نفسه: أطلب جسدك الخسيس الطعام، لكنه انساق وراء إلحاح معدته وتغدى مع أمه، لاطعم لما يأكله، أحس بالشبع بعد لقمات قليلة. سألته أمه بقلق: لقد نحلت كثيراً يا كريم؟ ما الذي يعذبك يا بني؟. في صوتها لهفة ورجاء، تمنى لو يملك الجرأة ويوح لها بعذابه، لكنه لا يستطيع، لا يريد لعينها أن تصيرا صليبه الدائم، يكفيه صليبه الشخصي وكوايسه...

أحس أن أمه صارت غريبة عنه بعد تلك الحادثة، لا يعرف لماذا يشعر تجاهها بالحذر، ويتجنب النظر في عينها والتحدث إليها، حتى كلامها صار غير مفهوم بالنسبة له، فحين تحدثه عن سفرهما إلى أميركا، ينظر إليها باستغراب وكأنه يسألها: عم تحدثين؟... لم تستطع أن تقنعه بالسفر معها ماعاد قادراً أن يكلمها كالسابق، إنه يحس نفسه شخصاً آخر، عليه أن يتعرف على مزاياه، بتعبير أدق على نواقصه. بعد أسبوع من وفاة الصغير، استحم كريم، دعك جسده جيداً بالليفة والصابون، اختلطت دموعه بالماء الساخن الذي أحس

بحرارته تفوق حرارة الماء، كان يفكر أنه في استحمامه السابق لم يكن قد ارتكب جريمته بعد... منذ أسبوع كان نظيفاً من الداخل، كان يحتاج لمجرد ماء وصابون لينظف جلده من الغبار والعرق، الآن يستحيل أن يشعر بالنظافة، إنه مفصول بشرخ كبير عما كانه قبل أسبوع، حاول أن يتذكر تفاصيل استحمامه السابق للجريمة، بأية حالة معنوية كان؟ هل كان متعكراً أم سعيداً؟ تذكر أنه قد اشترى ثلاثة ألواح من الصابون المعطر ودفع ثمنها من الأربعمئة ليرة التي قبضها من والد أسامة، حدث نفسه: يجب أن أسمى هذا الصابون بصابون الجريمة. كاد يسقط وهو يفرك قدميه بليفة الحمام بسبب دوار مفاجئ داهمه، حدثه الكائن الآخر الذي انشطر عنه منذ وفاة أسامة بوجود تخفيف الحبوب المهدئة التي يتلعها بلا حساب. نصحه أن يأخذ إجازة ويرتاح، أن يتزّه على شاطئ البحر، وأن يتأمل البحر طويلاً.. لأن ليس سوى المدى الأزرق يريح النفوس المتعبة...

تذكر كيف كان يخرج من الحمام منتعشاً، عرف أنه لن يشعر بذلك الانتعاش أبداً... عجباً كيف تلقي حادثة واحدة بظلالها على حياتنا كلها، طباعنا، وشخصيتنا، فتحوله بطريقة عين إلى شخص آخر، كان يفوص منقاداً لهذه الفكرة حين نادته أمه ليكلم صديقه بالهاتف...

قال لها بنزق صريح: كل من يطلبني قولي له أنني غير موجود.

وقفت بباب غرفته، لا تجرؤ على الدخول لأنه يرشقها بنظرة لاتعني سوى اتركيني وحيداً سألته: لماذا تتهرب من رفاقك؟. قال: هكذا، لأنني متعب، لاتسألني لماذا متعب... اتركيني وشأني.

استدارت لتنصرف، تأمل قامتها الصغيرة النحيلة والحدبة المستديرة الآخذة بالازدياد بين كتفيها، تدفق حنان موجع من صدره نحوها، تمنى لو يملك الجرأة ويدفن رأسه في صدرها، ويحكى لها كل شيء، كل شيء... لكنه دفن وجهه في الوسادة الزرقاء وأجهش بالبكاء...

بدأت حياته وكأنها انتظمت، إنه يأكل وينام ويستحم وينوس بين مشفى الرخام وعيادة التحنيط كالعادة.. حاول أن يعاود القراءة لكن ذهنه خذله مراراً بعجزه عن التركيز... اعتاد على الجرعة العالية من المنومات التي تلقي بخدرها على نهاره كله وتتركه بحالة نصف صاح، نصف نائم، كان يحس أن هذه المنومات ترفعه فوق واقعة، تشعره أنه غير معني بشيء حوله، بل ماعاد يشعر أن شيئاً يخصه، تحرر من كل طموح، وأمل، وحلم، وحتى الألم، تحرر منه، إنه ينتظر أي شيء، ولا يطلب أي شيء، يشعر بحبالة متقطعة مع الماضي والمستقبل وحاضره يدخله بحالة من الغياب، يحس أنه يعيش لأنه لا يملك خياراً آخر، لن يقتل نفسه سيتركها تنتظر المكتوب والمقدر، أغواه القدر بالتفكير بلغزه، أحقاً لكل إنسان قدره؟ وهل القدر مكتوب منذ الأزل؟ أكان مقدرأ له منذ البدء أن يولد في أسرة طيبة لأب مكافح وأم معطاءة بلا حدود، وأن يتفوق بدراسته ويحلم بدراسة الطب، ثم يغدو طبيباً ويختص بالجراحة العامة، ثم يعاني أزمات مادية ونفسية خانقة تتكثف حتى تؤدي لموت طفل!! يالشرخ الكبير الذي شطره نصفين، ولد منه الكائن الآخر الذي يشبهه كتوأم ويختلف عنه تماماً في العمق، إنه الآن معطوب... مأسخف الإنسان حين يدعي أنه قادر أن يصنع نفسه ويخلق مصيره؟ كم تسخر منا الحياة، هكذا كان يحدث نفسه وهو يتساءل: أكان يخطر لك يا كريم أن تصل إلى ماوصلت إليه، لو أمكنه وهو طالب على مقاعد الدراسة أن يتفرج إلى ماسيؤول إليه، هل كان سيختار الطب عندها؟ لكن هل حياة واحدة تكفي ليتعلم الإنسان؟ ماهذه الأسئلة الغريبة التي تلحقتها، ترى هل يشعر أنه أصبح مخبولاً بعد وفاة الصغير؟.

كان يحاور الكائن الآخر حوارات لاتنتهي.. يسأله: ماوسيلتي للنجاة من كل هذا الألم واليأس وتأنيب الضمير؟. يجيب الكائن الآخر: اصبر ياعزيزي، الزمن كفيل بشقائك.

- الزمن! لكن الزمن لن يغير من الحقيقة بشيء، فأنا نسيت بقتل الطفل،

أنا قاتل.

- لكنك لم تقصد قتله يا كريم، أنت شاب طيب ومسكين، لذلك تتعذب إلى هذا الحد، كنت تعتقد أنه سيتم تخدير الصغير لدقائق ثم سيصحو، لكنه لم يصح، هذا لا يعني أنك قاتل، كان يمكن لهذا الصغير أن يموت في عملية أخرى، استئصال زائدة دودية مثلاً، أو تعرضه لحادث سيارة يستدعي التخدير...

- لكن كل هذه الاحتمالات، تبقى احتمالات، في الواقع أنا قتلته، أزحته من الحياة، وتسببت في غرقه في حفرة داخل الأرض، وهو طفل صغير حرمة من دفء أسرته.

- لا تجنح بعيداً بخيالاتك، لاترك العنان لخيالك يعذبك... هذا الصغير كان يائساً محروماً ومضطهداً من قبل أكبر سفاح في العالم: الفقر... الفقر يا كريم أقسى من الموت، هل تفهم؟ لعلك أرحته من حياة الذل والفقر، ثم هأنت قطعت عهداً على نفسك أن تساعد أهله مادياً قدر استطاعتك...

- وما علاقة مساعدتي المادية لأهله، بالحقيقة، ببشاعة جريمتي؟.

- كيف؟ كيف لاعلاقة بينهما، إنها تدل على معدنك الطيب، الإنساني، أنت في الواقع قاتل بالصدفة.

- ماذا! قاتل بالصدفة؟

- أجل، لأنك لم تتعمد القتل، ولم تسع إليه، لسوء الحظ الصغير يعاني من نقص خمائر لم يتحمل مواد التخدير فتوفي، الأمر بسيط كما ترى، هل تريدني أن أستشهد لك بعشرات بل بمئات الحالات التي توفي فيها المرضى أثناء العملية أو بعدها. فلماذا تعذب نفسك هكذا... ثم لماذا لاتفكر بالحياة تفكيراً شمولياً، حاول أن تسائل نفسك، كم عدد الذين يموتون كل يوم من حوادث السير، من الزلازل، من الكوارث الطبيعية، كم عدد الذين يموتون من المجاعة ومن الأمراض... مابك تكاد تقتل نفسك بتلك السموم التي تبتلعها كل يوم... هلاً أحصيت كم حبة مهدئة ابتلعت منذ الكارثة؟! أراك مطرماً لاتجيب، أتعرف أنك استهلكت أكثر من مئة وخمسين حبة فالיום خلال شهر، لماذا تسمم

جسمك، لماذا تدفع بنفسك إلى الإدمان، ألتحرق قلب أمك، وهي تراك
تذوي، وتظنها لاتعرف أنك تبتلع هذه السموم لكنها تقف مشلولة، لاتجرؤ
على مخاطبتك، انظر إليها كم هي معذبة، كم تتعذب بسببك ألا يؤنبك
ضميرك تجاهها، هل انتهى العالم عند هذا الصغير!!

أجاب كريم الكائن الآخر المنشطر عنه، وهو مهدود القوى: أجل انتهى
عالمي عند هذا الصغير.

- لا، لا يجب أن تنتهي، يجب أن تحمي الأمل في نفسك من جديد.
- ولماذا علي أن أحييه؟ مالذي ينتظرنني؟ إن تلك الكارثة تلقي بظلالها
على حياتي المتبقية.

- لاتكن متشائماً، غاية الحياة هي الحياة، الحياة فن، يجب أن تتعلم
استنزاف حلاوة كل لحظة، أنت شاب والشباب ثروة، ومتعلم ومثقف،
ومحبوب اجتماعياً، أتعرف لماذا لاتفكر بالزواج مثلاً؟

- أنت تعرف أنني فاقد الشهية للحب.

- لماذا؟ كثيرات يتمنين لو تعيرهن انتباهك.

- ألا تكفيني معاناتي مع العلف اليومي، لماذا علي أن أشرك مخلوقاً آخر

معي؟.

- لكن هذا المخلوق الآخر سيساعدك مادياً ومعنوياً.

- لأريد مساعدة أحد، لأطبق أن يلازمي أحد كظلي.

- فكرتك خاطئة عن الزواج، الحياة شركة، حلاوتها في التحمل المشترك

والتمتع المشترك بكل شيء، ثم إن الأطفال نعمة، الطفل يخزي الشيطان كما
يقال.

- طفل كأسامة مثلاً، ذلك المسكين الذي مضى شهر على وفاته.

- لو استمررت تفكر بهذه الطريقة، فهذا هو الموت عينه.

- ليتني أموت حقاً، على الأقل أرتاح من عذاب الدقائق والثواني الذي لا يرحم.

- ولماذا كل هذا العذاب؟ لماذا المبالغة غير المعقولة هذه؟.

- أحقاً تسأل؟ يالك من استفزازي...

ضحك الكائن الآخر وقال: أنا استفزازي، أنا الذي يجب أن يسألك، لم كل هذا العذاب؟ أنت دمرت أعصابك يارجل خلال شهر، تحوّلت لمحبول، فقدت سبع كيليات من وزنك خلال أسبوع، حطمت جهازك العصبي بالمنومات. تهيم في الشوارع وكأن مصائب الدهر على كتفك، لماذا كل هذا الدمار يا كريم؟.

صرخ كريم بالكائن الآخر: لأنني صاحب ضمير، لأن ضميري لم يمت بعد؟ أم أنك تريدني أن أقتل ضميري.

- لا بالطبع، لكن لكل شيء حدود حتى الضمير.

- لأفهمك، هل تعني أن الضمير درجات.

- تماماً، بل يجب أن يقف عند حد معين وإلا انقلب على صاحبه ودمره.

- ماهذه السفسطة الكلامية؟ هل نتبارى في اللغة؟

- إطلاقاً، كل شيء يخص الإنسان يجب أن يقف عند حدود معينة،

الحب إذا زاد عن حدّه يدمر صاحبه، البشرية عرفت هذه الحقيقة، ألا يقولون: ومن الحب ما قتل.

الذكاء إذا زاد عن حدّه ينقلب إلى جنون، هل تعتقد أن الضمير وسيلة

للفتك بالإنسان؟ لو أخطأ كل إنسان وتعذب مثلك، لمات كل البشر من لسع

سياط ضمائرهم! طيب النسائية الذي توفيت الشابة بين يديه يجب أن يقتل

نفسه إذا؟ للضمير حدود يا كريم، إنه يجب ألا يعرقل سير الحياة، لأن غاية الحياة

هي الحياة، يجب أن نتعلم كيف نجعل الحوادث المؤلمة تنزلق علينا انزلاقاً،

وألنسمح لها أن تعكر سلامنا الداخلي وتنخر أعصابنا في العمق، وتحولنا إلى

هياكل فارغة كالقبور...

- كلامك سهل جذاب، لكنه خاطئ، لن تفلح في إغوائي بمنطقك الهزيل، أقول لك بل أوكد أنه يستحيل على الإنسان أن يتحرر من آثار ما اقترفته يداه، يستحيل أن أعود كريم الأول، كل شيء فيّ تغير.

- بل أنت كريم ذاته، لكن لو ترحم نفسك قليلاً، وماأشد قسوتك على نفسك؟

- أرحم نفسي! ها أنا أرحمها، لقد عدت أمارس حياتي كالسابق، وهاهو جسدي الدنس الوضيع يدب إلى الحياة ويطلب الطعام والشراب والنوم.

- يجب أن تكف عن احتقار نفسك، القاعدة الجوهرية التي يجب أن ينطلق منها الإنسان لينجح في الحياة، هي قبوله لنفسه، ليس مجرد قبول، بل أن يحبها، أن يسامحها ويرأف بها ويعرف أن الطبيعة البشرية تتعثر وتسقط، وبأنها ليست منزهة عن الخطأ. إن لم تحب نفسك لن تقدر على محبة أحد.

- لكني لأحب نفسي، إنه الأمر الوحيد الذي اثق به، أنا أكره نفسي صدقني وأملك كل الأسباب كي أكرهها، لايمكن أن أنسى إطلاقاً كيف جررت هذا الطفل إلى الموت...

لايمكن أن أنسى أتفهم؟

- عجباً، أنت لاترضى أن تساعد نفسك، ولأن يساعدك أحد.

قال كريم باحتداد للكائن الآخر: أنا لأريد مساعدتك، ولأحب تطفلك، اتركني وشأني دعني احمل وجعي وحدي. تبادلنا نظرة ملتبسة، عاتبة متحدية ويائسة وحنونة... انطفأ الكائن الآخر، أو عاد إلى مخبئه في ركن من صدر كريم، ابتلع الطبيب المخدول حبتين مهدئتين، تكوّر في فراشه متخذاً وضعية الجنين، عارفاً سلفاً أنه سيحلم بأسامة.

منذ الحادثة المشؤومة صار يتخذ وضعية الجنين في نومه، لعله يجد فيها الحماية التي ألفها يوماً ما حين كان جنيناً. كان حلمه هذه المرة رهيباً، حلم بأسامة مسجى على طاولة العمليات، وبأنه حي، لكنه مخدّر، طبيب التخدير

أعطاه إشارة البدء بالعمل. سأله كريم: هل وضع الصغير جيد. أكد طبيب التخدير: ممتاز.

تردد كريم: هل أطوق المعصرة بالسلك أم أتركها؟! لكنه حين همّ بالكشف عن منطقة العملية، أطلق صرخة زعر مدوية، كانت أمعاء الصغير مسحوبة كلها من فوهة شرجه ومتكومة بجانبه، انتفض طبيب التخدير من صراخ كريم، سأل: ما الخبر؟ لم يستطيع كريم التفوه بأية كلمة، أشار إلى أمعاء الصغير، لم يبد أي زعر على طبيب التخدير بل أمسك مشرطاً قطعها وألقاها في القمامة.

فتح كريم عينيه مذعوراً، لاهثاً من فظاعة الكابوس، وإلى متى سيظل أسير كوايسه؟ كان يلهث من الانفعال وكأنه خارج من تمارين رياضية منهكة، تساءل بقلق: ألي هذا الحد ترهقه الكوايس؟ أتاه صوت الكائن الآخر الذي استيقظ بدوره بسبب الكابوس، وقال بحنق:

- الانفعال أقوى من أي جهد جسدي.. إلى متى يا كريم، إلى متى ستحرق أعصابك؟!

ردّ كريم منهكاً: لكنني لأملك السيطرة على أحلامي.

- حين تحاول تهدئة نفسك، ستتغير أحلامك.

ردّ هازئاً: ستصير أحلاماً وردية.

- أجل ستصير أحلاماً وردية.

فكرّ هذا الصباح أن يقصد طبيباً اختصاصياً بالأمراض النفسية، لم لا، النفس تمرض كالجسد وتحتاج لعلاج، ارتاح للفكرة، لكن صوتاً منطلقاً من قاع روحه ذكره انه لن يستطيع أن ييوح بتلك الحادثة للطبيب إذا ما معني اللجوء إليه؟ هبط حماسه سريعاً وهو يتساءل: ماذا سيقدم لي طبيب الأمراض النفسية؟ هل سيلغي هذه الحادثة؟ سيصف لي مهدئات من نوع آخر، سيقول كلاماً انجح أكثر منه في قوله، مجرد كلام، أه متى أرتاح؟ هاقد مضى شهر ويومان على

وفاة أسامة، وأنا أشعر أنني أغرق أكثر وأكثر في لجة الظلام... آه ما أثقل الزمن حين تفرشه الآلام، أقر بينه وبين نفسه أنه ليس كالحزن يسرع في الشيخوخة، إنه يشعر أنه غدا كهلاً، صار يلهث وهو يصعد الدرج، فقد شهيته للطعام، يحس بآلام مبهمة في جسده كله، وحلاقة ذقنه ترهقه، وتشعره أنه بذل جهداً عظيماً... يتأمل شخصه في المرآة، لا يكاد يتعرفه، عيناه بحيرتا حزن بنفسجيتان، هالة سمراء تصبغ أجفانه، شفتاه جافتان، وخداه غائران.. شعره وحده يبدو غير متأثر بالمصيبة محافظاً على لمعانه وكثافته. كان يحبس جسده مندهشاً من نحوله الشديد، ويمارح نفسه قائلاً: الريحيم الحقيقي هو المصيبة. بدت له كل سنوات حياته أشبه بضباب بعيد، المصيبة وحدها ترك وشماً يحتل الذاكرة كلها.. إنها تلغي تماماً كل أشرطة التسجيل للذكريات القريبة والبعيدة، تعلن توقيتاً جديداً يبدأ من لحظة وقوع الكارثة، وهو يشعر بعد شهر من وقوع الحادثة بأنه أوشك على التأقلم مع الجحيم، اعتاد على الدهول والكوايس والمهدئات، يسفها بكميات جنونية، نسي رفاقه وثرثرة المقاهي، وثرثرة استراحة العمليات، وحواسه مشغولة، تحديداً معطوبة، المصيبة زلزلت كيانه، فجرته وماعاد بإمكانه ترميمه حتى أمه يحسها بعيدة، كأن كل منهما يقف على ضفة نهر، وبينهما شرح عريض أزرق، يناديها فلا تسمعه، تناديه فلا يسمعها، يشحذ حبها كمتسول، لا ينتظر شيئاً على الإطلاق، يقول لنفسه مراراً بأنه يتمنى الموت، لكنه كذاب، لأنه لم يحاول جدياً الانتحار أحياناً تذهله قدرة روحه على التمثيل، يكاد يقنع نفسه بأنه لم يقتل الصغير، يحس أنه اقتنع، يعيش ساعات من المرح المبالغت، يضحك بنهم، ضحكاً عصبياً، يشعر بأن الحياة جميلة، وبأنه يتمتع بامتيازات يحسد عليها. الروح تأنف الحزن المديد، تريد أن تبدده، إنها بفطرتها تتوق للفرح. لكن أكاذيبه لاتعيش أكثر من ساعات، يداهمه الغم فجأة متمثلاً بالحقيقة المرة، يحتضر بلحظة كل فرحه المزعوم، يحس كم هي مشتته روحه ومرضوضه، يستسلم للمرارة القاتلة، يحسها في حلقة وقلبه. يتساءل بانكسار: أما من أمل بالشفاء؟ هل ستظل تلك الحادثة تلاحقني كاللعنة؟ يحس الحزن نفقاً طويلاً لانهاية له، أو بئراً بلاقاع، لو هوى

فيها فسيخرج من الفتحة المقابلة من الكرة الأرضية، ثم سيضيع في الفضاء الكوني، لشد ما يمتنى أن يتوه كنيزك هارب. تساءل: ترى أما من علاقة بين الاضطرابات النفسية للبشر والاضطرابات الكونية؟ أليس كل مافي الوجود أساسه النواة؟ والعلماء ينقبون في تلك النقطة المجهرية ويكشفون العجب، قرأ مقالاً منذ مدة أدهشه، العلماء يتوصلون لاكتشاف الأمراض التي يمكن أن يصاب بها الإنسان عن طريق دراسة صبغياته... العباقرة والعلماء يستخدمون حوالي ١٠٪ من طاقة دماغهم، حاول تخيل ماذا سيحدث لو استخدم الإنسان طاقاته الذهنية كاملة، تخيل بأن الأرض ستفجر كقنبلة... تساءل: ترى مامستوى ذكائي، كم يستخدم من طاقاته الذهنية؟ تذكر قصة أن البشر تمردوا على قدرهم، فطلب إليهم القدر، أن يطرح كل منهم مشكلته في السوق ويختار بدلاً منها ما يقدر على تحمله - فعاد كل واحد ليختار همه لكنه متأكد أنه يستحيل أن يختار تلك المصيبة، إنه يتمنى لو يخسر عيناً أو رجلاً، أو يموت حتى يتحرر بالمقابل من وزر جريمته النكراء... روحه مهددة بالدمار بسبب موت أسامة... ترى الاتصاب الروح بالسرطان؟! أليس الوجع المستمر والمضني للروح هو سرطانها؟! سرطان الجسد يمكن شفاؤه أحياناً، فكيف يمكن شفاء سرطان الروح؟ كان يشعر أن روحه تخرج على دفعات مع انفاسه وأنها تكاد تنفق... لكن إنه يشعر بأشواق غامضة وبعيدة جداً، تلوح له مخاتلة، لاتحدثه، لكنه يشعر أنها تعده بالشفاء، أتراه واهماً، أم أن تلك الأشواق حقيقة؟ هل من أمل فعلي في شفاؤه... آه لو يرجع أسامة للحياة، لو تذوب روحه في جسد جنيني يتشكل في بطن امرأة ما... تساءل: هل ستلتقي روحي مع روح أسامة بعد وفاتي، وكيف سيكون اللقاء؟ لكن هل هناك عالم للأرواح حقاً؟ وهل تتلاقى تلك الأرواح؟ ياإلهي ماذا قدمت لنا سوى الألغاز؟ يقضي الإنسان حياته كلها محاولاً فك الألغاز، يخترع الأساطير، ويؤلف القصص والأشعار متوهماً أنه يفك رمز الحياة، فإذا به ينتقل من غموض إلى غموض أشد.

يحس أنه يطل على عالم الجنون ولايدخله، ذهنه فقد صفاءه نهائياً،

أفكاره أشبه بالهلاوس، ودوماً صورة أسامة ميتاً على طاولة العمليات تملأ فضاء رؤيته، حتى حين يغمض عينيه ترتسم تحت أجفانه، كل الأشياء ماعادت تعنيه، لا كتبه ولا مجلاته ولا دفاتر مذكراته، لم يكثر أن يلبس القميص ذاته اسبوعاً، غرض وحيد يحرص عليه ويطيل النظر إليه ويتشممه ويخاطبه، إنه الوسادة الزرقاء لأسامة، إنها الشيء الوحيد الذي يقدر على إقامة علاقة معه... كم كان يدفن وجهه في الوسادة يصغي للصمت، أو للدوي الهائل في أعماقه، الناتج عن الصراع المرير الأزلي بين اليأس والأمل، يحس أنه يقترب من الصغير حين يحتضن الوسادة، ينهر خياله كي يخلق صور أسامة حياً، يلغب ويصرخ، لكن عبثاً، الصغير مصمم على الاستلقاء والنوم بعمق حتى الموت.

أخذ يفكر بالانتحار كحلٍ يريحه من عذاباته، مفكراً أما سلبت الصغير حياته، يجب أن تكون عقوبتي الموت، العدالة يجب أن تسلبني حياتي، لكن عزيمته على التنفيذ مشلولة.

إنه محاصر بين قوسين، فكل ما يبرطمه من كلام بشأن الانتحار لن ينفذ منه شيئاً، وليس قادراً في المقابل على إحياء أمل حقيقي في روحه لاستئناف الحياة مجدداً...

وقد يستمر الإنسان مشلولاً أعواماً طويلة ولا يموت، نفسه تحدثه أنه سيحتر سنوات طويلة من الألم، ربما كل السنوات المتبقية من حياته، هناك آلام تحسها من صنع السماء تشفي، وآلام من صنع الجحيم تدمر... لماذا آلامه من النوع الثاني دوماً؟ إنه يشعر أن آلام روحه غدت فوق طاقته، وهامو يقضي ساعات طويلة منصتاً لأنين ألمه الخاص. صار يفكر بأن الموت هو البلاغة الحقيقية في الوجود كله، ترى لم لا يملك الجرأة على الانتحار؟ ماعاد يطبق عيادته ولا مشفى الرخام، إنهما شاهدان أبديان على جريمته... فكر أن يقدم طلباً بإجازة طويلة، لكن ما الفائدة؟ فهو عملياً كأنه في إجازة أبدية، ولم يدخل غرفة العمليات منذ تلك الحادثة المشؤومة، يشعر أنه عاجز عن دخولها، وما وجوده في المشفى سوى مجرد توقيع.

لم يكن يجرؤ على تخيل أنه سيشفى، وسيستعيد صحته النفسية، وتحول تلك الحادثة لذكرى بعيدة، إنه يعرف بحدسٍ غريب بأنه معطوب من الداخل، وبأن موت الصغير هو التويج لسلسلة متراكمة من الأخطاء التي تورط بها ولم يخترها يوماً... لم يعد المال يعني له أي شيء، لم يشتر شيئاً منذ الحادثة سوى السجائر.

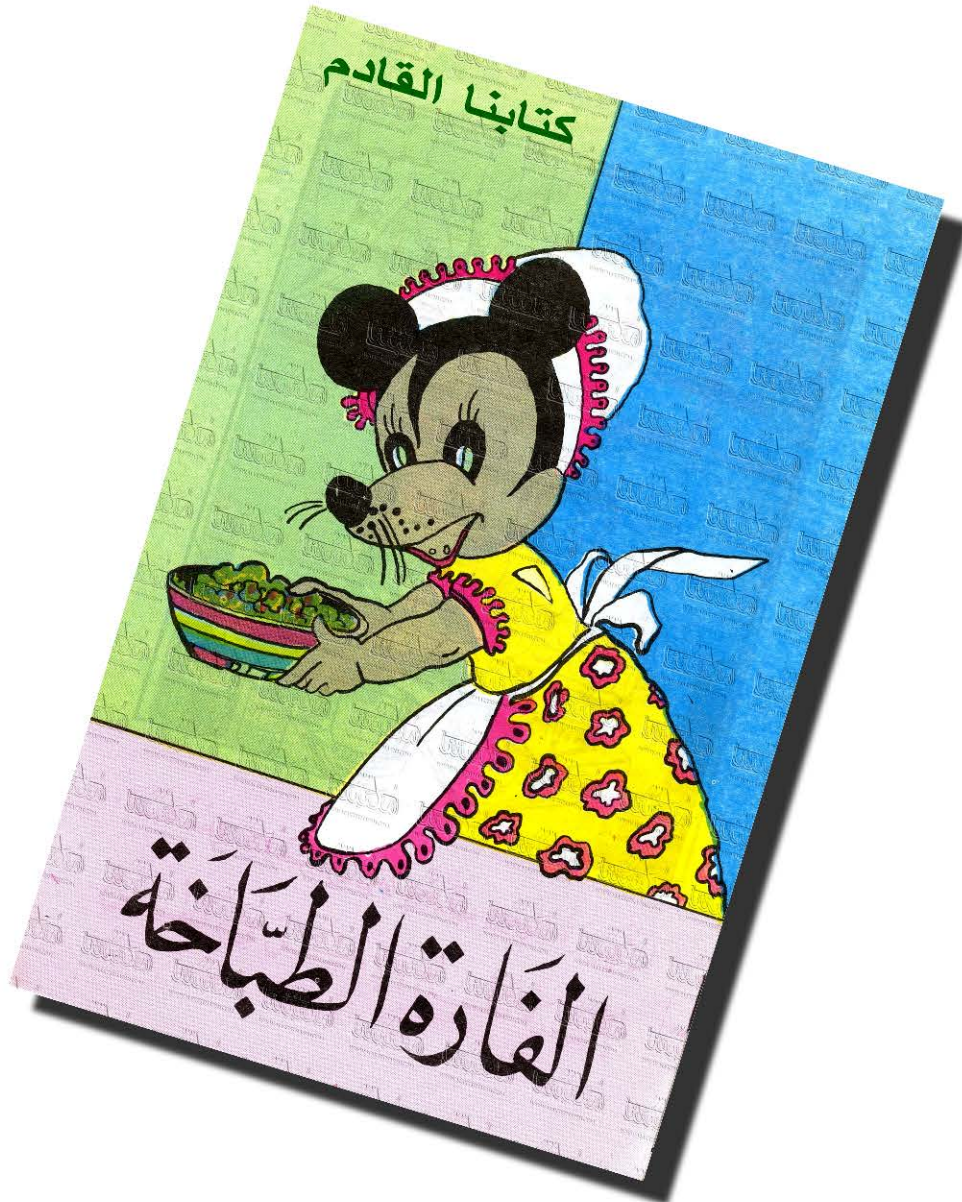
حين فكر أن يقدم راتبه الثاني بعد الحادثة لأهل الطفل أحس بخوف، ألا يمكن أن يشير شكوكهم؟ تعجب أن والد الصغير لم يقصده أبداً في عيادته بعد الحادثة، وحتى بعد أن أعطى المال لزوجته... أترى زحمة الحياة أنسته حتى ابنه؟!

الراتب الحقير في جيبه، لامعنى له، ولاقيمة، أوقف سيارة اجرة لينطلق إلى بيت الفقيد ليقدم الراتب الثاني عن روحه أيضاً، لكنه طلب من السائق أن يتوقف بعد دقائق... وترجل من السيارة يسير كالتائه، تقدمت منه متسولة صغيرة حافية القدمين، تمد له كفاً قدرة، بأظافر طويلة محشوة بالأوساخ، تأملها بأسمالها البالية الواسعة، وبقدميها الحافيتين المزرقتين، وجد نفسه يخرج محتوى جيوبه ويقدم لها راتبه كاملاً...

شهقت مذعورة، رفعت إليه عينين مذعورتين، إنها تتوقع صفة مدوية على وجهها لو تجرأت ولمست المبلغ قال لها برقة: خذي المال، خذيه كله... لم تجرؤ، نظرتها خرساء ومشلولة، وضع الأوراق المالية في يدها وأغلق أصابعها وقال: هذا لك. ظلت تقف جامدة وفي عينيها نظرة دهشة مملوءة بالذعر، تركها وقد بدأت آلام حادة أشبه بالطعنات تنتشر في صدره ومعدته، اعتقد أنها آلام الجوع، لكن الآلام غدت وحشية لدرجة أخذت خطواته تضطرب، أحس أن الدنيا تدور حوله وتدور... اضطر أن يستند إلى عمود الكهرباء، فيما رغبة لاتقاوم بلاقياء تداهمه، تساءل لكنني لم أكل شيئاً هذا الصباح، لم أشرب سوى شراب الحداد، القهوة... امتلأ فمه فجأة بسائل لزج حار، تقيأ دماً غزيراً قانياً، لوّث ثيابه وبلاط الرصيف، شعر أن أطرافه مغمورة بالثلج، أحس براحة

أشبهه بالغيوبة، تقياً الدفعة الثانية من السائل الأحمر، تهاوى وهو يشعر أنه يطير في فضاء فسيح فسيح لا يحده عائق أو نهاية، روحه تحلّق في الفضاء وجسده يتكوم على الأرض... سمع ضجّة عالية حوله... أمكنه أن يرى وجهين، أمه الحبيبة تبكيه بحرقة، همس لها: يبدو أن هذه المعاناة غير مجدّية يا أمي. سمع تساؤلها: أية معاناة يا كريم؟ ابتسم قائلاً: معاناة البشرية.

الوجه الثاني الذي تهلل للقاءه كان وجه أسامة، نضر وردياً، وقد شعت عيناه بنظرة طفولية عذبة، أخذ أسامة يضحك من كل قلبه، لأول مرة يسمع صوته منذ وفاته، قفز الصغير ليمتطي حصاناً رائعاً لونه أزرق، ذيله ذهبي، وعيناه بنفسجيتان ساحرتان، ينظر إليه أسامة وهو يصفق يديه قائلاً: سأغدو فارساً ألاترى حصاني الأزرق، إنه أول حصان أزرق في العالم، في التاريخ، يضحك وهو يمد له يده الطرية التي يقطر من رسغها دم أحمر امتزج بدمه... يغيب كل شيء في ذهنه، تتلاشى هلاوسه البصرية، لم يتبق منها سوى طيفين، للونين الأزرق والأحمر، لون الحلم، ولون الدم...



Tuse.

29/1/2013

Riyadh

- اغتصبك؟

- أجل.

ها هو الانكسار مجسّد أمامه في صورتها، كفت أصابعها عن الحركة، سقطت راحتها في حضنها بوضعية الاستسلام، بدت متحللة من ثقل ذلك الكابوس بعد أن باحت به، لم تشأ أن ترفع عينيها لتري رد فعله، خافت أن تقرأ في العينين اللتين لم تعشق سواهما، شفقة أو احتقاراً أو خيبة، بدت مهتمة بمتابعة نقوش تنورتها من اللونين الحمري والأسود، سألتها بصوت حاول أن يكون حياًياً:
- وماذا فعلت؟

قالت ببرود:

- لا شيء.

نسر
بجناح وجيد

رواية

هيفاء بيطار

• رواية من سورية

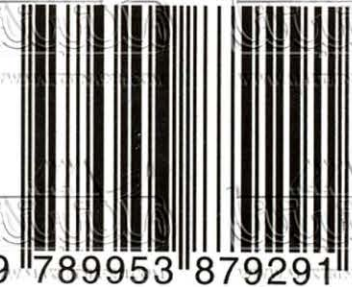
لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية تغريد البقشي
www.bagshiart.net - artbagshi@yahoo.com

تصميم الغلاف: سامح خلف

• صدر للمؤلفة أيضاً:



ISBN 978-9953-87-929-1



9 789953 879291

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

هاتف: (+213) 2 1676179
149 شارع حسيدة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com - www.nwf.com

نيل وفورات. كوم

جميع كتبنا متوفرة في موقع